

برنامج التربية

رقم المقرر
5123

عقيدة إسلامية
(1)

2009

جامعة
القدس
المفتوحة



برنامج التربية

رقم المقرر 5123

عقيدة إسلامية
(1)

إعداد

د. راجح الكردي
د. محمد الحاج
د. كايد قرعوش
د. محمد الخطيب

مقرر عقيدة إسلامية (1) / رقم المقرر 5123

إعداد المادة العلمية	د. راجح الكردي د. كايد قرعوش د. محمد الحاج د. محمد الخطيب
التحكيم	
التحرير اللغوي	أ. محمد البرازي
التصميم التعليمي	أ. محمد البرازي
التصميم الفني	أ. بهجت عثمان - أ. محمد أبو الرب
التدقيق الطباعي	
التنضيد الطباعي	أ. هند ناصر
المراجعة النهائية	

منشورات جامعة القدس المفتوحة

الطبعة الأولى 1993

ص.ب : (77) أم السماق هاتف: 5522561 عمان - الأردن

بريد الكتروني: amman@qou.edu

رقم التصنيف

المؤلف ومن هو في حكمه

عنوان المصنف

رؤوس الموضوعات

رقم الايداع

الملاحظات

تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل المكتبة الوطنية*

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة المقرر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الهادي الأمين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:

عزيزي الدارس، أرحب بك إلى هذا المقرر الذي انتظمت صفحاته فصولاً من العقيدة الإسلامية، وإنك لتقدر معي، عزيزي الدارس، أهمية هذا المقرر بالنظر إلى موقع العقيدة في البناء الفكري والثقافي للأمة، فالعقيدة لدى كل أمة أساس تصدر عنه في حياتها، وإطار يحدد نظرتها إلى الكون والحياة والإنسان، بغض النظر عما إذا كانت هذه العقيدة صحيحة أو فاسدة، إذ يكفي أن تكون قد انعقدت عليها القلوب، واطمأنت إليها النفوس، وتشربتها الضمائر.

والعقيدة الإسلامية، من دون سائر العقائد الأخرى، عقيدة يقينية قطعية، لأنها عقيدة ربانية، والإيمان بالله – تعالى- عمادها، والعبودية محورها، وقد تكفلت من خلال أركانها الستة (الإيمان بالله – تعالى- وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر) بالإجابة عن أسئلة الإنسانية الحائرة: من أنا ؟ ومن أين جئت؟ ولم جئت؟ وإلى أين المصير؟

لا غرو إذن أن يفرد البرنامج لهذا الموضوع الحساس مقررين هما:

5123 العقيدة الإسلامية (1).

5127 العقيدة الإسلامية (2).

ويدور الحديث في هذين المقررين حول أركان الإيمان سالفة الذكر، وسيكون لك دور فاعل في التعامل مع المادة التعليمية في هذين المقررين بما تتيحه لك هذه المادة من صور النشاط والعمل في صيغة أنشطة وتدريبات وإجابة عن أسئلة التقويم الذاتي مما ييسر لك فرصة استيعاب المادة التعليمية، والتفاعل معها بصورة حسنة.

الأهداف العامة للمقرر:

بعد أن تفرغ من دراسة هذا المقرر ينبغي أن تكون قادراً على أن:

1- تتبين مفهوم العقيدة الإسلامية وموضوعها ومصادرها وخصائصها.

2- تستوعب مفهوم كل من الإيمان والإسلام ونواقضهما.

3- تستدل على وجود الله – تعالى- ووحدانيته بالأدلة العقلية والسمعية.

4- تتبين أنواع التوحيد وأدلتها.

5- تتعرف إلى طبيعة الملائكة وصفاتهم ووظائفهم وعلاقتهم بالجن والإنس.
6- تتبين الكتب السماوية السابقة وما لحق بها من تحريف.
7- تتعرف إلى خصائص القرآن الكريم ومزاياه عن الكتب السماوية السابقة.

محتوى المقرر:

وقد خُصِّصَ لهذا المقرر ساعتان معتمدتان، وقد جاء في أربع وحدات على النحو التالي:

الوحدة الأولى: مدخل إلى العقيدة الإسلامية، وفيها بيان لمفهوم العقيدة وموضوعها وأهميتها ومصادرها وخصائصها، ومفهوم كل من الإسلام والإيمان، وبيان لنواقض الإيمان.

الوحدة الثانية: توحيد الله – تعالى–، وقد تناولت موضوع الأدلة على وجوده سبحانه، وأدلة توحيده، وأنواع التوحيد.

الوحدة الثالثة: الإيمان بالملائكة من حيث صلتهم بعالم الغيب وحقيقتهم وصفاتهم ووظائفهم وعلاقتهم بالجن، وأثر الإيمان بهم في حياتنا.

الوحدة الرابعة: الإيمان بالكتب السماوية، وذلك ببيان مفهومها وأسمائها وأدلة الإيمان بها ونماذج من تحريف الكتب السابقة منها، وخصائص القرآن الكريم.

وأخيراً نرجو، أخي الدارس، أن نكون قد وفقنا في تقديم ما يحقق لك الفائدة والمتعة، آملين تزويد مشرفك الأكاديمي في الجامعة بالملاحظات التي تراها مناسبة لتطوير هذا المقرر.

والله ولي التوفيق

محتويات المقرر



الوحدة الأولى

مدخل إلى العقيدة الإسلامية

محتويات الوحدة

1. المقدمة

1.1 تمهيد

أخي الدارس... أختي الدارسة:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هذه هي الوحدة الأولى من مقرر العقيدة الإسلامية (1) في برنامج التربية تخصص التربية الإسلامية... موضوع هذه الوحدة «مدخل إلى العقيدة الإسلامية» وقد اعتمدت في كتابة هذه الوحدة على المصدرين الرئيسين للعلوم الإسلامية كلها وهما القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ثم على مؤلفات علمائنا القدامى والمحدثين في هذا الموضوع. تتكون هذه الوحدة من ثلاثة أقسام عدا المقدمة والأهداف والأجزاء الختامية. هذه الأقسام هي:

الأول: مفهوم العقيدة الإسلامية وموضوعها، وأهمية العقيدة للفرد والمجتمع، ومدى حاجة البشرية للعقيدة الإسلامية وما تتميز به دون غيرها من العقائد والتصورات الفلسفية.

أما القسم الثاني: فهو حول مفهوم الإيمان والإسلام، ومدى العلاقة بين هذين المصطلحين، ومعرفة متى يكون العبد مسلماً ومتى يكون مؤمناً.

وأما القسم الثالث: فيبحث في نواقض الإيمان وما يخرج من الملة وهي تحت أنواع أربعة: انتفاء التوحيد بالكفر أو الشرك أو إنكار معلوم من الدين بالضرورة، والطعن في الرسالة أو الرسول، وموالاة الكفار، وعدم الرضى بالإسلام.

ترد في ثنايا هذه الوحدة تدريبات يقصد بها استثارة الدافعية للتعلم في أثناء قراءة الوحدة، وقد اخترت أن تكون هذه التدريبات من صلب المادة، يمكن لك - أخي الدارس- أن تجيب عليها من خلال قراءة متأنية للمادة العلمية التي بين يديك وبعض هذه التدريبات حول الرجوع إلى بعض المصادر والمراجع الضرورية لموضوع هذه الوحدة. كما وضعت لك - أخي الدارس - أسئلة للتقويم عليك الإجابة عليها مما قرأت، متمنياً لك تحصيلاً جيداً وفائدة بينة ونجاحاً زاهراً.

2.1 أهداف الوحدة

يتوقع منك، عزيزي الدارس، بعد دراستك لهذه الوحدة وتنفيذك لتدريباتها وأنشطتها أن تصبح قادراً على أن:

1- تشرح مفهوم العقيدة اصطلاحاً ولغةً.

2- تعرف موضوع علم العقيدة.

3- تبين أهمية العقيدة وحاجة الناس إليها.
4- تحدد مصادر العقيدة الإسلامية.
5- توضح خصائص العقيدة الإسلامية.
6- تشرح مفهوم كل من الإسلام والإيمان، وتبين الفرق بينهما.
7- تبين أبرز نواقض الإيمان.

3.1 أقسام الوحدة

تشمل هذه الوحدة ثلاثة أقسام:

القسم الأول: مدخل بينت لك فيه مفهوم العقيدة في **اللغة والاصطلاح** مع الربط بين المعنيين، ثم ذكرت الموضوع الذي يدور حوله علم العقيدة الإسلامية. وتبينت معك أهمية العقيدة الإسلامية في حياة الفرد والمجتمعات ومدى حاجة الإنسانية للعقيدة الإسلامية. ثم تحدثت معك عن مصادر العقيدة الإسلامية حيث مرت في مرحلتين مرحلة الصفاء التي انحصرت مصادرها في الكتاب والسنة، ثم مرحلة الاختلاط ومظنّة التأثير حيث دخلت فلسفات وتصورات وشكلت بالإضافة إلى الكتاب والسنة مصادر العقيدة الإسلامية. وختمت هذا المدخل بالحديث عن خصائص العقيدة الإسلامية، وبينت أمامك أنها عقيدة إلهية متميزة عن التصورات البشرية.

القسم الثاني: الإيمان والإسلام، تعرضت فيه لهذين المصطلحين فبينت لك مفهوم كل كلمة لغة واصطلاحاً، والفرق بينهما، ومدى العلاقة بين المصطلحين إذا التقيا وإذا انفردا وبينت أنهما لفظان إن اجتمعا افترقا في المعنى، وإن افترقا اجتمعا في المعنى.

القسم الثالث: نواقض الإيمان: فقد بينت لك كيف يكون الدخول إلى الإيمان، والأمور التي تخرج العبد منه، وحصرت هذه النواقض المبطلة للإيمان في أمور أربعة هي:

الأول: انتفاء التوحيد، بالكفر أو بالشرك، أو بالنفاق.

والثاني: الطعن في الرسالة والرسول، بالسب أو التكذيب أو الاستهزاء بالرسول ﷺ، أو بالأنكار لأي أمر ثبت عن النبي ﷺ.

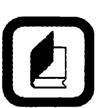
والثالث: موالاة الكفار بطاعتهم أو اتباع ملتهم أو مداهنتهم ومداراتهم على حساب الدين أو اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين.

بالإضافة إلى: عدم الرضى بالإسلام، وذلك بإظهار عدم الرضى والتسليم لأي

حكم من أحكام الشريعة الإسلامية، أو الاستهزاء بأي حكم من أحكامها، وكذلك في عدم تكفير الكافرين، والرضى بأفكارهم وتصوراتهم المخالفة للإسلام.

ومن المؤمل، عزيزي الدارس، أن تؤدي دراستك لهذه الوحدة إلى تحقيق الأهداف المخصصة لها، فمن المأمول أن تحقق دراستك للقسم الأول الأهداف (1-5)، وتحقق دراستك للقسم الثاني الهدف (6) وتحقق دراستك للقسم الثالث الهدف (7).

آملاً أن ترفدك هذه الوحدة بغنى في ثقافة الروح وبزاد من المعرفة تهتدي به وتهدي من يتألفه الهدى.



4.1 القراءات المساعدة

أخي الدارس: إذا أردت أن تفهم المادة جيداً وتستوعب الموضوع من كل جوانبه فعليك أن لا تقتصر على ما أقدمه بين يديك، بل لا بد أن تقوم بجهدك الشخصي وتقرأ عن موضوع هذه الوحدة في كتب العقيدة، وحتى أسهل مهمتك أدعوك إلى القراءات الآتية:

أولاً: قراءة مادة أمن وسلم وعقد من قاموس تاج العروس للفيروزأبادي، إضافة إلى ما وضعته بين يديك من قاموس لسان العرب لابن منظور.

ثانياً: قراءة كتاب الإيمان لابن تيمية / الجزء السابع من مجموع الفتاوي والتركيز على الصفحات (5-12، 263-271، 275-276، 336-343، 358-378، 409-416).

ثالثاً: قراءة فصل نواقض الشهادتين من كتاب، الإسلام لسعيد حَوَّى من ص ص 73-89 / جزء1، الطبعة 1969م.

5.1 ما تحتاج إليه لدراسة الوحدة

احرص، أخي الدارس، على الإجابة عن جميع أسئلة التقويم الذاتي، لأنها تساعدك على احتواء المادة التعليمية، وتنبه إلى أن هنالك تدريبات حاول الإجابة عنها، وقارن إجابتك هذه بالإجابة اللاحقة لها المثبتة في آخر الوحدة، ولا تنسَ أن تقوم بالتعيينات المتعلقة بالوحدة، وقدم التقارير المطلوبة منك إلى مشرفك الأكاديمي بغية تقويمها، متمنياً لك التوفيق.

وإذا استعصى عليك أمر فما عليك إلا الاتصال بمشرفك الأكاديمي.

2. مفهوم العقيدة الإسلامية وأهميتها ومصادرها وخصائصها

1.2 مفهوم العقيدة الإسلامية

أخي الدارس... أختي الدارسة:

قبل أن أبدأ بتوضيح معنى كلمة العقيدة لا بد لي أن أشير إلى أن هذا المصطلح لم يرد في الكتاب أو السنّة ولم يستخدم في صدر الإسلام، بل كانوا يعبرون عن هذا الموضوع بمصطلح الإيمان الوارد في القرآن الكريم والسنة والنبوية، ثم استخدم مصطلح آخر قبل مصطلح العقيدة هو التوحيد.

وهذا لا يعني أن مصطلح العقيدة جاء من فراغ وبلا أرضية فالكلمة باشتقاقاتها اللغوية موجودة في الكتاب والسنة، ومعانيها اللغوية تؤكد صحة استخدامها لهذا الاصطلاح مما جعلها تحتل مركز الصدارة لتكون العنوان الرئيسي لهذا الموضوع وصار هذا العلم يعرف باسم علم العقيدة وتؤلف فيه الكتب والمؤلفات وتطرح مادة علمية بهذا الاسم يعكف على دراستها طلبة الجامعات والمعاهد المتخصصة.

1.1.2 المعنى اللغوي للعقيدة

إذا رجعت، أخي الدارس، إلى قواميس اللغة العربية وبحثت عن الثلاثي الذي تعود إليه هذه الكلمة وهو الفعل «عَقَدَ» فستجد له معاني مختلفة كلها تدور حول الربط واللزوم والتأكد من الاستيثاق فقد جاء في **لسان العرب لابن منظور**: العقد نقيض الحل. واعتقدهُ كعَقَدَهُ... ويقال عقدت الحبل فهو معقود وكذلك العهد... وعَقَد العهد واليمين يعقدهما عقداً وعقدهما بمعنى أكدهما ومنه قوله – تعالى-:

﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ (النساء: 33).

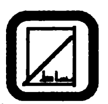
وقوله: ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾ (المائدة: 89).

والعقود أوكد العهود ومنه قوله – تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ (المائدة: 1).

وعقد فلان قلبه على الشيء: لزمه، وفي الحديث «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» (أخرجه البخاري في كتاب الجهاد /43) أي ملازم لها كأنه معقود فيها.

وعقدة النكاح والبيع: وجوبهما، قال الفارسي: هو من الشد والربط وعقدة كل

شيء إبرامه. **لسان العرب لابن منظور** (مادة عقد) والقلب محل الاعتقاد، قال الرازي في مختار الصحاح: واعتقد كذا بقلبه (مختار الصحاح لأبي بكر الرازي، مادة عقد).



نشاط(1)

أخي الدارس... أختي الدارسة:

ارجع إلى القرآن الكريم، واحصر الآيات التي وردت فيها مشتقات كلمة عقـد، وتعرف على المعنى لكل كلمة من أي تفسير للقرآن الكريم تيسر بـين يـديك (يمكنـك الاستفادة من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/محمد فؤاد عبد الباقي).

2.1.2 المعنى الاصطلاحي لكلمة العقيدة

العقيدة هي ما يعقد المرء عليه قلبه ويدين به، والعقائد هي الأمور التي تُـصَدَّقُ بها النفوس، وتطمئن إليها القلوب وتكون يقيناً عند أصحابها لا يمازجها ريب ولا يخالطها شك (رسالة العقائد – حسن البنّا، انظر مجموع الرسائل /429).

وقد أطلقت هذه الكلمة على العلم الذي يتعلق بقضايا التوحيد والإيمان. وهي تقابل الشريعة، إذ الإسلام عقيدة وشريعة. فالعقيدة هي الأمور العلمية الإيمانية التي يجب على المسلم أن يعتقدها في قلبه لأن الله أخبره بها بطريقة كتابه أو بطريق وصية إلى رسـوله ﷺ. والشريعة تعني التكاليف العملية التي جاء بها الإسلام في العبادات والمعاملات.

ولقد سميت هذه الأمور العلمية الإيمانية عقيدة لأن الله – تعالى- أمرنا أن نُصَدِّقَ بها تصديقاً جازماً فينعقد القلب علي الإيمان بها انعقاداً مؤكداً لازماً.

والعقيدة بمعنى الإيمان، يقال: اعتقد بكذا أي آمن به، والإيمان بمعنى التصديق، يقال آمن بالشيء أي صدق به تصديقا لا ريب فيه ولا شك معه، ومنه قوله تعالى: (وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا) (يوسف: 17).

أي بمصدق لنا. فيخرج منه الوهم والشك والظن.

ومما سبق فإنك – أخي الدارس- ترى الترادف بين العقيدة والإيمان، ولذلك فلا عجب أن يُسمَّى العلم الذي يبحث في القضايا الإيمانية علم العقيدة.

والعقيدة هي الدين الذي أجمعت عليه الرسالات ووصى الله – تعالى- به رسـله الكـــرام (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا

وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ) (الشورى: 13).

وهذا الدين الواحد الذي أجمع عليه الرسل جميعاً هو أصول العقائد وقواعد الإيمان لا فروع الدين ولا شرائعه العملية، فإن لكل أمة من التشريعات العملية ما يتناسب مع ظروفها وأحوالها (انظر العقائد الإسلامية / سيّد سابق / 9) (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) (المائدة: 48)

2.2 موضوع العقيدة الإسلامية

لقد عرفنا مما سبق أن قضايا العقيدة عَبّرَ عنها القرآن الكريم باسم الإيمان، ثم أخذت اسم التوحيد، وكانت تسمية العقيدة متأخرة على هذين المصطلحين، **وهذا يعني أن:**

موضوع العقيدة الإسلامية هو القضايا الإيمانية التي تشمل أركان الإيمان الستة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

وقد **عرف الشيخ محمد عبده** علم التوحيد بأنه علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفات وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفى عنه، وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب إليهم وما يمتنع أن يلحق بهم. (عبده رسالة التوحيد /5).

ومن خلال هذا التعريف ترى أن موضوع هذا العلم يختص بالإلهيات أي ما يتعلق بالإيمان بالله – تعالى– من حيث أسماؤه وصفاته وربوبيته وألوهيته – سبحانه–، وبالنبوات أي ما يتعلق بالإيمان بالرسل والأنبياء الذين اختصهم الله – تعالى– من بين البشر؛ ليكونوا حملة رسالته، ليبلغوها إلى البشر بني جنسهم. وكذلك بالسمعيات أي كل ما جاء عن الله – تعالى– في كتابة إلى رسوله محمد أو على لسانه ﷺ باعتباره خاتم الأنبياء والمرسلين وباعتبار رسالته وارثه الرسالات مهيمنة عليها ناسخة لكل ما قبلها.

ويسمى هذا العلم عند بعضهم علم الكلام، وإن كانت هذه التسمية متأخرة وغير مقبولة عند كثير من العلماء. وسبب التسمية عائد لأمرين:

الأول: أن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف في موضوعات هذا العلم هي أن كلام الله المتلو حادث أو قديم.

الثاني: أن مبناه الدليل العقلي. (عبده، رسالة التوحيد / 5).

3.2 حاجة الناس إلى العقيدة

إذا عرفنا أن العقيدة الإسلامية هي طريق معرفة الله – تعالى– وعرفنا أن المهمة الأساسية التي خلقنا الله – تعالى– من أجلها هي معرفة الله – تعالى– والتوجه إليه وحده بالعبادة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: 56).

إذا عرفنا ذلك أدركنا أهمية العقيدة الإسلامية.

أخي الدارس... أختي الدارسة:

إن الإنسان مهما بلغ في مستوى ذكائه لن يستطيع أن يقوم بتوجيه إرادته القادرة على الاختيار توجيهاً سليماً صحيحاً إلا إذا توفرت له مجموعة من المبادئ والمفاهيم الثابتة الواضحة التي تجيب على التساؤلات المتعلقة بالأمور الضرورية التي يحتاج الإنسان إلى معرفتها من عالم الغيب أو عالم الشهادة، فإذا توفرت هذه المجموعة من المبادئ الثابتة الواضحة التي اصطلحنا على تسميتها بالعقيدة وآمن بها الإنسان بعقله وقلبه كان من الممكن أن تكون نقطة الأساس التي يقوم عليها الإيمان والأصل الذي تنمو عليه الأعمال الصالحة، وصار من الممكن عندئذ للعقل أن يوجه الإرادة الإنسانية توجيهاً سليماً.

نلاحظ –إذاً– (وأظنك أخي الدارس متفقاً معي) أن الإنسان بدون هذه العقيدة ضائع تائه يفقد ذاته ووجوده، لأن العقيدة الإسلامية وحدها هي التي أعطت تصوراً كاملاً عن علاقة الإنسان مع خالقه ومع نفسه والكون والإنسان من حوله. وأجابت التساؤلات التي طرحها العقل الإنساني عبر تاريخه الطويل وشغلت الفكر الإنساني ومنها: من أنا؟ ومن أين جئت؟ ومن أوجدني؟ ولماذا جئت إلى هذا العالم؟ ومن أين جاء هذا الكون؟ وما نهايتي وما نهاية الأشياء والأحياء من حولي؟ وهل بعد هذه الحياة من حياة أخرى نصير إليها؟

جاءت العقيدة الإسلامية لتقدم الإجابات الشافية الوافية عن كل هذه التساؤلات التي حيرت العقل الإنساني، وهي بهذا تساهم في سعادة الإنسان، وراحة باله، وطمأنينة نفسه، وإحساسه بوجوده، وإنسانيته وتكريم الله – تعالى– له، كما أنها تنتقل به من عالم الحيرة، والشك، واللاأدرية إلى عالم الإيمان واليقين، والفرق بينهما لا شك كبير.

فإذا عرف الإنسان حقيقة ذاته، وكان قد أدرك قدر خالقه – سبحانه– وعلم أن لا سلطان حقيقياً في الكون غير سلطانه – سبحانه – وعرف أنه عبد لهذا الإله الواحد العظيم، أدى كل هذا إلى سعادته في ذاته وتنظيم العلاقة مع من حوله من الناس على أساس الأخوة والمساواة أمام عبوديتهم لله، لا على أساس الصراع والصدام.

ومن هنا كانت حاجة الإنسانية كلها إلى أن تدين له بالعبودية المطلقة في كل من شؤونه وأطوار حياته، والله ليس هو المحتاج إلى شيء من هذه الدنيوية له، ولكن سعادتنا هي التي تحوجنا وتضطرنا إلى هذه الدنيوية (البوطي، كبرى اليقينيات الكونية – ص67).

- **الخلاصة**

أن العقيدة هي أساس بناء المجتمع الإنساني فإن كانت العقيدة سليمة انضبط ذلك المجتمع، وارتقى إلى ذرى الكمال الإنساني، وإن كانت عقيدته منحرفة تفكك ذلك المجتمع وهبط إلى الحضيض، وقد دلت التجارب أن صلاح سلوك الفرد يتناسب مع صلاح عقيدته وسلامة أفكاره، وأن فساد سلوك الفرد يتناسب مع مدى تضاؤل عقيدته، أو انحرافها.

ولذلك اتجهت جهود الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من المصلحين إلى إصلاح عقائد المجتمعات البشرية قبل كل شيء، فكانت العقيدة هي المحور الذي دارت حوله رسالات الرسل جميعاً –عليهم الصلاة والسلام–.

قال –تعالى–: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ) (النحل: 36).

وكان كل نبي يبدأ قومه بقوله: (ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ) (الأعراف: 59).

وقد لبث نبينا محمد ﷺ يدعو الناس إلى العقيدة الصحيحة والتوجه إلى الله –تعالى– بالعبادة ويقول لهم: (أَجَعَلَ ٱلْأَٰلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ) (ص: 5).

ومكث القرآن المكي ثلاثة عشر عاماً يركز على تثبيت العقيدة في النفوس لتكون الأساس الذي تبنى عليها التكاليف والتشريعات فيما بعد، وهذا كله يدل على أهمية العقيدة ومكانتها.

4.2 مصادر العقيدة الإسلامية

لقد مرت العقيدة الإسلامية بمرحلتين بينهما اختلاف واضح في تحديد المصدر أو النبع الذي تستقى منه العقيدة الإسلامية وهما:

- المرحلة الأولى: مرحلة الصفاء في المصدر، والتي انتهت مع انتهاء القرن الهجري الأول. وكان المصدر في هذه المرحلة محصوراً في القرآن الكريم، والسنة النبوية.

فالجماعة المسلمة في قضية وجود الله ووحدانيته وصفاته كانت تتلقاها من القرآن الكريم، ويبينها رسول الله ﷺ، ولم تكن تملك أمام عظمة هذا المنهج إلا الاستسلام والحماس للدفاع عنه والجهاد في سبيل نشره لأنها المخلص للبشرية من الضياع الفكري (الكردي، علاقة صفات الله بذاته، ص 38). ولقد حرص النبي ﷺ على صفاء المصدر في هذه المرحلة لأنها مرحلة التأسيس ووضع القواعد، تلك المرحلة التي لا يجوز أن تشوبها شائبة أو يدخل إليها أي عنصر غريب. ولذلك رأينا رسول الله ﷺ يغضب عندما يرى عمر بن الخطاب يقرأ في صحيفة من التوراة فينهره ويقول «يا عمر والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما وسعه إلا أن يتبعني».

لقد تلقى الصحابة والتابعون قضايا العقيدة بإيمان جازم، واستسلام مطلق لكل ما يقرأونه في كتاب الله، أو يسمعونه على لسان رسول الله ﷺ، وأثرت هذه النصوص في نفوسهم فأثمرت خشية لله -تعالى- وطاعة مطلقة لله ولرسوله وأثمرت جهاداً وتضحية وتفانياً في خدمة هذا الدين ونشره، وأثمرت كذلك صفاء في نفوسهم وعقولهم فلم يشغلوها بالفلسفات النظرية الجدلية بل انصرفوا بكليتهم إلى العمل والإنتاج والمساهمة في بناء هذا الإسلام العظيم. وكانوا إذا أشكل عليهم أمر سألوا عنه رسول الله ﷺ لا ترفاً فكرياً، وإنما من أجل الوصول إلى الحقيقة وسلامة الاعتقاد، فيجيبهم رسول الله ﷺ مما علمه ربه وحياً أو إلهاماً فتطمئن قلوبهم ويزول الإشكال.

- المرحلة الثانية: مرحلة الاختلاط والتأثر

بدأت هذه المرحلة بعد انقضاء جيل الصحابة، واختلاط العرب المسلمين بغيرهم ممن دخلوا الإسلام بعد الفتوحات الإسلامية، وبدأ اختلاط الأفكار وظهرت المدارس الفكرية، «ولم تعد هناك المدرسة الفكرية الواحدة الملتزمة بوحدة المصدر ووحدة المنهج، وبدأ التحول في العقيدة الإسلامية من البساطة إلى التعقيد ومن تسليم الفطرة إلى التأمل العقلي والتأويل، ومن البحث الجاد فيما يجب أن يعمل ويفيد إلى الترف الفكري الممزوج بالجدل الذي لا طائل من ورائه» (الكردي، علاقة صفات الله بذاته ص52).

في هذه المرحلة انتقل العمل العقلي من التسليم لما جاء في الكتاب والسنة حول قضايا العقيدة إلى الشرح والقياس، وهنا لا بد أن تتضارب العقول في فهمها للنصوص الواردة فظهرت الاتجاهات والمدارس والفرق وحاولت كل فرقة أن تفهم النص حسب ما يتناسب مع قواعدها، وانقسم الناس إلى آخذ بطريق الصحابة والتابعين بعدم الخوض في

الذات والصفات خارج حدود النصوص الواردة فيها وهذا ما عرف فيما بعد بمذهب السلف. وإلى مدخل المفهوم العقلي في مسائل العقيدة ولم يكتف بالكتاب والسنة مصدرين وحيدين للعقيدة الإسلامية، وصار هذا الاتجاه يعرف بمذهب الخلف.

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكان مقبولاً ومعقولاً فإن العقيدة الإسلامية لم تحجر على العقل الإنساني ولم تحرمه من حقه في التفكير حتى في القضايا الاعتقادية. ولكن الأمر الخطير في هذه المرحلة هو الخروج عن المصدرين الأساسيين للعقيدة الإسلامية في الإطارين النصي والعقلي في فهمهما. فدخلت مصادر أخرى غريبة للعقيدة الإسلامية وصلت إلى المسلمين عبر أهل الكتاب من اليهود والنصارى، أو عبر الفلسفات البشرية وعلى رأسها الفلسفة اليونانية.

ومما لا شك فيه أن الفلسفة اليونانية في هذه المرحلة أصبحت مصدراً أساسياً عند فلاسفة المسلمين أمثال ابن سينا وابن رشد والفارابي والكندي وغيرهم، وعند كثير من علماء العقيدة الإسلامية من أمثال الجويني والرازي.

ففي بداية الأمر كان لا بد لهؤلاء العلماء أن يردوا على الشبهات التي بدأت تفد من أعداء الإسلام، أو من المسلمين المتأثرين بالفلسفة اليونانية فرأوا أن يردوا بطريقة الاستدلال نفسها التي يستخدمها الفلاسفة، ثم ترجمت الكتب اليونانية واطلع هؤلاء العلماء على علم المنطق اليوناني فاستخدموا قواعده في إثبات العقائد الإسلامية، فكان علم الكلام الذي أصبح على أيدي هؤلاء العلماء جزءاً أساسياً من علم التوحيد.

5.2 خصائص العقيدة الإسلامية

بعد أن عرفت - أخي الدارس- معنى العقيدة الإسلامية وأهميتها وموضوعها ومصادرها، بقي إتماماً لهذا المدخل أن تعرف الخصائص التي تميز هذه العقيدة عن غيرها من العقائد والتصورات الإنسانية المختلفة.

ولا بد من الإشارة بداية إلى أنني أعني بالعقيدة الإسلامية التي تتميز بهذه الخصائص تلك العقيدة السليمة التي اعتمدت الكتاب والسنة مصدرين وحيدين لتصوراتها، لا تلك التي اختلطت بالفلسفة الإغريقية أو بالركام المنقول عن كتب أهل الكتاب.

فإذا أدركت - أخي الدارس - هذه الإشارة وجدت أن الخصائص التي سنذكرها تنطبق تمام الانطباق على العقيدة الإسلامية، وهذه الخصائص هي:

1.5.2 الربانية

فالعقيدة الإسلامية عقيدة إلهية ليس للبشر يد في رسم معالمها أو وضع أصل من

أصولها، فهي بجميع أركانها وتصوراتها للخالق سبحانه. ومن ثم للكون والإنسان والحياة، عقيدة ربانية موحى بها من عند الله -عز وجل-: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (الشورى: 13).

ولقد ركز القرآن الكريم على توضيح هذه الخاصية، فقد نفى نفياً قاطعاً أن يكون لأحد من البشر أي تدخل في وضع أي جزئية من جزئيات هذه العقيدة.

ورداً على ما يتوهمه الكثيرون ممن يظنون أن صاحب الرسالة أو الدعوة هو الذي يضعها ويرسم معالمها فقد بين القرآن الكريم أن محمداً ﷺ الذي بلغنا هذه العقيدة عن طريقه لم يكن أكثر من مبلغ لما جاءه من ربه - سبحانه وتعالى-. اسمع قوله - تعالى- وهو يخاطب النبي ﷺ قائلاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ (الشورى: 53-52).

وعَدَّ القرآن الكريم أيَّ تغيير أو تبديل بحذفٍ، أو إضافة، أو تعديل إخلالاً في وظيفة التبليغ التي كلف بها النبي ﷺ، وهي مسؤولية تستوجب العقوبة الإلهية عند الإخلال بها، اسمع قوله - تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (المائدة: 67).

وقوله -تعالى-: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن

﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ (الحاقة: 42-47).

والعقيدة الإسلامية وحدها من بين العقائد والتصورات هي العقيدة التي حافظت على ربانيتها، فالتصورات الفلسفية التي أنشأها الفكر البشري بعيدة عن خاصية الربانية لأنها إنتاج خالص للعقل البشري، والمعتقدات الوثنية ما هي إلا نوع من ضلالات العقل حين راح بنفسه يبحث عن الخالق المعبود، فلم يستطع العقل أن يهديه إلى المعبود الحق إله هذا الكون، فتوجه بالعبادة إلى معبودات شتى هي في حقيقتها ظواهر كونية وهي مخلوقات في هذا الكون.

وكذلك الأمر بالنسبة للاعتقادات السماوية التي جاء بها الرسل السابقون ونزلت بها الكتب السماوية عليهم، فقد عبثت بها يد البشر من أتباع هذه الديانات فحرفت وزورت وحذفت وأضافت مما جعل هذه المعتقدات تفقد خاصية الربانية.

«ويستطيع الإنسان أن يقول وهو مطمئن: إن التصور الإسلامي هو التصور الاعتقادي الوحيد الباقي بأصله الرباني وحقيقته الربانية» (قطب، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته/71).

إن اتصاف العقيدة الإسلامية بالربانية يعني عدة أمور منها:

أولاً: يعطي العقيدة هيبتها وجلالها ويضفي عليها ظلالاً من القدسية ودوافع للالتزام بكل جزئية من جزئياتها.

ثانياً: يحمي العقيدة الإسلامية من أي مساس بشري قد يؤدي إلى التغيير، أو التبديل.

ثالثاً: يحمي العقيدة الإسلامية من الضلالات والأوهام والتصورات الفاسدة التي قد يذهب إليها العقل البشري عند فقدان الوحي والتوجيه الإلهي.

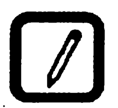
إن الدائرة التي تدور فيها القضايا الاعتقادية لا يستطيع العقل البشري وحده بعيداً عن الوحي إدراك حقيقتها، فهي دائرة تعتبر خارج الاستطاعة البشرية؛ لأنها تخرج عن حدود عالم الشهادة إلى عالم الغيب الذي لا يستطيع العقل البشري الوصول إليه وحده. وهذا يؤكد ضرورة اتصاف العقيدة بالربانية؛ لتتمكن هذه الخاصية أن تسعف البشرية في هذه الدائرة فتقدم للعقل الإنساني التصورات الصحيحة السليمة، وتنقذه من الوقوع في متاهات التصورات الفاسدة.

وقد يتوهم واهم أن هذه الخاصية للعقيدة الإسلامية يمكن أن تعد انتقاصاً للعقل

الإنساني وتحجيماً لدوره الرئيسي في مسيرة الإنسان.

والحق أن هذا وهم باطل لا أساس له من الصحة، وقد استطاع الأستاذ سيد قطب أن يرد هذه الشبهة تماماً، فقد بين أن الفكر البشري وإن لم ينشيء العقيدة الإسلامية إلا أنه ليس محظوراً عليه العمل فيها؛ ليستفيد منها في واقع الحياة. كما أن الفكر البشري في ميزان هذه العقيدة أداة قيمة وعظيمة يوكل إليها إدراك خصائص هذا التصور ومقوماته مستقاة من مصدرها الإلهي، وتحكيمها في كل ما حوله من القيم والأوضاع. (قطب، خصائص التصور الإسلامي، ص ص 81-82).

والمطلوب من العقل الإنساني أن يدرك حدوده وطبيعته وقدرته وأي محاولة من العقل لتجاوز حدوده فإنما يعني بالضرورة التخبط والضلال، وعليه أن يعترف أن هناك قضايا ليس بإمكانه معرفة كنهها مثل: كنه الذات الإلهية، الروح، الوحي، الغيب، فهذه وأمثالها فوق مدركات الكينونة البشرية على العقل أن يتلقاها عن طريق الوحي مستسلماً. وفيما عدا ذلك فإن العقل البشري مدعو للتدبر والتفكر والنظر والاعتبار والتكيف والتأثّر. والحقيقة التي لا مراء فيها أنه «ما من دين احتفل بالإدراك البشري وإيقاظه وتقويم منهجه في النظر، واستجاشته للعمل واطلاقه من قيود الوهم والخرافة، وتحريره من قيود الكهانة والأسرار المحظورة وصيانته في الوقت ذاته من التبدد في غير مجاله، ومن الخبط في التيه بلا دليل ما من دين فعل ذلك كما فعله الإسلام، وما من دين وجه النظر إلى سنن الله في الأنفس والآفاق وإلى طبيعة هذا الكون وطبيعة هذا الإنسان وإلى طاقاته المذخورة وخصائصه الإيجابية إلى سنن الله في الحياة البشرية معروضة في سجل التاريخ، ما من دين وسع على الإدراك في هذا كله ما وسع الإسلام» (قطب، خصائص التصور الاسلامي، 81-82).



تدريب (1)

أخي الدارس: قد يتبادر إلى ذهنك عند قراءتك لخاصية الربانية السؤال التالي: هل تتعارض صفة الربانية للعقيدة الإسلامية مع مكانة العقل في الإسلام؟ كيف تجيب على هذا التساؤل؟

2.5.2 انسجامها مع الفطرة الإنسانية

إن ما تمتاز به العقيدة الإسلامية عن غيرها من العقائد والتصورات اتفاقها مع الفطرة الإنسانية. وإذا كان التدين غريزة فطرية مغروسة في النفس الإنسانية. فإن كل

حقيقة من حقائق العقيدة الإسلامية تنسجم مع هذه الفطرة فتتقبلها النفس الإنسانية براحة وطمأنينة، ولا تتعارض في أي جانب من جوانبها.

ولقد أثبتت نصوص الكتاب والسنة أن الإسلام دين الفطرة؛ يقول –سبحانه-: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: 30).

فقد دلت هذه الآية القرآنية دلالة واضحة على أن الفطرة التي فطر الله الناس عليها هي الإسلام الذي رضيه الله – تعالى- للبشرية ديناً - كما يوضح النبي ﷺ هذه الحقيقة، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه؛ كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء (أي مجتمعة الأعضاء سليمة من كل نقص) هل تحسون فيها من جدعاء (والجدعاء مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء)، ثم يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم: «فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله» (صحيح مسلم/كتاب القدر، 46-22).

فالجدع أو النقص الذي يحصل للبهيمة إنما يكون بعد ولادتها، وهذا مثال يضربه النبي ﷺ؛ ليبين أن الإنسان حينما تلده أمه يكون على الفطرة الموافقة لدين الله القيم، وما يحصل معه بعد ذلك من انحراف عن عقيدة الفطرة إنما يكون ناشئاً عن البيئة المحيطة به والعوامل الخارجة الطارئة عليه. ولو ترك الإنسان وفطرته لاهتدى إلى خالقه – سبحانه- وحده. وإنما جاء انسجام العقيدة الإسلامية مع الفطرة؛ لأن الله –عز وجل- هو خالق النفس الإنسانية، وهو – سبحانه- الذي أنزل هذه العقيدة وبينها لنبيه ﷺ.

إن اتصاف العقيدة الإسلامية بالفطرة يعني أن الإنسان حينما يعيش في ظلال العقيدة الإسلامية إنما يعيش منسجماً مع فطرته هادئ النفس مرتاح الضمير لا يحس بأي قلق، أو تناقض، بل يحس بالسعادة والطمأنينة.

إن حقيقة التوحيد مثلاً قضية فطرية وقد جاءت العقيدة الإسلامية تعتمد التوحيد أصلاً ثابتاً من أصولها، فكان هذا الانسجام التام الذي تمكنت به العقيدة الإسلامية أن تجنب أتباعها من الوقوع في مستنقعات الشرك والتعدد.

واتجاه الإنسان إلى معبود يتقرب إليه بالعبادة ويلجأ إليه عند الشدة قضية فطرية جاءت العقيدة الإسلامية تلبية لهذا النداء الفطري في النفس الإنسانية فكانت عقيدة الإيمان بالله الواحد الأحد الذي لا يعبد بحق سواه القريب المجيب الذي يجيب دعاء المضطر إذا

دعاه، ويكشف السوء والضر عن عباده.

لقد أجمع الباحثون في تاريخ الأمم والأديان على فطرية التدين عند الإنسان حتى قال أحد كبار المؤرخين «لقد وُجِدَتْ في التاريخ مدن بلا قصور، ولا مصانع، ولا حصون، ولكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد» (القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام/16).

وجاءت العقيدة الإسلامية؛ لتبين أن المهمة الأساسية التي بعث بها الرسل الكرام -عليهم الصلاة والسلام- هي التجاوب مع هذه الفطرة بالدعوة إلى عبادة الإله الواحد الأحد.

3.5.2 الثبات

أخي الدارس: إذا أمعنت النظر في العقيدة الإسلامية وجدت نفسك أمام حقائق ثابتة لا تخضع لزيادة، أو نقص، أو تحريف، أو تبديل، أو تعديل، ذلك لأنها حقائق إلهية صادرة عن العليم الخبير الذي لا يبدل القول لديه.

هذه الحقائق ربانية – كما عرفنا عند حديثنا عن الصفة الأولى- فلا يملك أحد فرداً كان أو جماعة حاكماً أو محكوماً وحتى عالماً مختصاً أو مؤتمراً علمياً أو مجمعاً من المجامع العلمية، لا يملك هؤلاء جميعاً أن يضيفوا إلى العقيدة الإسلامية شيئاً، وكل إضافة أو تحوير مردودة على صاحبها كما قال – عليه الصلاة والسلام-: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» أي مردود عليه. (متفق عليه).

والقرآن الكريم يستنكر ما يضيفه المشركون وبعض المبتدعة ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ (الشورى: 21).

وعلى هذا فكل البدع والأساطير والخرافات التي دست في بعض كتب المسلمين، أو أشيعت بين عامتهم باطلة مردودة لا يقرها الإسلام، ولا تؤخذ حجة عليه.

إن كل ما يتعلق بالحقيقة الإلهية، وهي قاعدة التصور الإسلامي ثابت الحقيقة، وثابت المفهوم أيضاً، وغير قابل للتغيير، ولا للتطوير (قطب، خصائص التصور الإسلامي / ص123). فكل ما يتعلق بالإيمان بالله – تعالى- وتوحيده في ربوبيته وإلاهيّته وأسمائه وصفاته، وكل ما يتعلق بعبودية المخلوقات لله – تعالى- وحده وحقيقة أن الدين عند الله الإسلام وأن الناس من أصل واحد، وأن الإنسان مخلوق مكرم مستخلف في الأرض سخر الله له كل ما فيها ليتمكن من عمارتها.

هذه القضايا كلها ثابتة غير قابلة للتغير ولا التطور. واعلم – أخي الدارس – أن

خاصية الثبات لها أهميتها القصوى التي تتلخص في النقاط التالية:

أولاً: وجود الميزان الثابت الذي يرجع إليه الإنسان بكل ما يعرض له من مشاعر وأفكار وتصورات، وبكل ما يجد في حياته من ملابسات وظروف، فيزنها بهذا الميزان الثابت ليرى قربها أو بعدها من الحق والصواب، ومن ثم يظل دائماً في الدائرة المأمونة لا يشرد إلى التيه الذي لا دليل فيه من نجم ثابت ولا من معالم هادية في الطريق. (قطب، خصائص التصور الإسلامي، 128).

ثانياً: وجود مقوم منضبط بذاته وينضبط به الفكر الإنساني فلا يتأرجح مع الشهوات والمؤثرات، وإذا لم يكن هذا المقوم الضابط ثابتاً، فكيف يمكن أن ينضبط به شيء؟ وإذا دار مع الفكر البشري، أو مع الواقع البشري حيث دار فكيف تصبح عملية الضبط ممكنة، وهي لا ترجع إلى ضابط ثابت يمسك بهذا الفكر الدوار؟ إن من الضروري للنفس البشرية والحياة البشرية أن تتحرك داخل إطار ثابت، وأن تدور على محور لا يدور فهي بهذا تمضي مع السنة الكونية الظاهرة في الكون كله، والتي لا تتخلف في جرم من الأجرام، وإلا أصبحت البشرية أشبه بجرم فلكي خرج من مداره، وفارق محوره الذي يدور فيه في هذا المدار ويوشك هذا الجرم أن يصطدم فيدمر نفسه ويصيب الكون كله بالدمار كما هو واقع البشرية اليوم، وصدق الله العظيم إذ يقول: (وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ) (المؤمنون: 71).

والعاقل الواعي الذي لم يأخذه الدوار الذي يأخذ البشرية اليوم، حين ينظر إلى هذه البشرية المنكودة، يراها تتخبط في تصوراتها وحركاتها كلها تخبطاً منكراً شنيعاً، يراها تخلع ثيابها وتمزقها كالمهووس، وتتشنج في حركاتها، وتتخبط وتتلبط كالممسوس، يراها تغير أزياءها في الفكر والاعتقاد، كما تغير أزياءها في الملابس وفق أهواء بيوت الأزياء (قطب، خصائص التصور الإسلامي، 129).

لا شك أن هذا الواقع المضطرب الذي تعيشه الإنسانية اليوم وتعاني فيه من القلق والشرود والتخبط والظلم والتسلط ما كان إلا لهذا الاختيار الخاطئ الذي اختارته البشرية بعيداً عن التصورات الاعتقادية الثابتة.

ثالثاً: وضوح الرؤية، وتحديد المعالم والآفاق للواقع والمستقبل. ففي ظل العقيدة الثابتة تتضح معالم الطريق، ويسير الإنسان على هدى ونور يتجنب المزالق والمطبات (أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ

مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الملك: 22).

ولا يمكن أن يتحقق المشيُ على الصراط المستقيم والطريق الآمنة إلا في ظلال العقيدة الإسلامية الثابتة في تصوراتها الواضحة في معالمها.

إن الذي يعيش في ظلال العقيدة الإسلامية يعينه الله – تعالى– ويهديه إلى سواء السبيل ويجعل له نوراً يكشف له الطريق: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: 122).

وإن الذي اختار الانحراف والبعد عن منهج العقيدة الإسلامية الثابتة لا بد أن يعاني من عواقب هذا الاختيار الخاطئ ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ (طه: 123-124). ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: 31).

رابعاً: تثبيت الأصل الذي يقوم عليه شعور المسلم وتصوره فتقوم عليه الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامي في استقرار وثبات مع إطلاق الحرية للنموّ الطبيعي في الأفكار والمشاعر، وفي الأنظمة والأوضاع، فلا تتجمد في قالب حديدي ميت كالذي أرادته الكنيسة في العصور الوسطى، ولا تنفلت كذلك من كل ضابط انفلات النجم الهالك من مداره وفلكه، وانفلات القطيع الشارد كما صنعت أوروبا في تاريخها الحديث، ولعل هذه الخاصية هي التي ضمنت للمجتمع الإسلامي تماسكه وقوته مدى ألف عام رغم جميع الهزات وجميع الضربات وجميع الهجمات الوحشية عليه من أعدائه المحيطين به في كل مكان، ولم يبدأ تفككه وضعفه إلا بعد أن تخلى عن هذه الخاصية في تصوره وإلا منذ أن أفلح أعداؤه في تنحية التوجيه الإسلامي وإحلال التوجيهات الغربية مكانه في العالم الإسلامي. (قطب، خصائص التصور الإسلامي، 144-145). فثبات العقيدة الإسلامية هو الذي يحفظ للأمة هويتها وشخصيتها ووحدة كيانها واستقلالها، وما تفككت هذه الأمة إلا يوم تركت عقيدتها وأصالتها وقبلت بالتبعية والحياة بلا هوية.

4.5.2 الشمول

تعال معي – أخي الدارس – لننتقل إلى خاصية أخرى من خصائص العقيدة الإسلامية وهي الشمول.

الشمول في العقيدة الإسلامية جزء من شمولية الإسلام في عقيدته وشريعته ومنهاجه للحياة، ويأتي هذا الشمول نتيجة حتمية لعالمية هذه الرسالة التي جاء بها محمد ﷺ وكونها خاتمة الرسالات فلا بُدَّ –إذاً– أن تتسم بالشمولية.

والمقصود بالشمولية في العقيدة الإسلامية هو أنها تفسر كل القضايا الكبرى في هذا الوجود، فهي لم تقتصر على قضية الإنسان، أو الكون بل تناولت كذلك قضية الألوهية وقضية الوحي والنبوة ولم تقف عند عالم الشهادة بل تجاوزته إلى عالم الغيب والدار الآخرة.

- **مظاهر الشمول في العقيدة الإسلامية:**

إن مظاهر وصور هذا الشمول في العقيدة الإسلامية كثيرة جداً نذكر منها:

1- عالمية العقيدة الإسلامية، فلم تكن هذه العقيدة مخصوصة لشعب، أو عرق، أو زمان، أو مكان وإنما شملت الأجناس البشرية، فما خصت بنعمة الله أمة دون أمة أو سلالة – بدعوى أنها سلالة مختارة – وإنما كان أساس التفاضل فيها (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ) (الحجرات: 13).

2- رد هذا الوجود كله بنشأته ابتداء وحركته بعد نشأته والهيمنة عليه، وتدبيره، وتصريفه، وتنسيقه، إلى إرادة الله –عز وجل– فقد جاءت العقيدة الإسلامية تقول أن الله – سبحانه– هو الذي أنشأ هذا الكون ابتداءً، وهو الذي يحدث فيه بمشيئته كل تغيير جديد وكل انبثاق وليد. (قطب، خصائص التصور الإسلامي، 156).

يعد هذا التفسير الواضح لحقيقة الكون مظهراً من مظاهر الشمول في العقيدة الإسلامية؛ لأن هذا التفسير لم يقتصر على الجانب المادي المحسوس من الكون، بل بين الأصل والأساس الذي هو الإرادة المبدعة التي تقول للشيء كن فيكون.

ولقد أكد القرآن الكريم هذا الجانب من جوانب شمولية العقيدة الإسلامية المتمثل برد كل شيء في هذا الكون إلى الله – تعالى–، أكد ذلك بآيات كثيرة منها قوله –تعالى–: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ) (القمر: 49). وقوله: (قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ) (طه: 50).

وقوله: (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) (النحـل:40).

بالاضافة إلى آيات كثيرة بينت أن كل ظواهر الكون التي نشاهدها يومياً إنما هي جزء من التدبير الإلهي والإرادة الإلهية وحينما رد الإسلام هذا الوجود إلى خالقه فقد أراد له أن يتوجه إليه بالعبادة وحده لأنه هو المعبود بحق فما دام هو الخالق أصلاً فهو الـذي يستحق أن تتوجه المخلوقات إليه بالعبـادة. قـال – تعـالى-: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة: 21).

واتضح شمول العقيدة الإسلامية في هذا الجانب، لأنها قامـت بتعريـف النـاس بربهم تعريفاً دقيقاً كاملاً شاملاً بذاته – سبحانه- وصفاته، وبينت طبيعـة العلاقـة بـين الإنسان وبين خالقه – سبحانه-، والتي تقوم على أساس العبودية لله – تعـالى-. قـال – تعالى-: (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات: 56).

3- النظرة إلي الكون:

فالكون في نظر العقيدة الإسلامية مخلوق لله – سبحانه وتعالى- بكل ما فيه مـن أشياء وأحياء محسوسة وغير محسوسة. وقد بينت العقيدة الإسلامية للإنسان خـصائص هذا الكون وقوانينه ونواميسه، والغاية التي خلق من أجلها، والمصير الذي ينتهي إليه.

4- النظرة إلي الإنسان:

عرفت العقيدة الإسلامية الإنسان بحقيقة نفسه تعريفاً شاملاً، وبينت أن الإنـسان ليس فقط هذه الكتلة المادية من لحم ودم، وإنما هو عقل وروح وجسد. كما بينت أن هـذا الإنسان مخلوق من تراب مكـرم بالنفخـة الإلهيـة. قـال – تعـالى-: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ) (الحجر: 29).

فهو أكرم مخلوق عند الله. قال – تعالى-: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (الإسراء: 70) وهو خليفة الله في أرضه.

5- شمولية التشريعات والأنظمة:

هذه التشريعات المنبثقة عن العقيدة الإسلامية تشمل كل نواحي الحياة الخاصة والعامة من أنظمة فكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية وعلاقات دولية وأحكام قضائية، جنائية ومدنية. وهذا الشمول في التشريعات منبثق عن العقيدة الشاملة التي جاءت لكل الحياة وما فيها لأنها العقيدة الربانية التي تصلح للبشر ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ (الملك: 14).

6- إزالة الفوارق الطبقية في المجتمع الإسلامي:

وتثبيت مبدأ المساواة بين العباد فهم أمام التشريعات سواء وكذلك أمام العبادات والتكاليف فقد نفت العقيدة الإسلامية حتى وجود طبقة رجال الدين.

والعقيدة الإسلامية لا ترضى بالنزعات القومية والنعرات العرقية لأن المبدأ المعتمد فيها ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ (الحجرات: 13).

بغض النظر عن اللون والعرق واللغة.

7- لا تعتمد في ثبوتها على الوجدانية أو الشعور وحده، بل على الفكر والشعور معاً، ولقد ضلت فلسفات كثيرة اعتمدت واحداً منها بدون الآخر، وهذه شمولية واضحة (القرضاوي الخصائص العامة للإسلام، 114).

8- عدم قبولها التجزئة:

فالعقيدة الإسلامية تؤخذ كلها بكل محتوياتها بدون إنكار أو شك في أي جزء منها فمن آمن بـ 99% من مضمون هذه العقيدة وكفر بـ 1% لم يعد بذلك مسلماً فالإسلام يقتضي أن يسلم الإنسان قِيادَهُ كله لله ويؤمن بكل ما جاء من عند ربه. (القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، 115).

تدريب (2)

أخي الدارس: من خلال قراءتك لخاصية الشمول التي تمتاز بها العقيدة الإسلامية، وضح هذه الخاصية من خلال نظرتها إلى الإنسان وإلى الكون.

5.5.2 عقيدة مبرهنة مقنعة للعقل السليم

مما تتميز به العقيدة الإسلامية أنها تخاطب العقل دائماً، وتدعوه إلى أن يتعرف على خالقه – سبحانه- من خلال النظر إلى ما حوله من الظواهر الكونية المحكمة في

نظامها، المتناسقة في مسيرتها، وفيما بينها، فيعلم أن لها خالقاً عظيماً هو المدبر المهيمن الذي تخضع في نظامها له.

وما حظي العقل في ديانة عرفها البشر مثل ما حظي في العقيدة الإسلامية. فكم من الآيات القرآنية التي وجهت دعوتها للعقل الإنساني تدعوه إلى النظر في الكون، وتعليل ظواهره، والاستدلال بها على عظمة خالقه – سبحانه-. (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ) (طه: 128).

وربطت الآيات القرآنية بين الذكر والفكر بين العبادة والعقل، اسمع قوله – تعالى-: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) (آل عمران: 190).

ومقابل هذه الدعوة الصريحة لاستخدام العقل وإطلاقه، ليهتدي إلى خالقه – سبحانه- فإن العقيدة الإسلامية قد رفضت التقليد الأعمى، وقد بين القرآن الكريم أن الإيمان بالله – تعالى- وهو بلا شك صلب العقيدة الإسلامية يقوم على أساس العلم لا على أساس التقليد. وذلك في قوله – تعالى-: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ) (محمد: 19).

بمعنى أن إيمانك لا بد أن يقوم على أساس العلم والمعرفة المنبثقة عن دليل قاطع مبرهن لا على أساس التلقين والتقليد، ونعى القرآن الكريم على المقلدين الذين يقولون: (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ) (الزخرف: 23).

ونرى القرآن الكريم في قضية الألوهية يقيم الأدلة من الكون، ومن النفس، ومن التاريخ على وجود الله وعلى مصداقيته وكماله (القرضاوي، الإيمان والحياة، 41).

وإذا كانت القضية الأساسية الأولى في العقيدة الإسلامية وهي الإيمان بالله – تعالى- يمكن إتباعها بطريقة العقل، وقد استطاع العقل الإنساني فعلاً أن يهتدي إلى خالقه من خلال ما يرى ويشاهد من آيات الله المبثوثة في هذا الكون، فإن كل قضايا العقيدة الأخرى تابعة لهذا الأصل العظيم، فإذا آمنت بالله – تعالى-، فلا بد أن تؤمن بكل ما أخبر به في كتابه العزيز، وما أعلم به رسله الكرام الذين اختارهم من بين خلقه لتبليغ رسالته إلى البشر.

ومما يدل على عقلانية العقيدة الإسلامية خلوها من الخرافات والأوهام والقضايا المصادمة للعقل والمناقضة لمسلماته خلافاً لكثير من التصورات الاعتقادية الأخرى من

مثل ما ورد في المسيحية حول مسألة التثليث واستحالة الخبز إلى جسد المسيح، وما إلى ذلك من الخرافات.

ولقد أثبت الدكتور موريس بوكاي في كتابه (الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد من بين الكتب السماوية الذي خلا من أي نص يتعارض مع العلم.

6.5.2 الوسطية والاعتدال

العقيدة الإسلامية عقيدة وسطية لا ترى فيها إفراطاً ولا تفريطاً، تتسم بالتوازن بعيدة عن الغلو والإسراف، وكما أقام الله -عز وجل- الكون كله على أساس التوازن فقد جاءت عقيدتنا الإسلامية منسجمة مع هذا النظام الكوني، يقول – سبحانه-: (وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ) (الرحمن: 7-9).

- **مظاهر الوسطية في العقيدة الإسلامية:**

1- الوسطية في مفهوم الألوهية

العقيدة الإسلامية تؤمن بإله واحد خلق الإنسان وكلفه بعبادته وهو – سبحانه- يسمع، ويبصر، ويراقب، ويدبر وهو – سبحانه- قريب مجيب يجيب دعاء المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء والضر عن عباده وهذا يعني أن العقيدة الإسلامية لم تجعل الإيمان بالله مجرد فكرة أو نظرية فلسفية مجردة، وإنما بينت أننا نعبد إلهاً هو الخالق والرازق والمدبر والقادر على كل شيء. وهذا الفهم يجعل العلاقة واضحة جلية بين العبد وربه، ومن خلال أسماء الله وصفاته جعلت العقيدة الإسلامية هذه العلاقة دائمة متصلة تقوم على ركني الخوف والرجاء في آن واحد قال -تعالى-: (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) (الإسراء: 57).

وتتجلى وسطية العقيدة الإسلامية في موضوع الألوهية بما يلي:-

أ- وسطية بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله خانقين صوت الفطرة في صدورهم متحدين منطق العقل في رؤوسهم، وبين الذين يعددون الآلهة حتى عبدوا الأغنام والبقر،

وألّهوا الأوثان والأحجار (القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام ص/135) فلم يصطدم الإسلام مع الفطرة والعقل كما اصطدمت العقائد المادية الملحدة كالشيوعية وغيرها، ولم يكن مع المعتقدات الخرافية الكثيرة التي عرفها البشر في تاريخهم الطويل والتي دعت إلى عبادة آلهة شتى بلغت المئات. وإنما كان التوازن واضحاً في الدعوة إلى عبادة إله واحد لا شريك له هو مالك الملك وهو على كل شيء قدير.

ب- وسطية بين من وصفوا الله - تعالى- وكأنه بشر يتصف بصفاتهم وتعتريه كل عوارض النقص التي تعتريهم من ألم أو مرض أو ندم، كما ذهب اليهود في توراتهم المحرفة ومن تأثر بهم من المشبّهة والمجسمة، وبين من سلبوه -سبحانه- كل الصفات وجعلوه مجرد فكرة نظرية كما ذهب الفلاسفة اليونان الذين عدوه أنه العقل المطلق، ومن تأثر بهم من فلاسفة المسلمين.

2- الوسطية في الإيمان والغيب

العقيدة الإسلامية وسطية في الإيمان بالغيبيات بين الخرافيين الذين يصدقون بكل شيء ويؤمنون بغير برهان ويسرفون في الحديث عن الأرواح واستحضارها والتعامل معها، وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس.

فالإسلام يدعو إلى الاعتقاد والإيمان، ولكن بما قام عليه الدليل القطعي والبرهان اليقيني، وما عدا ذلك يرفضه ويعده من الأوهام وشعاره دائماً (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة: 111) (القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام/135).

3- الوسطية في النظرة إلى الإنسان

العقيدة الإسلامية أعطت الإنسان نظرة التكريم والاهتمام لكنها كانت وسطية في ذلك فلم تؤله الإنسان ولم تؤله عقله؛ لتحمله فوق طاقته وتضعه في غير موضعه، وهي في الوقت نفسه لم تظلم هذا الإنسان فتسلبه إرادته وتجعله أسير حتميات اقتصادية مادية كما هو الشأن في الحضارة المادية الغربية.

ولقد تجلت وسطية العقيدة الإسلامية في هذا الجانب في مفهومها لقضية القضاء والقدر هذه القضية كانت ركناً أساسياً من أركان العقيدة الإسلامية وقد قامت على التوازن بين مجال المشيئة الإلهية المطلقة، ومجال المشيئة الإنسانية المحدودة ففي الوقت الذي أثبتت فيه العقيدة الإسلامية المشيئة الإلهية المطلقة، وأنه -سبحانه- الفعال لما يريد وبيده ملكوت كل شيء فإنها لم تتجاهل دور الإنسان في خلافة الأرض، وهو دور ضخم يعطي الإنسان مركزاً ممتازاً في نظام الكون كله، ويمنحه مجالاً هائلاً للعمل والفاعلية والتأثير، مع الاستسلام بأن وجود الإنسان ابتداء، وإرادته وعمله وحركته ونشاطه داخل في نطاق

المشيئة المطلقة المحيطة بهذا الوجود وما فيه ومن فيه (قطب، خصائص التصور الإسلامي، 204-205).

وقد غطت الآيات القرآنية هذين المجالين؛ لتعطي كلاً منهما حقه فتثبت طلاقة وفاعلية المشيئة الإلهية وتثبت إرادة الإنسان المحدودة وفاعليتها في هذه الحياة. فنقرأ قوله -تعالى-: (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ) (الحديد: 22).

وقوله تعالى: (قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ) (التوبة: 51).

كما نقرأ في المقابل قوله -تعالى-: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ) (الرعد: 11).

وقوله: (بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ) (القيامة: 14-15).

وقوله -سبحانه-: (وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ) (الكهف: 29).

4- الوسطية في مصدر المعرفة

العقيدة الإسلامية لم تؤله العقل كما أشرنا، ولم تجعله المصدر الوحيد للمعرفة عن الوجود، وفي المقابل لم تحصر طريق المعرفة بالوحي والإلهام، وإنما أعطت للعقل دوره باعتباره مصدراً للمعرفة، وأعطت للوحي دوره باعتباره مصدراً للمعرفة كذلك.

وبناء على ذلك لم تقف العقيدة الإسلامية موقف الكنيسة في العصور الوسطى مع العلماء الذين قدموا معلومات تخالف نظرة الكنيسة استناداً إلى كشوف علمية واستنتاجات عملية بل المعروف أن العقيدة الإسلامية شجعت العلم والعلماء وفتحت المجال للعقول أن تستكشف آيات الله في هذا الكون الواسع.

فالإسلام يؤمن بالعقل ويدعو للنظر والتفكير وينكر عليه الجمود والتقليد ويخاطبه بالأوامر والنواهي، ويعتمد عليه في إثبات حقيقتين في الوجود وهما وجود الله – تعالى-

وصدق دعوى النبوة، ولكنه يؤمن بالوحي موجهاً للعقل، ومعيناً له فيما تضل فيه العقول وتختلف وما تغلب عليه الأهواء، وهادياً له إلى ما ليس من اختصاصه ولا هو بمقدوره من الغيبيات والسمعيات وطرائق التعبد لله - تعالى-. (القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام /137).

5- الوسطية في أمر النبوة

لم ترفع العقيدة الإسلامية الأنبياء إلى مقام الألوهية فيتجه الناس إليهم بالعبادة أو الاستعانة مع الله كما اعتقد النصارى وغيرهم، كما لم تنزل بهم إلى مستوى السفلة من الناس فتنسب إليهم ارتكاب الموبقات وفعل المنكرات كما افترى اليهود في توراتهم المحرفة.

وإنما الأنبياء في عقيدة الإسلام بشر اصطفاهم الله - تعالى- من خيرة خلقه: (ٱللَّهُ يَصۡطَفِى مِنَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ) (الحج: 75).

فاختصهم بوحيه وكلفهم بتبليغ رسالته إلى الناس، وجعلهم قدوة وأسوة حسنة لأتباعهم: (لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا) (الأحزاب: 21).

هم مثل البشر في خلقهم وأحوالهم البشرية، وهم خيرة البشر في أخلاقهم والتزامهم بأمر ربهم.

تدريب (3)

تحدث عن دور العقل الإنساني باعتباره مصدراً من مصادر المعرفة، مبيناً وسطية العقيدة الإسلامية في ذلك.

7.5.2 اليسر والوضوح

اليسر والسهولة والوضوح من أبرز ميزات العقيدة الإسلامية، فهي تتلاءم مع كل المستويات العقلية والثقافية والاجتماعية، كان الأعرابي يأتي من البادية فيدخل على رسول الله ﷺ يسأله عن هذا الدين فيعطيه خلاصة هذه العقيدة.

العقيدة الإسلامية ليست ألغازاً ولا أحجيات معقدة ولا فروضاً عقلية جافة

مقصورة على الفلاسفة. ليس في الإسلام طبقة رجال دين عليهم وحدهم يقتصر فهم العقيدة وما على الناس إلا أن يرددوا عباراتهم ومصطلحاتهم الغامضة. وتتجلى هذه الخاصية من خلال ما يلي:

1- عقيدة التوحيد:

العقيدة الإسلامية تقدم هذا الأصل وهو الإيمان بكل صراحة (ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ) (الأعراف: 59). فلا مكان في الإسلام لتأله بشر أو حجر أو شيء في الأرض أو في السماء، بل لله ما في السموات وما في الأرض.

وبالإضافة إلى تجاوب هذه العقيدة مع الفطرة الإنسانية التي ترغب أن تتجه إلى إله واحد تعتقد أنّه خالقها ورازقها ومدبر أمرها، فإنها كذلك تستند إلى العقل وتعتمد على البرهان، ولذلك فإن القرآن الكريم يخاطب المشركين قائلاً: (أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ) (النمل: 64).

ويقيم الأدلة العقلية على الوحدانية بمثل قوله: (وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) (المؤمنون: 91).

إن قضية الثنويّة في الألوهية عند المجوس - إله الخير والنور، وإله الشر والظلمة - وقضية التثليث عند النصارى وفي الوثنيات القديمة لا تتمتع واحدة منها بالوضوح لدى المؤمنين بها، ولهذا تعتمد على الإيمان بغير برهان «اعتقد وأنت أعمى» أو «أغمض عينيك ثم اتبعني» (القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، ص ص 187-188).

2- عقيدة الجزاء الأخروي:

هذه الدنيا دار ممر وعمل ويحصل فيها من التجاوزات والظلم والاعتداءات بين البشر ما يحصل ولا بد من دار أخرى تصفى فيها الحسابات وتعود الحقوق إلى أصحابها، ويأخذ الظالم فيها جزاءه كما يأخذ المحسن جزاءه. (فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ) (الزلزلة: 7-8).

وتوضح العقيدة الإسلامية أن هناك داراً للنعيم جزاء للمحسنين هي الجنة تشوق

العاملين إليها، وأن هناك داراً للظالمين الفجار هي النار تحذر الناس من عمل ما يــؤدي إليها كما فيه من عذاب حسي ومعنوي كبير.

3- الإيمان بالرسالات السماوية:

فقد بينت العقيدة الإسلامية أن الله – تعالى-، أرسل رسله من البشر إلى البــشر، وأنزل معهم الكتب تبين معالم الطريق إلى الله –عز وجل-، وتضع قواعد العدل وضوابط السلوك؛ لتبين لهم الغاية، ويتضح لهم الــسبيل ولا يكــون لأحــد عــذر فـــي الــضلال والانحراف. (رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) (النساء: 165).

وقد بعث الله في كل أمة رسولاً هادياً وختمهم بمحمد ﷺ الذي تميزت رســالته بالعموم والخلود والصلاحية لكل زمان ومكان، وأنزل عليه القرآن الكريم.

هذا الإيمان برسل الله كافة ركن من أركان العقيدة الإسلامية لا يجهلــه مــسلم، وقضية النبوة والرسالة في ذهن المسلم واضحة متميزة تمامــاً عــن قــضية الربوبيــة والألوهية فالرسل بشر مثلنا ميزهم الله بالوحي ليسوا آلهة ولا أبناء آلهة، يقول –ســبحانه وتعــــالى-: (مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) (المائدة: 75).

هذا الوضوح المشرق في العقيدة الإسلامية بالنظر إلى الأنبياء بعامة وإلى محمد ﷺ بخاصة يقابله غموض مطبق في العقائد الأخرى، وبخاصة النصرانية التي اختلــف اتباعها في طبيعة المسيح – عليه السلام- أهو إله أم ابن إله ؟ أهو بشر خالص ؟ أم بشر حل فيه الإله ؟ أهو جزء من أقانيم ثلاثة يتكون منها الإله وهي الأب والابــن والــروح القدس، مما لا يستطيع الإنسان قبوله. (القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، ص ص 189-190).

4- البساطة والوضوح في عرض هذه القضايا الاعتقادية:

فتارة تعرض من خلال المشاهدة الكونية كما في قوله ســبحانه: (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ

كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ۝٢٠ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ
(الغاشية: 17-21).

وتارة تعرض من خلال النفس الإنسانية وما فيها من عجائب (سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ) (فصلت: 53).

8.5.2 الإيجابية

أخي الدارس: الخاصية الأخيرة بين يديك هي خاصية الإيجابية، ونعني بالإيجابية أن العقيدة الإسلامية بمجرد أن تلامس القلب وتستقر حقيقتها في وجدان المسلم لم تظهر آثارها أعمالاً في حياة الإنسان، وفي الواقع من حوله فالعقيدة الإسلامية ليست نظرية فلسفية مجردة، أو تأملات عقلية تختص بها عقول الفلاسفة، وإنّما هي حقائق وتصورات يتلقاها العقل فهماً وإدراكاً، وتتلقاها الفطرة تجاوباً وانسجاماً، ثم تترجم مباشرة إلى واقع يومي حي من السلوك والأعمال. وهذا كله يعني أن صاحب العقيدة الإسلامية لا يعيش السلبية في حياته، ولا يمارس الأنانية الذاتية في نفسه، وإنما يدرك من خلال العقيدة التي يتربى عليها أنه يعيش لمن حوله، وأنه ما خلق هكذا عبثاً أو عبئاً على من حوله من أشياء وأحياء، وإنما وجد يحمل رسالة تتطلب منه العمل والتضحية والجهاد والاندفاع في سبيل الخير، يقول –سبحانه-: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩) (الحج: 77).

وتتجلى خاصية الإيجابية في العقيدة الإسلامية من خلال الجوانب التالية:

1- التعامل مع الخالق – سبحانه وتعالى-:

يتعامل الإنسان في التصور الإسلامي مع إله موجود خالق مريد مدبر قادر فعال لما يريد كامل الإيجابية والفاعلية إليه يرجع الأمر كله وإلى إرادته يرجع خلق هذا الكون ابتداء وكل حركة فيه بعد ذلك، وكل تغير أو تطور فيه لا يتم إلا بإرادته وعلمه وتقديره وتدبيره – سبحانه-، ويحفل القرآن الكريم بتقرير هذه الحقيقة الأساسية الكبيرة في التصور الإسلامي (قطب، خصائص التصور الإسلامي، 250).

ومن خلال الآيات القرآنية التي بينت هذا الجانب وذكرت هذه الصفات الإيجابية التي يتصف بها الله –سبحانه وتعالى- تتجلى هذه الإيجابية في العلاقة القائمة بين الخالق، وهذا الإنسان باعتباره مخلوقاً من مخلوقاته –سبحانه- اختاره من بينها؛ ليكون محلاً

للتكليف ومهمته الأساسية عبادة الله -تعالى- وحده.

إن هذه الإيجابية في صلة الله - سبحانه- بخلائقه كلها هي مفرق الطريق بين العقيدة الجدية المؤثرة، والعقيدة الصورية السلبية.

وفرق كبير بين الإنسان الذي يتصور أن إلهه لا يحفل به كما هي النظرة الرأسمالية الغربية اليوم لله -عز وجل- حيث يقولون «الله خلقنا وتركنا» بمعنى أنهم يؤمنون بوجود الله خالق هذا الكون، لكنهم يعتقدون أن هذا الخالق لا صلة له بشؤون حياتهم، ومن هنا يرفعون شعار العلمانية المادية التي تدعو إلى فصل الدين عن الحياة.

فرق كبير بين هذا التصور، وبين تصور المسلم الذي تربى في ظلال العقيدة الإسلامية الإيجابية التي علمته أن الله الذي خلقه يسمعه، ويبصره، ويعلم كل حركة يقوم بها، وسيحاسبه عليها، وهو الرازق والمدبر ومالك الملك وإليه يرجع الأمر كله، وتطالبه هذه العقيدة بالتوجه إليه بالعبادة.

ومن يطلع على تصورات الملل والنحل المختلفة التي عرفها البشر في تاريخهم الطويل، ويرى تلك التصورات الفاسدة عن آلهة هذه الملل وما أطلقوا عليها من صفات في معظمها سلبية يستحي أن يتصف بها الإنسان العادي. إن من يطلع على ذلك يرى الفرق الهائل بين هذه التصورات وما تبينه العقيدة الإسلامية من تصورات واضحة عن الله -سبحانه وتعالى-.

2- التعامل مع الكون:

إن إيجابية العقيدة الإسلامية تزيل أي حاجز بين الإنسان، وبين الكون، وتقيم علاقة بينهما قائمة على الود والمحبة والتعاون والتناسق، فقد بينت أن الله -عز وجل- قد اختار هذا الإنسان؛ ليكون خليفته في الأرض. قال -تعالى-: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: 30).

عليه واجب القيام بعمارتها، كما أشعرت هذه العقيدة المسلم بأن الله -سبحانه لتسهيل هذه المهمة التي كلفه بها- قد سخر له كل ما في هذا الكون؛ ليتم التفاعل بين الإنسان والكون الذي يحيط به، حيث يقول -سبحانه-: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ) (ابراهيم: 32-33).

هذه الإيجابية تشعر المسلم بأن كل ما في الكون إنما وجد ليستفيد منه وينتفع به، وما على الإنسان إلا أن يندفع بكل طاقته يكتشف نواميس الكون وقوانينه، ويرتاد آفاقه.

وبذلك تكون هذه العقيدة هي المحرك لهذا الإنسان تحوله من إنسان معطل القوى والطاقات إلى إنسان مؤثر يتفاعل مع الأحداث يوجهها ويتأثر بها.

3- الاندفاع إلى العمل:

بناء على هذا التكليف الوارد في النقطة السابقة نجد أن العقيدة الإسلامية تطالب المسلم أن يندفع نحو البناء، والعمل، والإنتاج. قال – تعالى- (وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (التوبة: 105).

وتشعره هذه العقيدة بأنه محور التغيّر والتحول في هذا الكون. (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ) (الرعد: 11).

وكذلك فإن هذه العقيدة تشعر صاحبها بأن كل اكتشاف علمي يصل إليه الإنسان بجهوده، وخصائصه التي أودعها الله فيه، هو نعمة توجب شكر الله – سبحانه-.

ولا مجال أمام ذلك للتواكل والعجز ووضع المسؤولية على الآخرين، بل يتحمل المسلم المسؤولية كاملة مقابل الجزاء الأوفى يوم القيامة.

4- الفتوحات الإسلامية:

لعل أبرز ما تتجلى به إيجابية العقيدة الإسلامية وفاعليتها هو الأثر الذي حرك الإنسان العربي، الذي كان متقوقعاً في الجزيرة العربية يعيش حياة السلب والنهب والاتكالية وإذا بهذه العقيدة قد تفاعلت مع نفسه فانطلقت به يرى الحياة أوسع مما كان يظنها ويرى أن اهتماماته أكبر من أن يقتصر فكره على الكلأ والماء، ويرى أنه صاحب رسالة خير لا بد من إيصالها؛ ليعم خيرها الإنسانية كلها فيحررها من العبودية لغير الله وينقذها من أوهام الجاهلية وخرافاتها وتصوراتها الفاسدة.

ولقد رأينا هذا الإنسان العربي، وبعد هذا التحول الذي أحدثته العقيدة الإسلامية في نفسه يتبنى رفع راية التوحيد يفديها بنفسه، وينطلق بها كالصقر لا تتسع له الجزيرة العربية كلها بعد أن كان لا يغادر مضارب قبيلته، فينطلق إلى بلاد الشام، والعراق،

ومصر، وإلى الهند والصين، وإفريقيا يحمل الراية وينشر الإسلام، ويدعو الناس إلى الخير يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وكل ما تحقق للأمة الإسلامية من فتوحات وانتصارات وتمكين للدولة الإسلامية التي كانت تضم تحت جناحيها مختلف اللغات والأجناس، إلى أن وصلت إلى مستوى من التوسع والامتداد جعل الخليفة هارون الرشيد يخاطب السحابة قائلاً لها «امطري أيتها السحابة حيثما شئت فإن خراجك عائد إلينا».

كل هذا وما تبعه من الجوانب الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في الحضارة الإسلامية ما كان إلا بفضل تلك العقيدة الإسلامية وما تتصف به من إيجابية فاعلة مؤثرة.

وبهذا - أخي الدارس- تكون قد عرفت خصائص هذه العقيدة العظيمة آملاً أن أكون قد وفيتها حقها، وبينت لك أبرز خصائصها.



أسئلة للتقويم الذاتي (1)

أخي الدارس: بعد أن قرأت الموضوع الأول في هذه الوحدة، ودرست مفهوم العقيدة وموضوعها ومصادرها وخصائصها وأهميتها. حاول أن تختبر نفسك وتتعرف مدى استيعابك لما درست، وذلك بإجابة الأسئلة التالية:

1- من خصائص العقيدة الإسلامية الإيجابية، فما معنى الإيجابية ؟ وكيف تتجلى هذه الخاصية من خلال الفتوحات الإسلامية ؟
2- ما المعنى اللغوي للعقيدة ؟ وما علاقته بالمعنى الاصطلاحي ؟
3- مصادر العقيدة الإسلامية مرت بمرحلتين، اذكرهما واذكر مصادر العقيدة الإسلامية في كل مرحلة.
4- ما هي أهمية خاصية الثبات للعقيدة الإسلامية ؟
5- العقيدة الإسلامية منسجمة مع الفطرة، وضح ذلك.

3. الإيمان والإسلام

1.3 مفهوم الإيمان

أخي الدارس: حتى أوضح لك مفهوم هذه الكلمة اللطيفة المحببة إلى النفس في لفظها وجرسها الموسيقي لا بد أن أطلعك على معناها اللغوي والاصطلاحي، ثم نرى العلاقة بين المعنيين.

- **المعنى اللغوي**

إذا تتبعنا ما ورد في معاجم اللغة حول هذه الكلمة نجد أنها تحمل عدة معانٍ هي: التصديق، والثقة، والأمن ضد الخوف، والأمانة.

ففي مختار الصحاح: الأمان والأمانة بمعنى، وقد أمن أماناً وأمنة فهو آمن، فآمنه غيره من الأمن والأمان. والإيمان: التصديق، والله – تعالى- المؤمن لأنه آمن عباده من أن يظلمهم... والأمن: ضد الخوف... وأمنه على كذا وأئتمنه بمعنى واحد وقرئت ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ (يوسف: 11) بين الإدغام والإظهار... وقوله -تعالى-: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ (التين: 3) قال الأخفش يريد البلد الآمن وهو من الأمن (الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، ص 28). وقال الكفوي «الإيمان الثقة وإظهار الخضوع وقبول الشريعة، وهو إفعال من الأمن ضد الخوف» (الكفوي، أبو البقاء / الكليات، 361/1). وهذا تعريف لغوي جمع المعاني كلها وقال في لسان العرب: الأمان والأمانة بمعنى، وقد أمنت فأنا آمن وآمنت غيري من الأمن والأمان، والأمن: ضد الخوف، والأمانة: ضد الخيانة، والإيمان، ضد الكفر، والإيمان بمعنى التصديق... ورجل أمنة: يأمن كل أحد، وقيل: يأمنه الناس ولا يخافون غائلته، وأمنةٌ أيضاً: موثوق به مأمون... والإيمان: مصدر آمن يؤمن إيماناً فهو مؤمن، واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق... وقال الله -تعالى- حكاية عن أخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ (يوسف: 17) لم يختلف أهل التفسير أن معناه بمصدق لنا.

والأصل في الإيمان: الدخول في صدق الأمانة التي ائتمنه الله عليها، وقالوا للخليل ما الإيمان؟ قال: الطمأنينة (ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم، 13: 21-27).

- **المعنى الاصطلاحي**

أما الإيمان اصطلاحاً فقد اختُلف في تحديده تبعاً للاختلاف في مفهوم الإيمان، أهو مجرد المعرفة بالقلب كما ذهب الجهم بن صفوان السمرقندي وأبو الحسن الصالحي أحد رؤساء القدرية (السائح، عبد الحميد، عقيدة المسلم، ص 105) أم هو التصديق بالقلب كما قال أبو منصور الماتريدي حيث عَدَّ الإقرار باللسان ركناً زائداً ليس بأصلي (الحنفي، ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية)، كما نقل هذا القول عن أبي الحسن الأشعري (البغدادي، أبو منصور، أصول الدين، 248). أم هو مجرد إقرار اللسان بالنطق بالشهادتين كما ذهب الكرامية (أتباع أبي عبد الله محمد بن كرام وهم فرقة من المرجئة) أم أنّه الإقرار باللسان والتصديق بالقلب كما ذهب أبو حنيفة حيث قال: الإيمان هو المعرفة والإقرار (البغدادي، أبو منصور، أصول الدين، ص 249)، أم أن الإيمان هو تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان؟ وهذا مذهب جمهور أهل السنة، والمعتزلة، والخوارج مع اختلافهم في حكم مرتكب الكبيرة.

ولا أريد - أخي الدارس - أن أخوض في خلافات هذه الفرق، أو أرد على الآراء الباطلة منها، أو حتى في وجهات نظر أصحابها وإنما سيقتصر حديثي على الرأيين الأخيرين وهما:

الرأي الأول: الإيمان اسم يقع على الإقرار باللسان والتصديق بالقلب، وإلى هذا ذهب أبو حنيفة، وهو الرأي الذي اختاره الطحاوي في متنه المسمَّى العقيدة الطحاوية حيث قال؛ «والإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان» (شرح العقيدة الطحاوية /373). ومع أن أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب، ولا خلاف بين أهل السنة أن الله أراد من العباد القول والعمل، لكنهم رأوا أن هذا المطلوب من العباد لا يشمله اسم الإيمان عند أفراده بالذكر وإن أطلق الإيمان على القول والعمل فإنه من باب المجاز.

وقد وافق الجرجاني في تعريفه للإيمان هذا الرأي حيث قال: «الإيمان في اللغة التصديق بالقلب، وفي الشرع هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان، فمن شهد وعمل ولم يعتقد فهو منافق ومن شهد ولم يعمل واعتقد فهو فاسق، ومن أخل بالشهادة فهو كافر» (الجرجاني، التعريفات، ص 18).

والرأي الثاني: أن الإيمان تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان وهو ما اختاره جمهور علماء الأمة حيث اشترطوا لصحة الإيمان توفر العناصر الثلاثة: التصديق القلبي، والإقرار اللساني، والتطبيق العملي، وقد اختاروا هذا الرأي لسببين هما:

السبب الأول: كثرة الأدلة من الكتاب والسنة، التي قرنت الإيمان بالعمل، فقلما ذكر الإيمان في القرآن الكريم غير مرتبط بالعمل الصالح، بل كان النص غالباً «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» وكذلك الشأن في الأحاديث النبوية الشريفة فعندما كان النبي

ﷺ يُسأل عن الإيمان يتضمن جوابه بعض أعمال الجوارح، ومن ذلك ما ورد في الصحيحين في قصة وفد عبد القيس عن ابن عباس – رضي الله عنهما– قال: «إن وفد عبد القيس لما أتوا النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله: إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة... فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع، أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس... إلخ» (متفق عليه، وهذه الرواية للبخاري / كتاب الإيمان / حديث 53). ومن ذلك الأحاديث الواردة في أن الجهاد من الإيمان وأن الحياء شعبة من الإيمان والصلاة من الإيمان، والطهور شطر الإيمان، ومن ذلك قوله ﷺ «... والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم» (أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان رقم 2629)، وقوله ﷺ «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان وإنّ الله -عز وجل- يقول: (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ...) (التوبة: 18). (أخرجه الترمذي في باب التفسير رقم 3092).

ومن الواضح أن هذه النصوص أدخلت الأعمال ضمن الإيمان وعدت هذه الأعمال من مستلزماته.

والسبب الثاني: هو أن العقيدة الإسلامية ليست عقيدة نظرية. وقد أراد علماؤنا أن يؤكدوا على الجانب العملي في الإسلام حتى لا يدعوا مجالاً لمتقاعس، فجعلوا العمل الصالح جزءاً من الإيمان.

والحق أن ما اختاره الطحاوي، ونقله عن أبي حنيفة – رحمه الله– لا يعني التقليل من أهمية العمل فلا اختلاف بين الفريقين في قيمة العمل وأهميته في الإسلام، بل الخلاف في تكييفه إن كان جزءاً من الإيمان أو مقتضى من مقتضياته ولازماً من لوازمه (ياسين، محمد نعيم، الإيمان، ص 116). فالعمل يبقى ضرورياً وإن لم يدخل في مضمون الإيمان.

وعلى ذلك يكون الخلاف كما أشار شارح الطحاوية خلافاً صورياً، لا يترتب عليه أي أثر عملي ذلك لأنهم اتفقوا على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان ما لم يستحلها. كما اتفقوا على أن المعرفة بالقلب لا تكفي في تحقيق اسم الإيمان، فلا بد مع المعرفة والتصديق من الإقرار باللسان نطقاً للقادر عليه. فلقد كان إبليس عارفاً بربه، ولكنه إمام الكافرين. وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبي ﷺ ولم يؤمنوا به. وكلا الفريقين مجمع على أن العبد لو صدق بقلبه وأقر بلسانه وامتنع عن العمل بجوارحه فإنه يكون

عاصياً لله ولرسوله ومستحقاً للوعيد الذي ذكره الله في كتابه وأخبر به رسوله ﷺ ولم يؤيد أحد من الفريقين ما ذهب إليه الخوارج في مرتكب الكبيرة، ولا ما ذهب إليه المعتزلة من إخراج مرتكب الكبيرة من دائرة الإيمان حيث جعلوا له دائرة ومنزلة خاصة، بل أجمع أهل السنة على أن مرتكب الكبيرة لم يخرج عن دائرة الإيمان، وإن كان فاسقاً عاصياً يستحق الوعيد والعذاب الذي جاء في نصوص الكتاب والسنة.

وبهذا ندرك أن الإيمان قول وعمل، وهذا ما تردد على ألسنة سلف الأمة وعلمائها، فقد نقل ابن أبي شيبة في كتابه الإيمان عن أبي بكر بن عياش بن عاصم قوله: «الإيمان عندنا قول وعمل، ويزيد وينقص» (العبسي، ابن أبي شيبة، الإيمان، تحقيق الألباني، ص 46).

وهذا ما نقله كذلك الإمام أحمد بن حنبل عن مالك بن أنس وابن جريج وفضيل بن عياض قالوا: الإيمان قول وعمل (ابن حنبل، أحمد، كتاب السنة مطبوع مع الرد على الزنادقة والجهمية، تعليق: إسماعيل الأنصاري، ص 67، أبو عبيد، القاسم، الإيمان، ص 72). ولا شك أن القول يشمل قول القلب وهو الاعتقاد، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام كما أوضح ذلك شارح العقيدة الطحاوية ص 384).

وهذا الفهم للإيمان هو الفهم الإيجابي العملي الذي يتجاوب مع حياة المسلم؛ لأن الإيمان أسمى من أن يكون مجرد فلسفة نظرية لا وجود لها في الواقع العملي، ومن لم يثمر إيمان قلبه أعمالاً صالحة تظهر في سلوكه وأعماله اليومية فلا فائدة في إيمانه.

لكننا لا نريد في الوقت نفسه أن تنفذ إلينا أفكار الخوارج؛ لتنقلنا إلى صراع التكفير وسرعة الحكم على الناس بمجرد ارتكاب ذنب أو تقصير في واجب شرعي. فعقيدة أهل السنة واضحة في هذا الباب وملخصها «لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله» (العقيدة الطحاوية ص 355).

فما دام العبد ينطق بالشهادتين مقراً معترفاً بما جاء في كتاب الله، وفي سنة رسول الله ﷺ فهو من أهل قبلتنا أما ذنوبه فهي تحت مشيئة الله إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له.

2.3 مفهوم الإسلام

أخي الدارس: بعد أن عرفت مفهوم الإيمان لغة واصطلاحاً وعرفت أقوال العلماء في تحديده ننتقل بك إلى الحديث عن الإسلام؛ لنعرف معناه اللغوي والاصطلاحي والعلاقة بين المعنيين، ومن ثم نوضح العلاقة بين الإيمان والإسلام ونرى هل هما مترادفان ؟ وأيهما يسبق الآخر ؟

- **معنى الإسلام لغة**

الإسلام مصدر أسلم يسلم فهو مسلم بمعنى الاستسلام والانقياد قال ابن منظور: الإسلام والاستسلام الانقياد... ويقال: فلان مسلم وفيه قولان: أحدهما هو المستسلم لأمر الله، والثاني: هو المخلص لله العبادة، ومنه قولهم سلم الشيء لفلان أي خلصه، وسلم له الشيء أي خلص له. وفي الحديث: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده). قال الأزهري: فمعناه أنه دخل في باب السلامة، حتى يسلم المؤمنون من بوائقه (ابن منظور، لسان العرب، مادة سلم).

- **معنى الإسلام اصطلاحاً**

عندما ذكر ابن منظور المعنى اللغوي للإسلام تعرض للمعنى الشرعي الاصطلاحي فقال «والإسلام في الشريعة إظهار الخضوع، وإظهار الشريعة، والتزام ما أتى به النبي ﷺ، وبذلك يحقن الدم ويستدفع المكروه».

وقد اشتهرت هذه الكلمة في الاصطلاح؛ لتصبح اسماً لهذا الدين الذي اختاره الله -تعالى- ديناً للإنسانية كلها (إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ) (آل عمران: 19).

(وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ) (آل عمران: 85).

واستخدمت هذه الكلمة في القرآن الكريم على المعنيين اللغوي والاصطلاحي، فعلى المعنى اللغوي قوله -تعالى-: (وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) (آل عمران: 83). بمعنى الاستسلام والانقياد، وعلى الاصطلاحي قوله -تعالى- على لسان يوسف -عليه السلام-: (تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ) (يوسف: 101).

وقوله - تعالى-: (مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ) (الحج: 78).

ومع أن الإسلام أطلق على الدين الذي جاء به الرسل جميعاً -عليهم السلام-، فإنه قد اختص في النهاية؛ ليكون الاسم لهذه الرسالة التي جاء بها خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ، ولذلك فقد أخذ هذا المعنى العام الذي يبدأ من لحظة النطق بالشهادتين إلى

أن يصل إلى الإيمان تصديقاً وعملاً، قال ابن تيمية «فالإسلام يتناول من أظهر الإسلام وليس معه شيء من الإيمان وهو المنافق، ويتناول من أظهر الإسلام مع التصديق المجمل في الباطن ولكنه لم يفعل الواجب كله وهم الفساق، ويتناول من أتى بالإسلام الواجب وما يلزمه من الإيمان» (ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 7: 427).

3.3 العلاقة بين الإسلام والإيمان

سبق لك - أخي الدارس - أن عرفت معنى كل من الإيمان والإسلام في اللغة والاصطلاح وعرفت بذلك متى يكون العبد مؤمناً ومتى يكون مسلماً، إلا أن علماءنا اختلفوا في تحديد العلاقة بين الإسلام والإيمان وتعددت آراؤهم في أن الإسلام هو الإيمان أو غيره وهل هو منفصل عنه يوجد بدونه أو مرتبط به يلازمه. فهذه ثلاثة آراء في هذا الموضوع هي:

الرأي الأول: القائلون بالترادف: أي أن الإسلام والإيمان لفظان مترادفان لا فرق بينهما إلا في المعنى اللغوي، وقد ذهب إلى هذا القول الإمام البخاري ومحمد بن نصر المروزي والحافظ ابن منده (فقد أفرد الحافظ ابن منده للمسألة باباً بعنوان «ذكر الأخبار الدالة والبيان الواضح من الكتاب... أن الإيمان والإسلام اسمان لمعنى واحد» وساق مجموعة من الآيات القرآنية توحي بالترادف منها قوله -تعالى-:

(وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟) (آل عمران: 20).

وقوله -سبحانه-: (وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟) (البقرة: 135-137).

ثم عقب على الآيتين قائلاً «فحكم الله -عز وجل- بأن من أسلم فقد اهتدى، ومن آمن فقد اهتدى فسوّى بينهما» (ابن منده، يحيى بن إسحق، الإيمان، 322/2)، واستشهد كذلك بقوله

–تعالى– في قصة لوط عليه السلام: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (الذاريات: 35-36).

وقوله –سبحانه–: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ (النمل: 81).

قال ابن منده «فدل ذلك على أن من آمن فهو مسلم، وأن من استحق أحد الإسمين استحق الآخر إذا عمل بالطاعات التي آمن بها فإذا ترك منها شيئاً مقراً بوجوبها كان غير مستكمل، فإن جحد منها شيئاً كان خارجاً من جملة الإيمان والإسلام، وهذا قول من جعل الإسلام على ضربين: إسلام يقين وطاعة، وإسلام استسلام من القتل والسبي، قال الله –عز وجل–: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: 14)، (ابن منده، الإيمان، 1: 322).

وبذلك فقد رد ابن منده على من استشهد بهذه الآية على التفريق بين الإيمان والإسلام على اعتبار أن الإسلام الوارد في الآية ليس إسلام يقين وطاعة وهو المرادف للإيمان، وإنما هو إسلام استسلام من القتل والسبي، وهو مخالف للإيمان الشرعي الحقيقي.

وهذا ما ارتآه البخاري أيضاً في الآية حيث قال – في صحيحه–: باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل لقوله –تعالى–: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا..﴾ (الحجرات: 14). فإذا كان على الحقيقة فهو على قوله –جل ذكره–: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (آل عمران: 19). (فتح الباري، 79/1 كتاب الإيمان). قال ابن حجر – في شرحه لكلام البخاري–: «كأنه يقول إذا كان الإسلام كذلك لم ينتفع به في الآخرة، ومحصل ما ذكره واستدل به أن الإسلام يطلق ويراد به الحقيقية الشرعية، وهو الذي يرادف الإيمان وينفع عند الله وعليه قوله – تعالى–: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (آل عمران: 19). وقوله ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (الذاريات: 36). ويطلق ويراد به الحقيقة اللغوية وهو مجرد الانقياد والاستسلام» (العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري، 1: 79).

الرأي الثاني: القائلون بالفرق بين الإيمان والإسلام لفظاً ومعنى لغة وشرعاً. وقال بهذا

القول جماعة من الصحابة والتابعين منهم عبد الله بن عباس والحسن ومحمد بن سيرين، كما نقل عن الزهري وأحمد بن حنبل وحماد بن زيد (ابن منده، الإيمان، 1: 311).

ومن الفروق التي ذكرت على ألسنة هؤلاء العلماء، قول الزهري -رحمه الله-: الإسلام هو الكلمة (أي كلمة الشهادة) والإيمان العمل. وكان حماد بن زيد يفرق بين الإسلام والإيمان فيجعل الإيمان خاصاً والإسلام عاماً، يعني أن معرفة الإيمان عند الله بدون خلقه خاص له، والإسلام عام. (ابن منده، الإيمان، 1: 311).

ويدل هذا الكلام على أن الإسلام مغاير للإيمان فقد خص الإسلام بالأعمال الظاهرة كالشهادتين والصلاة والزكاة والحج، وبذلك فهو عام ظاهر للناس جميعا، وخص الإيمان بالأمور الاعتقادية، وهو من أعمال القلوب كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والمطلع على ما في القلوب هو الله وحده.

ومن أبرز الأدلة التي استدل بها هذا الفريق قوله -تعالى-: (قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ) (الحجرات: 14).

وقد احتج الإمام أحمد بهذه الآية عندما سئل: أتفرق بين الإيمان والإسلام ؟ قال: نعم (ابن منده، الإيمان، 1 / 311).

وقوله -تعالى-: (إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ) (الأحزاب: 35).

ولو كانا مترادفين لكان ذكر المؤمنين بعد المسلمين تكراراً معيباً والقرآن الكريم منزه عن مثل هذا التكرار.

وهناك العديد من الأحاديث النبوية الشريفة الدالة على التفريق ومنها:

1- حديث جبريل، حيث سأل النبي ﷺ عن الإيمان وعن الإسلام وعن الإحسان، فأجاب عليه - الصلاة والسلام- من كل منها بجواب خاص، وذكر للإيمان الأمور الاعتقادية القلبية وذكر للإسلام الأعمال الظاهرة (حديث جبريل أخرجه البخاري عن أبي هريرة، حديث 5 من كتاب الإيمان 1 / 114) وأخرجه مسلم عن عمر بن الخطاب.

2- ما أخرجه البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص أنه قال لرسول الله ﷺ ما لك عن فلان والله إني لأراه مؤمناً، قال: أو مسلماً ؟ قالها ثلاثاً

فقد أثبت عليه الصلاة والسلام له الإسلام وتوقف في اسم الإيمان.

3- قوله ﷺ «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم» (رواه أحمد والترمذي والنسائي عن أبي هريرة، حديث صحيح).

4- قوله ﷺ حين سئل عن الإسلام فقال: إطعام الطعام، وطيب الكلام، قيل فما الإيمان ؟ قال؛ السماحة والصبر، قيل فمن أفضل المسلمين إسلاماً؟ قال: من سلم المسلمون من لسانه ويده، قيل فمن أفضل المؤمنين إيماناً؟ قال: أحسنهم خلقاً» (مسند الإمام أحمد/ 5 /219).

5- ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أنس أن النبي ﷺ قال: الإسلام علانية، والإيمان في القلب» (مسند الإمام أحمد، 3 / 135).

الرأي الثالث: القائلون بالتلازم والتداخل، بمعنى أن لكل من الإيمان والإسلام معناه اللغوي والاصطلاحي الخاص به فمسمى أحدهما غير مسمى الآخر، ولكنهما متلازمان ومتداخلان لا يكتمل أحدهما بدون الآخر، ولا وجود في الشريعة لأحدهما بدون الآخر.

وإلى هذا القول ذهب أبو حنيفة وابن حجر والغزالي وأبو جعفر الباقر، قال أبو حنيفة في الفقه الأكبر بعد أن فرق بين الإيمان والإسلام لغة «ولكن لا يكون إيمان بلا إسلام، ولا إسلام بلا إيمان فهما كالظهر مع البطن» (أبو حنيفة، الفقة الأكبر، ص 90).

وكلام أبي حنيفة يعني أنه لا وجود في اعتبار الشريعة لأحدهما بدون الآخر فهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر كالظهر والبطن بالنسبة للإنسان فكما أنه لا يوجد للإنسان ظهر بلا بطن ولا بطن بلا ظهر فكذلك لا يوجد إسلام بلا إيمان ولا إيمان بلا إسلام.

ويقول ابن حجر -في الفتح- «والذي يظهر من مجموع الأدلة أن لكل منهما حقيقة شرعية ولغوية، لكن كل منهما مستلزم للآخر بمعنى التكميل له، فكما أن العامل لا يكون مسلماً كاملاً إلا إذا اعتقد، فكذلك المعتقد لا يكون مؤمناً كاملاً إلا إذا عمل» (ابن حجر، فتح الباري، 1 / 110). وقد اختار ابن حجر هذا الرأي خلافاً للبخاري الذي ذهب إلى الترادف.

أما أبو حامد الغزالي فقد ذكر الأقوال الثلاثة ورجح القول بالتداخل مستدلاً بما روي (أن رسول الله ﷺ سئل أي الأعمال أفضل؟ فقال ﷺ الإسلام فقال: أي الإسلام أفضل؟ فقال ﷺ: الإيمان) (أخرجه أحمد والطبراني وإسناده صحيح).

ثم ذكر الغزالي أن التداخل أوفق الاستعمالات في اللغة لأن الإسلام هو تسليم إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح وأفضلها الذي بالقلب وهو التصديق الذي يسمى إيماناً

(الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين 1 / 103). وممن ذهب إلى هذا القول أبو جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين بن علي حيث وصف الإسلام فدوّر دائرة واسعة وقال هذا هو الإسلام ثم دور دائرة صغيرة وسط الكبيرة وقال هذا الإيمان، فإذا زنا وسرق خرج من الإيمان إلى الإسلام ولا يخرجه من الإسلام إلا الكفر بالله -عز وجل-. (ابن منده، الإيمان، 1 / 311).

فالإسلام والإيمان -إذاً- دائرتان متداخلتان والإسلام أعم من الإيمان وقد مثل الشيخ الميداني لهما بالشجرة وجذورها، فالإسلام كل والإيمان جزء منه ولكن هذا الجزء هو الأصل في هذا الكل، ولكل منهما أثر في الآخر» (الميداني عبد الرحمن حبنكة، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص 89).

أخي الدارس: بعد استعراض هذه الآراء وأدلتها في هذه المسألة يمكن لنا أن نخرج بالاستنتاجات التالية:

أولاً: أن القول بالترادف بين الإسلام والإيمان مردود لأنه يتعارض مع اللغة والمدلول الشرعي لكل منهما، فلكل منهما معناه في اللغة، فالإسلام يعني الاستسلام والانقياد، والإيمان يعني التصديق، قال ابن تيمية - في رده على هذا الرأي- «وأما قول من سوَّى بين الإسلام والإيمان وقال إن الله سمى الإيمان بما سمى به الإسلام وسمى الإسلام بما سمى به الإيمان فليس كذلك، فإن لرسول ﷺ قد فسر الإيمان بأنه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبين أن العمل بما أمر به يدخل في الإيمان ولم يسم الله الإيمان بملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت إسلاماً، بل إنما سمى الإسلام والاستسلام بقلبه وقصده وإخلاص الدين والعمل بما أمر به كالصلاة والزكاة خالصاً لوجهه، فهذا هو الذي سماه الله إسلاماً وجعله ديناً (ابن تيمية، مجموع الفتاوي، كتاب الإيمان، 7 / 410).

ثانياً: الإسلام والإيمان لفظان مختلفان في المعنى لكنهما متلازمان متداخلان لا ينفك أحدهما عن الآخر، والإسلام فيهما أعم والإيمان أخص، إذ الإيمان أشرف أجزاء الإسلام، وعلى هذا نلاحظ أن الإسلام يجمع الإيمان والعمل بأوامر الله وطاعته فهو شرع الله ساقه لذوي العقول السلمية إلى ما فيه صلاحهم في معاشهم ومعادهم.

ثالثاً: إذا اجتمع لفظا الإيمان والإسلام في عبارة واحدة فكل واحدة من الكلمتين تأخذ معناها الخاص بها، وإذا انفردت كلمة الإيمان وحدها في جملة فإن المراد منها ما يشتمل الدين بأصوله وفروعه، وكذلك إذا انفردت كلمة إسلام في جملة فإن المراد منها ما يشتمل الدين بجملته أصولاً وفروعاً، وهذا معنى ما يقال عن كلمتي الإيمان والإسلام «إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا» (الخطيب، نمر، في العقيدة الإسلامية، ص 89).

وقد فصل شيخ الإسلام ابن تيمية هذه النتيجة بقوله: «اسم الإيمان تارة يذكر مفرداً، وتارة يذكر مقروناً باسم الإسلام، وتارة يذكر مقروناً بالعمل الصالح أو بالذين أوتوا العلم، فإذا ذكر اسم الإيمان مجرداً دخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة كقول ﷺ في حديث شعب الإيمان: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» (متفق عليه، البخاري، كتاب الإيمان، 1 / 51). وكذلك سائر الأحاديث التي تجعل أعمال البر من الإيمان. وإذا اقترن الإيمان مع الإسلام أو العمل الصالح جعل الإسلام للأعمال الظاهرة كالشهادتين والصلاة والصيام والزكاة والحج، وجعل الإيمان لما في القلب من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر (ابن تيمية/مجموع الفتاوي، كتاب الإيمان 7 / 13-14).

رابعاً: لكل من الإسلام والإيمان في القرآن الكريم معنى خاص، ومعنى عام: فكلمة الإيمان تأتي خاصة بتصديق القلب واعتقاده مثل قوله -تعالى-: (وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ) (غافر: 28).

فالمراد بالإيمان هنا المعنى الخاص وهو التصديق العقلي الباطني.

وتأتي كذلك عامة تشمل الدين كله بجملته أصوله وفروعه مثل قوله -تعالى-: (أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ) (السجدة: 18).

وكذلك الأمر بالنسبة للإسلام فتستخدم بمعنى الإسلام الظاهري مثل قوله -تعالى-: (قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا) (الحجرات: 14).

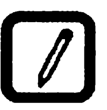
وتأتي بمعنى الإسلام التام الذي يشمل الظاهر والباطن مثل قوله -تعالى-: (فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) (البقرة: 132).

وقوله -تعالى-: (إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ) (آل عمران: 19).

خامساً: بالنظر إلى المعنى اللغوي فلا شك أن لكل واحد منهما مسمى غير مسمى الآخر، فالإسلام هو الاستسلام والانقياد لقوله - تعالى-: (وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) (آل عمران:83).

أي انقاد، والإيمان هو التصديق لقوله – تعالى-: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ (يوسف: 17).

أي بمصدق. وأما بالنظر إلى المعنى الشرعي، فأقرب الأقوال القول بالتلازم بينهما مع الاختلاف في مسمى كل منهما، وإذا انفرد أحدهما شمل الآخر بالتلازم كما في حديث وفد عبد القيس حيث فسر الإيمان بما فسر به الإسلام في حديث جبريل. ولا يمكن أن يكون هذا الإسلام المقبول إلا ملازماً للإيمان.



تدريب (4)

أخي الدارس: قيل في الإسلام والإيمان أنهما لفظان إن اجتمعا افترقا، وإن افترقا اجتمعا. ما معنى هذه العبارة ؟.

4. نواقض الإيمان

من خلال معرفتنا بحقيقة الإيمان، وحقيقة الإسلام عرفنا متى يكون العبد مسلماً ومتى يصبح مؤمناً، وعرفنا أن النطق بالشهادتين إذا بني على تصديق قلبي وأثمر الأعمال الصالحة صار صاحبه مسلماً مؤمناً.

ولكي تعرف -أخي الدارس- كيف تحافظ على هذا الإيمان وتصونه من أي زوال أو فساد لا بد أن تسأل عن مبطلات الإيمان ونواقضه فبمعرفة الجواب على سؤالك يمكنك أن تحتفظ على إيمانك.

وإذا كنت قد عرفت شروط تحقيق الإيمان والإسلام فإليك نواقض الإيمان ومبطلاته:

وفي البداية لا بد من توضيح القاعدة التي على أساسها يكون الخروج والدخول، وبناء عليها تعرف ما يكفر من الاعتقادات والأقوال والأفعال.

قال الإمام الطحاوي: «ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين، ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين، وله بكل ما قاله وأخبر به مصدقين... » ص 355 «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله» ص 355.

«ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه» ص 372.

هذه القاعدة خلاصة لعقيدة أهل السنة، وردّ على المعتزلة والخوارج وغيرهم ممن كفروا مرتكب الكبيرة كما هي رد على المرجئة الذين قالوا: لا يضر مع الإيمان كفر كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

فجاءت عقيدتنا تتسم بالوسطية والاعتدال، فلا هي ذهبت إلى التشديد الذي عرف به الخوارج الذين حكموا بتفكير كل من ارتكب كبيرة من الكبائر، والمعتزلة الذين جعلوا مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين، فأخرجوه من زمرة المؤمنين ولم يسلكوه في عداد الكافرين. ولا هي ذهبت إلى التميع والانفلات الذي ذهب إليه المرجئة الذين اطلقوا الحبل على الغارب، وزهدوا في الأعمال ولم يجعلوها ذات علاقة بالإيمان، فلا فرق بين صالحها وطالحها.

لقد جاءت عقيدة أهل السنة تعطي المفهوم العلمي للإيمان فلم تقدمه لأتباعها مجرد معرفة ذهنية لحقائق الإيمان وأصوله فكم من قوم عرفوا حقائق الإيمان ولم يؤمنوا.

(وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) (النمل: 14).

كما ولم تتعامل هذه العقيدة مع الإيمان على أنه مجرد إعلان المرء بلسانه أنه

مؤمن أو نطقه بالشهادتين، فما أكثر المنافقين الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم.

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) (البقرة: 8-9).

والإيمان في هذه العقيدة ليس مجرد قيام الإنسان بشعائر وأعمال ظاهرة، فما أكثر الدجالين الذين يتظاهرون بأعمال الخير، وشعائر التعبد، وقلوبهم خراب من الخير والصلاح والإخلاص لله، فقد وصف الله المنافقين بأنهم: (وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا) (النساء: 142).

إن الإيمان الذي قدمته هذه العقيدة هو جميع هذه الأمور إنه الإدراك العقلي النابع عن يقين جازم، يقود إلى الإذعان والانقياد لطاعة الله -عز وجل- والخضوع لحكمه مع الرضى والتسليم. (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا) (النساء: 65).

- **شبهة:**

هناك إشكال يتردد على ألسنة الكثيرين وضل به من تبنّوا مبدأ التفكير أكثر من الخوارج في هذا العصر، وقد جاء هذا الإشكال من تسمية بعض الذنوب كفراً في نصوص الكتاب أو السنة مثل قوله – تعالى-: (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ) (المائدة: 44).

وقوله ﷺ «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» (متفق عليه) أو قوله -عليه الصلاة والسلام- «من حلف بغير الله فقد أشرك» (مسند الإمام أحمد).

وقد ذكر شارح الطحاوية جواباً شافياً لهذه المسألة فقد بين أن الشارع الحكيم قد رتب عقوبات على مرتكبي هذه الكبائر دنيوية وأخروية، وهذا يعني أن صاحبها غير مرتد إذ لو كفر بها لكان مرتداً وجب قتله، وأجاب بأن الكفر على مراتب كما الإيمان على مراتب، فقالوا: كفر دون كفر فالكفر العملي لا يصل إلى درجة الكفر الاعتقادي، أو أن هذا الكفر مجازي، إذ الكفر الحقيقي هو كفر الاعتقاد الذي يخرج صاحبه عن الملة. (شرح العقيدة الطحاوية/359-360).

- **حالات نقض الإيمان**

المكفرات المخرجة من الملة متنوعة جميعها يرجع إلى القاعدة السابقة ويمكن حصرها في أربع حالات وهي:

أولاً: (انتفاء التوحيد)

إذا سمحت لي - أخي الدارس- أن انتقل بك إلى موضوع توحيد الله - تعالى- فستجد أن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية يعني أن تؤمن بأن الله -تعالى- وحده هو رب كل شيء ومليكه المدبر المتصرف كما يريد. فهو -سبحانه- الخالق الرازق المريد المدبر المحيي المميت مالك الملك، فكل قول أو اعتقاد فيه إنكار لهذه الخصائص الربانية أو بعضها فيه كفر وردة، فيدخل في هذا الإلحاد وإنكار الخالق - سبحانه- أو مشاركة شيء له في الخلق أو إسناد الخلق وتدبير الكون إلى غيره - سبحانه-، والصدفة والطبيعة وغيرها أو نحو ذلك مما فيه مساس بخصائص الربوبية وكذلك يعد كفراً أن يدعي شخص لنفسه أو لغيره دون الله عز وجل شيئاً من هذه الخصائص.

وتوحيد الألوهية يعني أن تؤمن بأن الله - تعالى- هو المعبود ولا معبود بحق سواه، فمن قال قولاً، أو فعل فعلاً، أو اعتقد اعتقاداً يتضمن إنكار هذه الصفة لله -عز وجل- أو انتقاص شيء منها أو إثبات شيء منها لغيره - سبحانه- فقد كفر وارتد عن دين الله وبطل إيمانه، ويدخل في ذلك من توجه إلى غير الله - تعالى- يتقرب إليه بأي نوع من أنواع الشعائر والنسك، ويدخل في ذلك الذبح لغير الله أو الحلف لغيره أو الحكم بغير ما انزل.

وتوحيد الأسماء والصفات يعني أن يؤمن بأن الله - تعالى- له الأسماء الحسنى والصفات العليا، نثبت له - سبحانه- ما أثبت لنفسه أو أثبت له رسوله ﷺ من أسماء وصفات وينفي عنه ما نفى عن نفسه أو نفاه عن رسوله ﷺ من أسماء وصفات.

فمن نفى أو انتقص شيئاً مما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسول الله ﷺ فقد كفر وكذلك من أثبت لله شيئاً نفاه - سبحانه- عن نفسه أو نفاه عنه رسوله، فكفر الصفات نوعان: كفر نفي وكفر إثبات (ياسين، الإيمان 133).

وحتى تتضح المسألة لا بد من الأمثلة.

لقد أثبت الله - تعالى- لنفسه صفة الكلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ (الأعراف: 143).

﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: 6).

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ (الكهف: 109).

فمن نفى كونه – سبحانه- متكلماً متصفاً بصفة الكلام فقد كفر فلا بد له أن يؤمن بأن الله متكلم ليس أبكم وإلا فهذا النافي كافر ويدخل في ذلك من تأول هذه الصفة تـأويلاً فاسداً يقتضي نفيها وإنكارها كالقول الوارد عن الفلاسفة في الكلام بأنه ليس أكثـر مـن انعكاس لمخيلة النبي القوية حيث تخيل أنه سمع كلاماً من الله –تعالى-.

وكذلك الأمر في صفة العلم التي أثبتها الله –تعالى- لنفـسه وراحـت الآيـات الكريمة تتحدث عن مطلق علم اللّه –تعالى- في الجزئيات والكليات، العلم الأزلي المسبق للأشياء والحوادث فمن نفى هذه الصفة عن الله، أو أولها بأنها العلم الإجمالي فقط وأن الله –تعالى- لا يعلم الجزئيات والتفصيلات كما ذهب بعض الفلاسفة فقد كفر.

ومن كفر الإثبات أن ينسب أحد لله –تعالى- صفة نفاهـا عـن نفـسه كالولـد والصاحبة والنِّدِّية والشريك. «وكذلك يكفر كل من يثبت شيئاً من صـفات الله لنفـسه أو لمخلوق ويكفر من يصدقه في دعواه كقول من قال: أنا أعلم كعلم الله أو فلان عنده مـن الحكمة كما عند الله – تعالى- فيكفر هذا القائل ويكفر من يصدقه في قولـه لأن إثبـات الشريك لله في صفاته انتقاص منه –جل وعلا- وكل انتقاص منه أو من صـفاته كفـر وردة» (ياسين، الإيمان 134).

وضمن انتفاء التوحيد تدخل حالات كثيرة تعد من نواقض الإيمـان لا بـد مـن الإشارة إليها منها: (حوى، الإسلام ص/74-89).

1- التوكل والاعتماد على غير الله، ونأخذ هذا من قوله –تعالى-: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: 23).

2- عدم اعتراف الإنسان بأن كل نعمة هو فيها هي من فضل الله، قال –تعـالى-: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبـــراهيم: 34).

3- إعطاء غير الله حق الأمر والنهي وحق التحليل والتحريم وحق التشريع والحاكميـة.

قال –تعالى–: (أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ) (الأعراف:54)
(إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ) (يوسف: 40).
(ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ) (التوبة: 31).

ومثل هذه الآيات كثير في القرآن الكريم كله يدل على أن هذه الأمور لا يجوز أن تصرف لغير الله وهي جزء من عبوديته – سبحانه–.

4- الحكم بغير ما أنزل الله، أو الاحتكام إلى غيره –جل وعلا– قال –تعالى–: (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ) (المائدة: 44).

(أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ) (النساء: 60).

وهذه لا تعد ناقضاً للشهادتين إلا في حالة الرضى أو الاعتقاد أنه أفضل من الحكم بما أنزل الله.

ثانياً: (الطعن في الرسالة والرسول).

إن أي قول، أو فعل، أو اعتقاد يتضمن الطعن في رسالة الإسلام، أو في صاحبها – عليه الصلاة والسلام– يعد ناقضاً من نواقض الإيمان؛ لأنه يتعارض مع الشهادة الثانية وهي شهادة أن محمداً رسول الله؛ لأن هذه الشهادة تعني التصديق بكل ما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه حق وصدق، وأن محمداً ﷺ مؤهل بجميع الصفات التي مكنته من أداء الرسالة وتبليغها على أتم وجه وأكمله، فتنقض هذه الشهادة بأحد أمرين:

1- الطعن في شخص الرسول ﷺ.

2- الطعن في الرسالة، وذلك بإنكار أيٍّ مما أخبر به رسول الله ﷺ.

ويدخل في الأمر الأول نسبة شيء للرسول ﷺ مما يتناقض مع اصطفاء الله له لتبليغ دينه إلى عباده، فيكفر كل من طعن في صدق الرسول ﷺ أو أمانته أو عفته أو فطنته؛ لأن الله –سبحانه– قد اختاره على علم. (ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ) (الأنعام: 124).

ويدخل في هذا الأمر شتم النبي ﷺ أو وصفه بصفة تحقير أو استهزاء به أو بتصرف من تصرفاته الثابتة، كأن يستهزئ أو ينتقد أمر تعدد زوجاته.

كما يدخل في هذا الأمر سوء الأدب مع رسول الله ﷺ، وقد جاء التحذير من ذلك في قوله – تعالى-: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) (الحجرات: 2).

والتهديد بإحباط العمل مشعر بالردة، قال – تعالى-: (وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ) (البقرة: 217).

ومن سوء الأدب هذا ما يمارسه الكثيرون من الذين يغمزون ويلمزون في كتاباتهم بالنبي ﷺ ويذكرونه هكذا ذكراً مجرداً بدون أي احترام له – عليه الصلاة والسلام–، ويدخلون بعد ذلك إلى الاستهزاء والاستخفاف بأقواله وأفعاله.

ويدخل في الأمر الثاني إنكار أي من الأمور التي جاء بها النبي ﷺ سواء مما جاء به في القرآن الكريم، أو مما ثبت في الأحاديث الصحيحة وبخاصة ما أخبر به من الغيبيات وأحوال الدار الآخرة، ويدخل في ذلك كل من أنكر شيئاً مما أجمعت الأمة عليه من أمور الدين وكان معلوماً من الدين بالضرورة يعرفه عامة المسلمين وخاصتهم مثل أركان الإسلام وأركان الإيمان وحرمة الخمر والزنا ونكاح المحارم ونحو ذلك من الأحكام إلا أن يكون حديث عهد بالإسلام لم يطلع على هذه الأحكام بعد، (ياسين، الايمان/138).

ويلحق بهذه الحالة من جحد إرسال الرسل قبل محمد ﷺ وما ورد في الكتاب الكريم من قصصهم مع أقوامهم – وكذلك من ادعى النبوة بعد محمد ﷺ، أو صدق من يدعيها، أو صدق بأن محمداً ﷺ ليس خاتم النبيين كما تدعي القاديانية والبهائية من فرق الكفر والضلال.

ويشمل هذا النوع من الكفر كل من اعتقد كذب النبي ﷺ أو شك مجرد شك فلم يجزم بصدقه ﷺ كما في قوله – تعالى-: (وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ) (ابراهيم: 9).

أو أعرض عما جاء به الرسول ﷺ، فلا يصدقه ولا يكذبه ولكنه يعرض عنه. كما في قوله – تعالى-: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ) (السجدة: 22). (الزنداني، الإيمان، ص211-210).

ثالثاً: (موالاة الكفار)

أخي الدارس..... أختي الدارسة، إن شهادة أن لا إله إلاّ الله تعني أول ما تعني نفي استحقاق العبادة لغير الله، ولقد كانت رسالة جميع الرسل -عليهم السلام- إلى أقوامهم مجملة في قوله -تعالى-: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ) (النحل: 36).

وكل ما عبد من دون الله طاغوت وكل من عبد طاغوتاً أياً كان نوعه فهو كافر، والكفار بوجه عام لا يعبدون الله وحده ولا يدينون دين الحق، فهم أعداء الله. وعلى المسلم أن يوالي من والى الله ورسوله ويعادي من عادى الله ورسوله: (لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ) (المجادلة: 22).

ولقد ربى القرآن الكريم المسلمين على أساس إخلاص الولاء لله ولرسوله ولجماعة المؤمنين، وجعل الرابطة التي يتجمع عليها المسلمون هي رابطة العقيدة، فكانت هذه الرابطة بديلاً عن روابط جاهلية مختلفة مثل روابط الدم والنسب والأرض والوطن والقوم والعشيرة واللون واللغة والحرفة والطبقة لأنها كلها روابط آنية مصلحية تخالف مخالفة صريحة أصول التصور الإسلامي.

كما حسم القرآن الكريم المسألة أن هناك معسكراً للإيمان أهله بعضهم أولياء بعض، ومعسكراً للكفر والنفاق أهله كذلك بعضهم أولياء بعض، قال – سبحانه-: (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) (الأنفال: 74).

وفي المقابل: (ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ) (التوبة: 67).

وبعد هذه المقدمة أود أن أقدم لك -أخي الدارس- معنى الموالاة وأهم مظاهرها والأعذار المقبولة فيها.

- **معنى الموالاة:**

هذا اللفظ مشتق من الولاء وهو الدنو والتقرب، والولاية ضد العداوة والولي عكس العدو، والمؤمنون أولياء الرحمن والكافرون أولياء الشيطان، لقرب الفريق الأول من الله بطاعته وقرب الفريق الثاني من الشيطان بطاعته (ياسين، الإيمان 145).

فموالاة الكفار –إذاً– تعني التقرب إليهم وإظهار الود لهم بالأقوال والأفعال والنوايا، وهذا هو المحظور الذي جاءت الأدلة في الكتاب والسنة تنهى عنه وتنذر وتتوعد من يقع فيه.

- **أهم مظاهر الموالاة:**

وإليك –أخي الدارس– أهم مظاهر الموالاة للكفار:

1- الطاعة: وقد نهى القرآن الكريم صراحة عن طاعة الكفار فيما يأمرون، وحذر من الأخذ برأيهم كما في قوله –سبحانه–: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ (آل عمران: 149).

2- اتباع ملتهم والميل مع أهوائهم، اسمع قوله –تعالى–: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة: 120).

3- الركون إليهم بقبول آرائهم والاعتماد عليهم في بعض الأمور. قال –تعالى–: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (هود: 113).

4- مداهنتهم ومداراتهم ومجاملتهم على حساب الدين، قال –تعالى–: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (القلم: 9).

5- محبتهم وإظهار الود لهم، والله –سبحانه– يقول: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ (المجادلة: 22).

ويقول – سبحانه-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ (الممتحنة: 1).

6- اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، وذلك بتقريبهم؛ ليكونوا خاصة للحكام وأولي الأمر، قال – تعالى-: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (آل عمران: 28).

7- التشبه بهم وتقليدهم في شؤون الحياة واستعارة قوانينهم ومناهجهم. فقد نهى رسول الله ﷺ عن التشبه بالكفار وتقليدهم في أنماط معيشتهم وذلك حفاظاً على أصالة الأمة الإسلامية وعدم ذوبانها.

ولقد ضل المسلمون اليوم كثيراً في هذا المجال، ودخلت عليهم التيارات الفكرية الغازية من هذا الباب وأصبح التغريب صبغة عامة لكافة عاداتنا وتقاليدنا ومأكلنا ومشربنا وملبسنا بل ومؤسساتنا التربوية والإعلامية.

8- التعاون معهم وتنفيذ مؤامراتهم ومخططاتهم في حربهم ضد المسلمين والدخول في تنظيماتهم وأحلافهم، والتجسس من أجلهم، ونقل المعلومات عن أحوال المسلمين إليهم.

وهذا بلا شك من أخطر مظاهر الموالاة للكفار وقد أسهب الدكتور محمد نعيم ياسين في كتابه الإيمان في إيراد هذه المظاهر وعليك – أخي الدارس- الرجوع إليه إن أردت الفائدة والاستزادة

- **الأعذار المقبولة وغير المقبولة:**

قضية الولاء بحدودها وتفصيلاتها السابقة قضية حساسة متشعبة قد يضطر بعض الناس أحياناً للإخلال في بعض مظاهرها نتيجة ظروف معينة قد يتعرض لها المرء المسلم، وقد ذكر القرآن الكريم كثيراً من الأعذار غير المقبولة التي يستخدمها بعض ضعاف الإيمان مدخلاً لولائهم وتعاونهم مع الكفار فرد القرآن الكريم هذه الأعذار وعدّها أعذاراً غير ملجئة لمثل هذا العمل المشؤوم.

يقول – سبحانه- بعد نهيه عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء وبيانه للحكم وهو تكفير من يفعل ذلك من المسلمين: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ

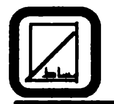
فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ) (المائدة: 52).

ويستثني القرآن الكريم حالتين عدّهما من الأعذار الملجئة المقبولة.

الأولى: حالة الإكراه التي وردت في قوله – تعالى-: (مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ) (النحل: 106).

الثانية: التقية وهي حالة الخوف من بطش الأعداء. كما في قوله – سبحانه-: (لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ) (آل عمران: 28).

علماً بأن لكل حالة من هاتين الحالتين حدوداً لا يجوز تجاوزها وضابطاً مهماً هو اطمئنان القلب بالإيمان.



نشاط (2)

أخي الدارس، أرجو منك إعداد تقرير من 3–5 صفحات حول موالاة الكفار وتقديمه إلى مشرفك الأكاديمي لتقويمه.

رابعاً: (عدم الرضى بالإسلام)

إن أكبر نعمة على المسلم هي الإسلام، وقد كان من آخر ما نزل من القرآن الكريم قوله – تعالى-: (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا) (المائدة: 3).

ولما كان الله عز وجل قد رضي لنا الإسلام ديناً وأكرمنا به فمن الواجب علينا أن نرضى ما رضيه لنا الله ولا نقبل به بديلاً أبداً، وكل من لم يرضَ بذلك فهو كافر، فإن من نواقض الإيمان كراهية الإسلام، أو كراهية شيء منه قال – تعالى-: (وَٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ) (محمد: 8-9).

ويدخل في ذلك أن يكره الإنسان أي حكم من أحكام الإسلام في العبادات أو المعاملات «إن أي كراهية لمضمون آية أو لمضمون حديث ثابت أو لسنة بشمولها الذي يدخل فيه قول الرسول ﷺ أو فعله أو تقريره أو صفته يخرج الإنسان عن الإسلام وينقض دعوى الشهادتين عنده» (حوى/الإسلام/78).

ويدخل ضمن هذا النوع من نواقض الإيمان حالتان هما:

الحالة الأولى: عدم تكفير الكافرين على اختلاف مللهم ونحلهم، أو الشك في كفرهم، أو الاعتقاد بصحة أي من معتقداتهم الفاسدة.

«فمن علم من شخص أو جماعة أو مذهب أو حزب من الأحزاب أو طائفة من الطوائف أو أهل دين من الأديان كفراً بواحاً واضحاً فاعتقد عدم كفرهم أو ردتهم، أو قال عن مذاهبهم أو بعضها أنه صحيح فقد دخل معهم في الكفر وأصبح مثلهم» (ياسين، الإيمان/140).

وبذلك يكون على المسلم أن يكفر الكافر ويكفر من لم يكفرّه.

الحالة الثانية: الاستهزاء بشيء من الكتاب أو السنة، أو بأهلهما من أجلهما، أو الاستهزاء بحكم من أحكام الله – عز وجل– أو شعيرة من شعائره. (حوى، الإسلام/79).

فالاستهزاء بأي حكم من أحكام الشريعة الإسلامية، أو شعيرة من شعائر الإسلام، أو نص من الكتاب، أو السنة الثابتة يدل على عدم الرضى بأحكام الإسلام، وبذلك يخرج من الملة.

ومما يجدر ذكره أن الكثيرين يقعون في هذا الكفر من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون، فبعضهم يستهزئ بحكم الإسلام في تعدد الزوجات، أو الطلاق، أو نصيب المرأة في الميراث، أو يستهزئ بحكم الإسلام في قطع يد السارق، أو رجم الزاني، أو جلده، وما إلى ذلك. أو يستهزئ بالصلاة، أو الحج، أو بسنة ثابتة عن رسول الله ﷺ، فلو استهزأ باللحية أو بالسواك فإنه يكفر ويخرج من الملة إذا كان الاستهزاء نابعاً من عدم قناعته بهذا الحكم أو عدم رضاه به.

إن الرضى والتسليم بحكم الله ورسوله واجب على المسلم، وليس موضع اختيار، قال – سبحانه-: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) (الأحزاب: 36).

ويدخل ضمن هذا الاستهزاء بمسلم ملتزم لأي حكم من أحكام الإسلام، فإن استهزأ به بسبب التزامه وتطبيقه لهذا الحكم فقد كفر وخرج من الملة، وذلك كمن استهزأ بمسلم أدى زكاة ماله فبدأ يطلق النكات عليه قائلاً لقد أضعت أموالك بدون فائدة، أو استهزأ بامرأة مسلمة لأنها تلبس الجلباب الشرعي. وكل ما هو من جنس هذا مما لا يعد استهزاء بشخصه وإنما يعد استهزاء به لتطبيق هذا الحكم الشرعي، فهذا كفر لأنه يعبر عن عدم رضى المستهزئ بهذا الحكم الشرعي.

؟

أسئلة التقويم الذاتي (2)

أخي الدارس: ها أنت قد درست القسمين الثاني والثالث من هذه الوحدة، ودرست مفهوم الإيمان، والعلاقة بينه وبين الإسلام، وأهم نواقض الإيمان.

حاول أن تتعرف مدى استيعابك لهذه الموضوعات من خلال إجابتك الذاتية على الأسئلة التالية:

1- وضح الخلاف الوارد عند أهل السنة في تحديد معنى الإيمان وماذا يترتب على هذا الخلاف.
2- لكل من الإسلام والإيمان في القرآن الكريم معنى خاص به ومعنى عام، وضح ذلك.
3- من نواقض الإيمان، الطعن في الرسالة والرسول، فما هي الأمور التي تدخل ضمن هذا الناقض ؟
4- ما هي الأعذار المقبولة في موالاة الكفار ؟ مع الدليل لكل عذر.

5. الخلاصة

أخي الدارس... أختي الدارسة:

ها أنت قد درست الوحدة الأولى التي تعتبر مدخلاً لمقرر العقيدة الإسلامية، وعرفت أهداف الوحدة ومحتواها، ولعلك قد قمت بحل تدريباتها وأسئلتها، ولإنعاش ذاكرتك أضع بين يديك في هذه الخلاصة أهم الأفكار الرئيسة التي وردت في هذه الوحدة.

1- العقيدة من العقد وهو الربط، وهي ما يعقد المرء عليه قلبه فيعتقده اعتقاداً جازماً.
2- قضايا العقيدة الإسلامية تدور حول الإلهيات (توحيد الله – تعالى- بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، والنبوات (الإيمان بالرسل والملائكة والكتب المنزلة)، والسمعيات (الإيمان بكل ما أخبر به الرسل - عليهم الصلاة والسلام- من الغيبيات وغيرها).
3- العقيدة الإسلامية التي تعتمد على مصدري الكتاب والسنّة تتميز بثباتها ووضوحها

وفطريتها وتوازنها وشمولها، لأنها إلهية في مصدرها.

4- الإيمان يعني التصديق والإقرار والطمأنينة، والإسلام يعني الاستسلام والانقياد لأمر الله – تعالى–، ولكل منهما معناه الخاص به فإن افترقا كان الإسلام للأعمال الظاهرة، كأركان الإسلام الخمسة، والإيمان لما في القلب من أركان الإيمان الستّة وغيرها.

5- انتفاء التوحيد ناقض للإيمان مخرج من الملة، ويكون بالكفر، أو بالشرك، أو بالنفاق الاعتقادي.

6- الطعن برسالة الإسلام، أو بأي حكم جاء فيها، أو الطعن بصاحب الرسالة نبينا محمد ﷺ بالشتم أو الاستهزاء، ناقض للإيمان مخرج من الملة.

7- موالاة الكفار، أعداء الإسلام، وذلك بطاعتهم والتودد إليهم، وتفضيل قوانينهم على شريعة الإسلام، والتعامل معهم والتجسس على المسلمين لحسابهم. كل ذلك ناقض للإيمان مخرج من الملة.

8- الرضى بالكفر، أو عدم الرضى بالإسلام، سواء كان عدم الرضى عن الإسلام جملة، أو كان لجزء منه، بالاعتراض على بعض أحكام الإسلام، والتشكيك فيها واعتبارها غير ملائمة لروح العصر مثل حد السرقة أو الزنا مثلاً كل هذا وما شابهه ناقض للإيمان مخرج من الملة.

وقد حرصت في هذه الوحدة على عدم الخوض في خلافات الفرق والرد عليها إلا مجرد إشارات سريعة، وذلك لحرصي على تقديم العقيدة الإسلامية صافية من نبعها بعيدة عن الخلافات والتأثر بالفلسفات الدخيلة.

6. لمحة عن الوحدة الدراسية الثانية

أخي الدارس: بعد أن عرفت معنى العقيدة الإسلامية، وموضوعها، وأهميتها، ومصادرها، وخصائصها، وعرفت كذلك معنى الإيمان والإسلام والعلاقة بينهما، واطلعت على نواقض الإيمان، أود أن أعطيك لمحة موجزة عن الوحدة التي ستنتقل إليها وهي بعنوان «توحيد الله – تعالى–». وستتعرف من خلال هذه الوحدة على معنى التوحيد والفرق بينه وبين الشرك، كما ستتثبت لك أدلة وحدانية الله – تعالى– العقلية والنقلية، وتدرك أثر التوحيد في حياة المسلم.

كما ستعرف من خلال هذه الوحدة أنواع التوحيد وأقسامه الثلاثة ومعنى كل قسم وأدلته ومظاهره، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

7. إجابات التدريبات

تدريب (1)

إن اتصاف العقيدة الإسلامية بالربانية، واعتمادها على الوحي مصدراً أصيلاً لها لا يتعارض مع مكانة العقل في الإسلام، ولا يعني بأي حال من الأحوال تعطيل دور العقل ووظيفته.

فمع أن العقل البشري لم ينشىء العقيدة الإسلامية إلا أنه ليس محظوراً عليه العمل فيها؛ ليستفيد منها في واقع الحياة، والعقل البشري في ميزان هذه العقيدة أداة قيمة يوكل إليها إدراك هذه العقيدة.

والعقل الإنساني له حدوده، وطبيعته، ومقدرته، وأي محاولة من العقل لتجاوز حدوده تعني التخبط والضلال، فهناك دائرة من الغيبيات لا يستطيع العقل أن يسبر غورها، ويعرف كنهها، وعلى العقل أن يتلقاها من الوحي مستسلماً، وفيما عدا ذلك من الأدلة والنظر في ملكوت الله للاستدلال على وحدانيته وعظمته فهذا كله متروك للعقل.

وما من دين احتفل بالعقل واهتم به اهتمام الإسلام، فقد حرره من قيود الكهانة والوهم والخرافة ودعاه إلى الانطلاق والنظر والتأمل في سنة الله في هذا الكون الواسع.

تدريب (2)

تتبين خاصية الشمول واضحة من خلال نظرة العقيدة الإسلامية إلى الإنسان والكون. أما نظرتها إلى الإنسان، فإن العقيدة الإسلامية عرفت الإنسان بحقيقة نفسه مبينة أنه ليس فقط هذه الكتلة المادية التي تسمى الجسد وإنما الإنسان عقل وروح وجسد وبينت أن هذا الإنسان خلق من تراب وأكرمه الله بالنفخة الإلهية، وجعله أكرم مخلوق، واختاره للتكليف، وحمل الأمانة وجعله خليفة في هذه الأرض ليعمرها، وسخر له ما في هذا الكون؛ ليساعده في تحقيق مهمته ورسالته.

أما نظرة العقيدة الإسلامية إلى الكون، فقد نظرت إلى الكون كله بكل ما فيه على أنه مخلوق لله – سبحانه-. وقد بينت العقيدة الإسلامية خصائص هذا الكون وقوانينه والغاية التي خلق من أجلها والمصير الذي ينتهي إليه، وبسطت كل هذا وفق نظرة شمولية.

تدريب (3)

لقد اعتبرت العقيدة الإسلامية العقل مصدراً من مصادر المعرفة، فلم تحصر طريق المعرفة بالوحي والإلهام، وإنما أعطت للعقل دوره باعتباره مصدراً يمكن التوصل إلى كثير من الحقائق حول هذا الكون وظواهره المختلفة وقوانينه ونواميسه عن طريقه.

ومن خلال هذا الدور الذي أعطته العقيدة الإسلامية للعقل البشري تتضح خاصيّة الوسطية في العقيدة الإسلامية، فلم تقف موقف الكنيسة في العصور الوسطى؛ لتصادر العقل وكل معارفه، وتقتل العلماء الذين أثبتوا بعض الحقائق العلمية عن هذا الكون وتحرقهم، بل المعروف أن العقيدة الإسلامية شجعت العلم والعلماء ودعت العقل إلى النظر والتأمل، واكتشاف نواميس الكون، وعدم الجمود والانكفاء على التقليد الأعمى.

تدريب (4)

هذه العبارة ذكرها ابن تيمية في مجموع الفتاوي، وذكرها الشيخ نمر الخطيب في كتابه في العقيدة الإسلامية، ومعناها أن الإسلام والإيمان إن اجتمعا في نص واحد من نصوص الكتاب أو السنة كان لكل منهما معناه الخاص، لكن إن ذكر أحدهما منفرداً في نص فإنه يتضمن معنى الآخر ويشمله في المعنى.

8. مسرد المصطلحات

- **الإسلام:** هو إظهار الخضوع والانقياد والالتزام بما أتى به النبي ﷺ، وقد أطلق على الدين الذي ارتضاه الله تعالى للبشرية دنيا.
- **الإلهيات:** المواضيع المتعلقة بالإيمان بالله – تعالى– من حيث توحيده – سبحانه– في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.
- **الإيمان:** هو التصديق القلبي والنطق اللساني، والعمل بما جاء في الجانب الاعتقادي من الإسلام.
- **السمعيات:** وهي الإيمان بكل ما جاء في كتاب الله، أو في سنة رسوله ﷺ من الأمور الغيبية.
- **العقيدة الإسلامية:** هي التصديق الجازم بجميع أصول الإيمان الستة، وما يتعلق بها من القضايا الإيمانية الواردة في الكتاب والسنة.
- **موالاة الكفار:** الموالاة من الولاء وهو الدنو والتقرب، والولاية ضد العداوة، وموالاة الكفار تعني التقرب إلى الكفار وطاعتهم، وإظهار الود لهم بالأقوال والأفعال والنوايا.
- **الوسطية:** تعني الاعتدال والتوازن، وعدم الغلو، وهي من خصائص العقيدة الإسلامية.



9. المراجع

1- القرآن الكريم.

2- ابن أبي شيبة، كتاب الإيمان، تحقيق الألباني. ط 2، ألمانيا الغربية: دار النور للطباعة والنشر، 1985 م.

3- ابن تيمية، أحمد عبد الحليم، مجموع الفتاوي (كتاب الإيمان) الجزء 7، توزيع الرئاسة العامة لشؤون الحرمين – مكة المكرمة.

4- ابن حنبل، أحمد، الرد على الزنادقة والجهمية، تحقيق علي النشار وعمّار الطـالبي، نشر منشأة المعارف بالإسكندرية سنة 1971م.

5- ابن حنبل، أحمد بن محمد، السنة، مطبوع مع الرد على الزنادقة والجهميـة، تعليـق إسماعيل الأنصاري، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتـاء والـدعوة والإرشـاد بالمملكة العربية السعودية – الرياض.

6- ابن حنبل، أحمد بن محمد، المسند، مؤسسة قرطبة، مصر.

7- ابن منده، محمد بن إسحق، الإيمان، تحقيق علي الفقيهي. الطبعة 1، المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، سنة 1401 هـ.

8- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، بيروت: دار صادر.

9- أبو حنيفة، النعمان بن ثابت، الفقه الأكبر (دون طبعة ولا دار نشر).

10- أبو عبيد، القاسم بن سلام، الإيمان؛ معالمه وسننه واستكماله ودرجاته، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، دار الأرقم، الكويت.

11- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري (مطبوع مع فتح البـاري) المكتبـة السلفية.

12- البغدادي، أبو منصور، أصول الدين. الطبعة الثانية، بيروت: دار الكتب العلميـة، 1400هـ-1980م.

13- البنا، الشهيد حسن، مجموع الرسائل (رسالة العقائد).

14- البوطي، محمد سعيد، كبرى اليقينيات الكونية، طبعة 8، دار الفكر، 1401 هـ.

15- الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمـد شـاكر وآخـرون، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

16- الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، دار الكتب العلمية، طهران، مـصورة عـن طبعة الخيرية بمصر 1306 هـ.

17- حوّى، سعيد، الإسلام جزء (1) الطبعة الأولى، سنة 1969 م.

18- الحنفي، ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية، المكتب الإسلامي، الطبعـة 5 سـنة 1399هـ.

19- الخطيب، محمد نمر، في العقيدة الإسلامية، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى سنة 1402 هـ.
20- الرازي، أبو بكر محمد، مختار الصحاح، المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت (بدون تاريخ).
21- الزنداني، عبد المجيد، الإيمان، الطبعة الثانية.
22- السائح، عبدالحميد، عقيدة المسلم وما يتصل بها، عمان: وزارة الأوقاف الأردنية، 1979م.
23- سابق، سيد. العقائد الإسلامية، ط 3، القاهرة، مطبعة حسّان، 1396 هـ، دار القلم، دمشق ومكتبة طيبة بالمدينة المنورة، سنة 1403 هـ.
24- الطحاوي، أحمد بن محمد، العقيدة الطحاوية، مطبوعة مع شرح ابن أبي العز عليها، المكتب الإسلامي، ط5، 1399هـ.
25- العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري: شرح صحيح البخاري، المكتبة السلفية.
26- عبده، محمد، رسالة التوحيد، مكتبة الجامعة الأزهرية، 1385 هـ.
27- الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، مكتبة عبد الوكيل الدروبي، دمشق.
28- القرضاوي، يوسف، الإيمان والحياة، مكتبة وهبة، شارع الجمهورية مصر العربية - القاهرة، الطبعة الثالثة، 1395 هـ.
29- القرضاوي، يوسف، الخصائص العامة للإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة 1405 هـ.
30- قطب، سيد، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، نشر الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، 1398 هـ.
31- الكردي، راجح، علاقة صفات الله بذاته، الطبعة الأولى، دار العدوي للتوزيع والنشر، عمان، سنة 1400 هـ.
32- الكفوي، أبو البقاء، الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، منشورات: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سنة 1981م.
33- الميداني، عبد الرحمن حبنكة، العقيدة الإسلامية وأسسها، الطبعة الثانية، دار القلم، دمشق سنة 1399 هـ.
34- النسائي، أحمد بن شعيب، سنن النسائي، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، ط2، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب.
35- النيسابوري، مسلم بن حجاج، صحيح مسلم، من منشورات الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، سنة 1400 هـ.
36- ياسين، محمد نعيم، الإيمان، مكتبة الأقصى، عمان، الطبعة الثانية، سنة 1400هـ.س



الوحدة الثانية

توحيد الله تعالى

محتويات الوحدة

الموضوع	الصفحة

1. المقدمة

1.1 تمهيد

أخي الدارس: نرجو أن تكون قد استمتعت بدراسة الوحدة السابقة، وقد كانت مدخلاً ضرورياً إلى العقيدة الإسلامية. وها نحن نلتقي بك في الوحدة الثانية من هذا المقـرر – العقيدة الإسلامية (1) – وهي بعنوان (توحيد الله –تعالى–).

لقد عرفت مما سبق مفهوم العقيدة الإسلامية، واستوعبت مفهوم الإيمان، وقد أشرنا إشارة بسيطة إلى التوحيد، وأنت تعلم أن التوحيد أساس الإيمان وأن أركان الإسلام قائمة عليه، فمن لا يوحد الله – تعالى– لا يؤمن بملائكته، ولا بكتبه ولا برسله، ولا بالقدر ولا باليوم الآخر. ولذا كان موضوع هذه الوحدة أساساً ضرورياً نسبق به الحديث عن سائر أركان الإيمان.

وفي هذه الوحدة سنتناول – إن شاء الله تعالى– مسألة وجود الله –تعالى– وأدلة هذا الوجود، إذ إن التوحيد يُسبق دائماً بالحديث عن وجود الله –تعالى– والاستدلال على وجوده. ويعقب ذلك الحديث عن التوحيد من حيث معناه والفرق بينه وبين الشرك، وأدلته وآثاره في حياة المسلم، ثم الحديث عن أنواع التوحيد الثلاثة (توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات) بشيء من التفصيل، وقد اقتضى ذلك عرض آراء المدارس الفكرية من معتزلة وأشاعرة وسلفية حول النوع الثالث منها على وجه الخصوص.

ولا تَنْسَ – أخي الدارس– أننا قدمنا خلال عرض فقرات هذه الوحدة تدريبات قصدنا منها اختبار مدى استيعابك لبعض مفاهيم المادة الدراسية كما ألحقنا بكل وحدة أسئلة تقويم ذاتي؛ لتتأكد لنا متابعتك للمادة وفهمها.

وقد ذيلنا الوحدة بذكر خلاصة لما مر فيها من أفكار رئيسة، مع بيان لمعاني المصطلحات والمفاهيم الأساسية الواردة فيها، مع إجابة عن أسئلة التدريبات المبثوثة في ثنايا الوحدة وقد قصد من إيداعها في ذاك المكان أن تقارن إجابتك عنها بما أثبتناه لك هناك.

وتعزيزاً لما ورد من مادة تعليمية في هذه الوحدة، فقد طلب إليك – أخي الدارس– القيام بعدد من الأنشطة التي نأمل أن توليها عنايتك واهتمامك، فإن في القيام بها فائدة محققة تستدعي التنبيه.

ومع ترحيبنا بك إلى هذه الوحدة، نأمل أن تجد المادة سهلة ميسورة، ونسأل الله – تعالى– أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم وأن يوفقك لتحقيق أهدافها المنشودة والفوز بخيري العلم والعمل.

2.1 أهداف الوحدة

بعد فراغك من دراسة هذه الوحدة ينتظر منك أن تكون قادراً على أن:

1. تستدل على وجود الله -تعالى- بالأدلة المناسبة.
2. تشرح مفهوم التوحيد وتميز بينه وبين الشرك.
3. تستدل على توحيد الله -تعالى- بالأدلة العقلية والشرعية.
4. تتعرف آثار التوحيد في حياة المسلم.
5. تعدد مظاهر التوحيد ومظاهر الشرك.
6. تميز بين أنواع التوحيد، من حيث معنى كل منها وأدلته ومظاهره.
7. توضح آراء المدارس الفكرية الإسلامية في مسألة الأسماء والصفات.
8. تتعمق لديك قناعاتك العقلية والوجدانية بالعقيدة الإسلامية .

3.1 أقسام الوحدة

تيسيراً لفهم الوحدة وتنظيماً لعرضها، فقد جرى تقسيمها إلى ثلاثة أقسام على النحو الآتي:

القسم الأول: بين يدي التوحيد: حيث تناولنا مسألة وجود الله -تعالى- والأدلة الموصلة إلى ذلك، من أجل تحقيق الهدف الأول.

القسم الثاني: التوحيد: من حيث معناه، والفرق بينه وبين الشرك وأدلته وآثاره في حياة المسلم، بهدف تحقيق الأهداف من الثاني وحتى الخامس.

القسم الثالث: أنواع التوحيد: وهي توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات من حيث معنى كل منها وأدلته ومظاهره. ويؤمل أن يحقق هذا القسم الهدفين السادس والسابع.

وأما الهدف الثامن فهو انعكاس لما ستدرسه في هذه الوحدة.

4.1 القراءات المساعدة

أخي الدارس: رغم توضيحنا المادة وشرحها، فإننا نجد مـن المناسـب توجيهـك لتعزيز دراستك الاستعانة بعدد من المراجع ذات الفائدة المتميزة في هذا الموضوع بهدف إثراء معرفتك ومن هذه المراجع:

1. حوى، سعيد، الله جل جلاله. ط2، دمشق: دار القلم، 1975م. ص (5-119).
2. قطب، سيّد، مقومات التصور الإسلامي. ط1، بيروت: دار الشروق، 1986م.
3. الكردي، راجح، علاقة صفات الله بذاته. ط1، عمان: دار العدوي، 1980م.

5.1 ما تحتاج إليه لدراسة الوحدة

تأكد قبل دراستك لهذه الوحدة من الحضور الذهني، فإن دراسة هذه المادة بحاجـة إلى انتباه وتركيز ذهنيين. ولا تغفل الإجابة عن أسئلة التقويم الذاتي والعودة إلى الـنص المكتوب للتأكد من صحتها، كما لا تنس الإجابة عن أسئلة التدريبات ومقارنـة إجابتـك بالإجابات الواردة في نهاية الوحدة للوقوف على مدى سلامة إجابتك. وأعود إلى تذكيرك للقيام بالأنشطة: اعرضها على مشرفك، ولا تتردد في سؤاله كلما لاحظت صـعوبة فـي المادة، أو أمراً يحتاج إلى مناقشة.

2. بين يدي التوحيد: وجود الله -تعالى- وأدلته

أخي الدارس: اعتاد المؤلفون في العقيدة أن يتناولوا أركان التوحيد الستة: الإيمان بالله - تعالى- وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله - عز وجل-. وأول ركن كما ترى الإيمان بالله -تعالى- فإنه أصل الأركان الأخرى: وأهم قضية في هذا الركن قضية التوحيد، لأنك قد تجد، بل ونجد كثيراً أن أصحاب الأديان الأخرى، وكثيراً من البشر لا ينكرون وجود الله -تعالى- ولكنهم ينكرون وحدانيته. فالوحدانية وهي أبرز صفات الله -تعالى-، هي الفاصل بين عقيدة الإسلام والعقائد والفلسفات الأخرى. ومن هنا وجدتنا قد جعلنا عنوان الركن الأول من أركان العقيدة «توحيد الله -تعالى-» ولم نجعله العنوان الدارج في كتب التوحيد وهو وجود الله - تعالى-، ونحن هنا نحاول أن نعود بك إلى منهج القرآن الذي لا يجعل فرقاً بين وجود الله -تعالى- ووحدانيته، كما أننا نحاول أن نبرز لك السمة المميزة لعقيدة الإسلام على سائر الأديان - كما هي عند أهلها اليوم -. والفلسفات، وهي سمة التوحيد، الذي يمثل الثورة على الشرك بكل أشكاله، وألوانه، وممارساته.

وبين يدي الحديث عن التوحيد، تجدنا مضطرين أن نتحدث لك عن وجود الله - تعالى-، وأدلة وجوده، حتى تدخل إلى دراسة توحيده وأدلته وأنواع هذا التوحيد، وأنت على يقين تام بوجود الله -تعالى-، وأنا أؤمن أنك على يقين بذلك، ولكني أريد أن تتمكن من الأدلة العقيلة والنقلية على وجوده؛ لتزداد إيماناً ويقيناً، ولتكون قادراً على الرد على أصحاب الشبهات من المترددين والمشككين، وأصحاب الأهواء، والملحدين.

ألست ترى معنا أن المؤمن يجب أن يكون متسلحاً بالحجج العقلية والنقلية حتى يكون قادراً على إثبات صحة ما يعتقد، وبهذا يكون المؤمن واعياً إيمانه، حارساً عقيدته داعياً الآخرين لالتزام الحق بالحكمة والموعظة الحسنة وبالمجادلة بالتي هي أحسن.

ويمكننا أن نجمل لك هذه الأدلة - وهي كثيرة جداً - بنموذجين من الأدلة؛ وهما الدليل النفسي أو الفطري والدليل الكوني. وهذان النموذجان يجمعان الأدلة العقلية والشرعية، وهما مستخدمان من قوله -تبارك وتعالى-: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: 53).

وهذان النموذجان هما:

1.2 الدليل الفطري

أخي الدارس، هل أنت موجود؟ هل تشك لحظة واحدة في وجودك؟ هل تحتاج إلى من يرشدك أو يقنعك بأنك موجود؟ ما الذي دلك على وجودك؟ الجواب: شعورك الفطري، وجدانك، شيء لا تستطيع مقاومته، إحساس عميق لا يمكنك رده. وكما أنك لا تملك أن ينفصل وعيك عن الإحساس بوجودك، فكذلك لا تملك أن ينفصل وعيك عن إيمانك بوجود الله؛ لأنك لا تملك أن تعطي نفسك وجودك ولا شعورك بهذا الوجود، فالله هو الذي أعطاك هذا الوجود والشعور به وبالحاجة إلى الله -سبحانه-.

ألا تشعر -أخي الدارس- بأنك سر عجيب في خلقك وتكوينك؟ في عقلك ونفسك؟ ألست تجد نفسك تضطر ساعة الفزع والهلع، والخوف والشدة، للعودة إلى الله -تعالى- تسأله أن يجيب دعاءك، ويرفع الشدة عنك، قال -تعالى- يصور نفسيتنا هذه.

(وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) (يونس: 12).

(قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ) (الأنعام: 63-64).

(وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا) (الإسراء: 67).

(هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ) (يونس: 22).

وبالتالي فإن لوثة الإلحاد أو إنكار وجود الله -تعالى-، لوثة غريبة على الفطـرة، وشاذة ليس لها في أعماق الفطرة أي وجود، وليس لها بقاء ولا امتداد؛ لأن الإيمان بوجود الله حاجة فطرية في النفس كحاجتها للوجود وللطعام والشراب لحفظ ذاتها. فالإلحاد تقاومه الفطرة، ولكنها حين تصاب بهذا المرض أحياناً، فإنما تصاب بسبب عارض من الجهـل والكبر والانحراف والظلم، فهي جميعها حُجبُ تشوش على الفطرة صفاءها ولهذا فإننا إذا أردنا لهذه الفطرة أن تؤتي أكلها من الاستشعار بعظمة ربها -سبحانه- فعلينا أن نحررها من الأوهام والخرافات، وأن نبعدها عن الجهل بالعلم، وعن الكبـر بالتواضـع، وعـن الانحراف والظلم بالاستقامة والعدل، وعن الغفلة بالذكر، فحينئذ تستقيم الفطرة وتكون من أعظم الأدلة على وجود الله -سبحانه-، ولنقرأ سوياً الآيات الكريمة التي تدلنا على آفـات الفطرة التي تسد عليها منافذ الهـدى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾ (الأعراف: 146).

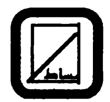
﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ (البقرة: 26-27).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد: 4).

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ (الأنبياء: 1-3).

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (الحجر: 12-13).

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الأنعام: 110).



نشاط(1)

اجمع الآيات التالية من القرآن الكريم واستخرج منها أسباب انحراف الفطرة عن الإيمان بالله –تعالى-:	
(1) البقرة (118).	(2) الفرقان (2).
(3) الأنعام (93).	(4) الأنعام (56).

وبهذا نجد أن الإنسان إذا أزاح عن فطرته الجهل والكبر، والانحراف، والظلم فإن فطرته تسلم بوجود الله –تعالى-. كيف لا؟ والفطرة نفسها من خلق الله وهي أول الأدلة على وجوده كما قال –تعالى-:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: 30).

2.2 الأدلة الكونية

ورغم وضوح قضية وجود الله –تعالى- وفطريتها، إلا أن النفس الإنسانية –كما قلنا- قد ترين عليها رواسب الجاهلية، ويحجبها الهوى والغفلة والنسيان وتجذبها الشهوة. فيوجه الله –تعالى- نظر النفس إلى خارجها، إلى الآفاق وإلى هذا الكون بما فيه من آيات مبثوثة، إذا دقق الإنسان النظر فيها، وأعمل عقله في استقصائها، من حيث وجودها، وحركتها، وانتظامها ودقتها، أيقن أن لها خالقاً خلقها ودبر أمرها. وكل ما فيها أدلة على عظمة هذا الخالق وعلمه وحكمته، وقدرته وإرادته. إذ إنه لا يمكن عقلاً أن تخلق هذه الأشياء نفسها، كما لا يمكن عقلاً أن تكون بلا إرادة خالقة فالصدفة مرفوضة عقلاً، قال –تعالى-:

(أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ) (الطور: 35-36).

وقد جعل الله -تعالى- هذه الأدلة الكونية في الآفاق وفي الأرض نموذجاً ثانياً للاستدلال على وجوده -بالإضافة لنموذج الفطرة أو النفس- كما قال -سبحانه-:

(وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ) (الذاريات: 20).

(سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) (فصلت: 53).

لاحظ، أخي الدارس، قوله -سبحانه- (حتى يتبين) فوجود الله -تعالى- حقيقة ظاهرة غالبة، غير مرتبطة باستدلال ولا بمن يستدل عليها، ولكن الخفاء يكون بغفلة العقل عن النظر، فوجود الله -تعالى- ظاهر شاهد وكل ما سواه مرتبط بهذا الوجود، فالله -تعالى- هو الشاهد والمشهود عليه وهو الحق وكل ما سواه دال عليه.

وهذه الأشياء أو الأدلة الكونية، كثيرة جداً، لا حصر لها، إذ كل ما سوى الله دليل على وجوده، ويمكننا تنظيمها في دليلين عقليين رئيسين، دل عليهما قول الله -تعالى- على لسان موسى وهو يجادل فرعون ويدعوه إلى الله، ولما سأله فرعون مستغرباً أن يكون ثمة رب غيره فقال موسى -عليه الصلاة والسلام-:

(قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ) (طه: 50).

فهما: دليل الخلق، أو الإبداع، أو الحدوث، ودليل التنظيم، أو العناية، أو الهداية، ويضم كل واحد منهما عدداً من الظواهر والأدلة الفرعية الكونية مما يصعب حصره، وإليك شرحاً موجزاً لهما:

1.2.2 دليل الخلق، أو الإبداع، أو الحدوث، أو السببية

ومفهوم هذا الدليل يركز على ما في الكون من مخلوقات لم تخلق نفسها، وإنما نشأت وحدثت، وأن وراء حدوثها، وخلقها، وحركتها سبباً خارجاً عنها، وهذا السبب لا يمكن أن يكون من طبيعة وجودها، فهو متميز بوجود أزلي قديم وقد نشأت عنه هذه المخلوقات، وأن له علماً وحكمة وقدرة وإرادة خلقت ونوعت، وأعطت كل شيء خلقته ما هو عليه.

وقد أشار القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى هذا الدليل، من خلال إثارته النظر والفكر والعقل إلى الكون وما فيه من إنسان وحيوان، وشجر وحجر، وسماء وأرض، وسهل وجبل، وأنه لا يمكن لهذه الكائنات أن تكون بغير سبب، ولا أن توجد بغير خالق. ولنقرأ بعض الآيات في هذا الاتجاه:

قال الله -تعالى-: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) (إبراهيم: 19).

(نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ) (الواقعة: 57-72).

ويوجه القرآن نظرنا إلى كيفية خلقنا، وأن هذا التفكر والنظر يدلنا على الله الخالق، ولذلك ينعي القرآن على المشركين موقفهم، يقول الله -تعالى-:

(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ) (الأنعام: 1-2).

(وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ) (الروم: 20).

وتغيُّر الأشياء من حال إلى حال دليل على عدم تغيرها بنفسها، فهي لم تخلق نفسها ولا قوة فيها لتغير نفسها، فالمتغير لا يغير وهو محتاج فكما أن الحدوث علامة الاحتياج إلى محدث، فكذا التغير علامة الإمكان أو الحاجة إلى مغير، ولهذا فقد استدل إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- على فساد معتقدات قومه الذين كانوا يعبدون الأفلاك، فالأفلاك متغيرة، والمتغيرة لا تصلح أن تكون إلهاً، فالله الخالق هو الذي يغير ولا يتغير، ويُحدِث ولا يَحدث، ويَخلُقُ ولا يُخلَق. قال الله -تعالى- يصور جدال إبراهيم مع قومه:

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) (الأنعام: 76-79).

وهذا الدليل هو الذي اعتمد عليه أبو حنيفة في نقاشه مع الزنادقة الذي أنكروا وجود الله -تعالى-، فعقد لهم موعداً، ولما حان الموعد، تأخر عنهم وهم ينتظرون. ثم قدم إليهم بعد أن يئسوا من مجيئه، فعاتبوه في التأخر فقال لهم معتذراً: لقد قدمت إليكم في الموعد المحدد، ولكنني لبثت طويلاً على شاطىء دجلة باحثاً عن صاحب زورق يجتاز بي النهر، فما وجدت. ولما يئست وهممت بالرجوع رأيت ألواحاً من الخشب قادمة بنفسها، وجعلت تنضم إلى بعضها حتى صارت بين يدي زورقاً حسناً، فركبته، وقطعت به النهر، وقدمت إليكم الآن! فقال الزنادقة جميعاً لأبي حنيفة: أتهزأ بنا؟ وهل يمكن لألواح من الخشب أن تأتي بنفسها كما وصفت لتكون زورقاً! فقال لهم: هذا ما اجتمعتم لتجادلوني به، فإذا كنتم لا تصدقون أن زورقاً يصنع نفسه بنفسه، فكيف تصدق عقولكم وتريدون مني أن أصدق أن هذا الكون المتقن العجيب قد جرت حوادث تغيراته بنفسه بدون خالق عظيم؟ فبهت الزنادقة، وقامت عليهم الحجة الدامغة، وأسلموا على يده. (الميداني: العقيدة

الإسلامية وأسسها، 1979م، ص142، الحكمي، معارج القبول، 1366 هـ، ج1، ص69).

فانظر أخي الدارس حصافة أبي حنيفة في هذا الاستدلال العملي، وكيف كان مقنعاً للكفار، وبمنتهى البساطة.

وانظر معي في هذه الآيات الكريمة، الفائضة بالحياة، وهي تدفعنا للنظر في آيات الله -تعالى- في الفضائل والأنواع، والإصباح والإمساء، والنجوم والظلمات، في البر والبحر، والماء النازل من السماء، والزرع النامي، والثمر اليانع حيث تتجلى عظمة الخالق -سبحانه-، الموجد للأشياء، والمبدع لها، والمغير لها من حال إلى حال بحكمته وقدرته وإرادته:

(إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ

كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾

(الأنعام: 95-104).

خلاصة هذه الآيات: أن الموجودات لا بد لها من مُوجد، وأن الممكن لا يترجح وجوده على عدمه بغير مرجح، وأن الحادث لا بد له من مُحدث. وأن هذا المحدث والموجد أو المرجح أو السبب لا يصح أن يكون حادثاً وإلا لأدى إلى باطل عقلي إما الدور وهو أن يتوقف وجود الخالق على المخلوق ووجود المخلوق متوقف على وجود الخالق، وهذا دوران في حلقة مفرغة يرفضه منطق العقل. وإما أن يتسلسل وجود الخالق إلى ما لا نهاية له في الزمان الماضي، فكل خالق مخلوق لما سبقه إلى ما لا نهاية... وهذا باطل أيضاً بمنطق العقل، إذ لا يصح أن يكون المخلوق خالقاً في آن واحد إلى ما لا نهاية، بل لا بد من التوقف عند خالق ليس بمخلوق.

ويعرف هذا الدليل بدليل الحدوث عند المتكلمين أو علماء الكلام، وهو على النحو التالي:

العالم حادث، وكل حادث لا بد له من مُحْدِث إذاً فالعالم لا بد له من محدث. وهذا يقتضي إثبات حدوث العالم. والعالم عندهم هو كل ما سوى الله -تعالى-. والدليل على حدوث العالم ما نشاهده من التغير والحركة في مفرداته وهذا التغير عرض يلم بحقيقة الشيء ولا ينفك عنها، إذن فالشيء حادث؛ لأن أعراضه حادثة بالمشاهدة، وما لا ينفك عن الحوادث فهو حادث فحقيقة الشيء حادثة، والعالم مركب من حقيقة الأشياء وأعراضها، وكلاهما حادث والمتركب من الحوادث حادث فالعالم إذاً حادث. وهذا الحادث لا يصح أن يكون قد حدث بنفسه، ولا أن الذي جاء بعده أحدثه، فلا بد أن يكون الذي أحدثه أسبق منه، وكما قلنا قبل قليل: هذا الذي أحدثه سابق لوجوده لا بد أن خالقاً مُحدَثاً وليس مخلوقاً محدثاً.

ربما وجدت - أخي الدارس-، في نفسك علي قليلاً، في صعوبة أسلوب دليل الحدوث، وخصوصاً بعد أن كنا نتحدث بأسلوب عرض القرآن لهذا الدليل. فأرجو أن تتوقف قليلاً، وتنظم أفكارك، وتعيد قراءة دليل الحدوث، فهو دليل تجريدي سهلته لك ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وأحببت ألا أمر عليه بدون ذكره؛ لأنك ستقرؤه كثيراً في كتب المتكلمين، فلا بد أن تكون لك به عناية سابقة.

2.2.2 دليل التنظيم أو العناية، أو الإتقان، أو الهداية

وهو الدليل الثاني من أدلة وجود الله - تعالى- المستمد من قوله -تعالى- (ثُمَّ هَدَىٰ). ويركز هذا الدليل على عظمة الخالق -سبحانه- في تنظيم الكون والعناية به، وإتقانه وهدايته، بحيث يؤدي كل مخلوق فيه الغرض من خلقه، وتتناسق حركته وحركة الموجودات الأخرى، بما يجعل للكون رونقاً رائعاً، وعملاً منتظماً وأدواراً متكاملة متناسقة. وإلا لاختل نظام الكون بما فيه ومن فيه. فهذا الكون الرائع، المنتظم، المتناسق، المتقن، المهتدي يدل دلالة قاطعة على أن له خالقاً حكيماً عليماً أحسن كل شيء خلقه، ونظمه، وسيره، فهو خالقه وهو حافظه، وكما يعبر عن هذا الدليل **الميداني** فيقول:

«إن عقولنا متى لاحظت مركباً على وجه الإتقان والحكمة، فإنها لا شك تفرض بداهة أن متقناً ما، حياً، عالماً، قادراً، حكيماً، قد أتقن ترتيبه. كما أنها ترفض رفضاً قطعياً أن يكون ترتيبه قد جاء على طريقة المصادفة؛ لأن صورة الإتقان على سبيل المصادفة في المركبات ذات الأعداد الكبيرة من المستحيلات في مألوف العقلاء، كما أنها من المستحيلات في نظر الحسَّاب الرياضيين» (الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، 1979، 147-148).

وقد لفت القرآن الكريم نظرنا في آيات كثيرة إلى هذا الدليل منها: قوله -تعالى-:

(أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا) (النبأ:6-16).

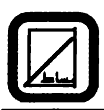
(سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ

يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ) (يس: 36-42).

(أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ) (ق: 6-11).

(وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ) (النمل: 88).

(وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ) (النحل: 65-69).



نشاط (2)

أخي الدارس: بعد أن لخصنا لك هذه الأدلة على وجود الخالق أنصحك بضرورة قراءة أحد الكتابين التاليين:

1. (الله يتجلى في عصر العلم): وهو تأليف نخبة من العلماء الأميركيين. ترجمة د. الدمرداش عبد المجيد سرحان. طبعة الحلبي وشركاه سنة 1960م، 61، 68. القاهرة، وهو كتاب قيم يضم ثلاثين مقالة لثلاثين عالماً من كبار العلماء في الاختصاصات العلمية والكونية السائدة، وكلها أدلة على وجود الله الخالق –سبحانه–. وبذا تكمل الموضوع وتضم إلى ثقافتك ثقافة علمية رائعة تناقش بها الملحدين، وتزداد بها يقيناً بعظمة الخالق – سبحانه–.
2. كتاب (الله جل جلاله): وهو كتاب جمع فيه مؤلفه الشيخ سعيد حوى – رحمه الله– أدلة كونية ونظمها في تسع ظواهر. الطبعة الثانية (طبعة دار العلم، دمشق 1975م، ص5– 140).

ويمكنك تلخيص أحد الكتابين في ما لا يتجاوز عشرين صفحة واعرضه على المشرف.

أخي الدارس: أظن أنك بعد قراءتك لهذا القسم من الوحدة، أدركت معي ضرورة أن نبدأ بالحديث عن أدلة وجود الله –تعالى– بين يدي الحديث عن توحيده. وأظنك أصبحت قادراً على الاستدلال على وجود الله –تعالى–. وأصبح بإمكانك إجابة بعض الأسئلة.



أسئلة التقويم الذاتي (1)

1. هل ترى ضرورة لبحث أدلة وجود الله –تعالى–؟ علل.
2. مثّل لكل دليل من الأدلة الرئيسة على وجود الله –تعالى–.
3. أنظم دليل الحدوث عند المتكلمين.

وبهذا – أخي الدارس– نستطيع أن ننتقل الآن إلى القسم الآخر من وحدة توحيد الله – تعالى–، وهو الموضوع الرئيس للوحدة؛ لنتبين فيها معنى التوحيد وأدلته والفرق بينه، وبين الشرك، وآثار هذا التوحيد في حياة المسلم.

3. التوحيد: معناه وأدلته وآثاره

يتناول هذا القسم من الوحدة معنى التوحيد والفرق بينه وبين الشرك كما يتناول أدلة التوحيد وآثاره في حياة المسلم.

1.3 معنى التوحيد والفرق بينه وبين الشرك

1.1.3 معنى التوحيد

معناه إفراد الله – تعالى- بالوجود الأزلي والأبدي وإفـراده باسـتحقاق الربوبيـة والألوهية وحده بلا شريك، أي أن الله – تعالى- متفرد بالوحدانية فـي ذاتـه وأسـمائه وصفاته وأفعاله، لا يشاركه فيها أحد مما سواه.

وهذا المعنى كما ترى فيما يخص ذاته – سبحانه- بالوجود، وهو معنـى قولـه – تعالى-:

(قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤) (الإخلاص: 1-4).

والتوحيد الذي هو عقيدة يدين بها المسلم: هو إفراد الله بالألوهية، أو الإيمان بالله – تعالى- رباً واحداً اعتقاداً وعملاً، وذلك اعترافاً من العبد فيشهد أن لا إله إلا الله وعمـلاً بمقتضاها بإفراده – سبحانه- باستحقاق الألوهية وحده وذلك بالأخذ منه وحـده وعبادتـه وحده في المشاعر والشعائر التعبدية وشرائع الحياة. وهذا التوحيد مهم جداً في بناء العقيدة الإسلامية، وفي بناء الأمة المسلمة. وقد نزل القرآن الكريم خاتمـاً للرسـالات السـابقة ويحمل أساسها جميعها في الدعوة إلى عقيدة التوحيد الداعية إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قال – تعالى-:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (الأعراف: 59).

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، فسورة الفاتحة وهي السبع المثاني كلهـا في التوحيد، فـ(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) توحيد لأنه شكر لله –تعالى- بما هـو رب مستحق للشكر، (ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) توحيد وتمجيد بثبوت أسمائه الحسنى وصفاته

العليا ومنها الرحمة، (مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ) توحيد، فهي ثناء على الله -تعالى- بإثبات ملكه للآخرة ويوم الجزاء كما هو مالك للدنيا. (إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ) توحيد بإعلان العبد استحقاق الرب وحده بالعبادة والاستعانة، فالعبادة له وحده لا شريك له، والاستعانة به وحده لا شريك له، و(ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ) توحيد لأنها طلب من الله وحده لا شريك له، (صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ) توحيد متضمن سؤال الهداية لطريق أهل التوحيد بعيداً عن طريق أهل الشرك والضلال الذين فارقوا التوحيد.

وإذا رجعنا إلى تفصيل انفراد الله - تعالى- بالوحدانية فمعنى ذلك أن ذاته - تعالى- "واحدة لا تتعدد ولا تتبعض ولا تندمج معها ذوات أخرى، ولا تتلبس بها صورة من صور الاندماج. ومن وحدانية الذات وتفردها بهذه الصفات تتضح وحدانية الفاعلية والتأثير في الكون وما فيه ومن فيه؛ وحدانية الخلق والإنشاء، ووحدانية الملك والرزق، والقوامة والتدبير، ووحدانية الهيمنة والسلطان في الدنيا والآخرة سواء" (سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، 1986م ص234). فذاته -تعالى- متفردة في الوجود، متفردة في الصفات التي لا نظير لها و لا شبيه، متفردة في الأسماء الحسنى، فهو وحده كان ولم يكن شيء معه ولا شيء قبله ولا شيء بعده فهو الأول والآخر، وهو -سبحانه- الخالق القادر القاهر فوق عباده، فعال لما يريد، مطلق المشيئة والإرادة بلا حدود ولا قيود، وهو الله الحكم وحده في السماء والارض، وفي الدنيا والآخرة، لا معقب لحكمه، وليس معه شريك، وهو وحده المحيي المميت، الرزاق العالم المحيط المتفرد بالعلم والإحاطة، والملك والمؤمن والمهيمن والعزيز الجبار المتكبر. ولهذا إذا شهد العبد المؤمن بشهادة أن لا إله إلا الله كانت هذه المعاني وغيرها من معاني الألوهية حاضرة في هذه العقيدة، ولا بد لمن يشهد هذه الشهادة من شروط حتى ينتفع بها:

1- العلم المنافي للجهل، ومراتبه: (الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية، 1385هـ، ص27).

أ- المعرفة بصحة الاعتقاد وبصحة المشهود به وثبوته، فالموحد هو من يشهد بصحة التوحيد كما قال - تعالى-:

(شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: 18).

ب- مرتبة التكلم والخبر وذلك بإعلان الشهادة، فلا بد للموحد من التكلم بالتوحيد بلسانه إقراراً واعترافاً بعد اعتقاده بقلبه، وجعل هذا التلفظ دليلاً على إيمانه وشرطاً لإجراء أحكام الإسلام عليه.

ج- مرتبة الالتزام أي الالتزام بالأوامر المرتبة على ما شهد به المسلم بصحته، قال - تعالى-: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (آل عمران:18).

2. اليقين: وذلك بأن يكون قائلها مستيقناً بها لا يداخله شك، قال الله - عز وجل-:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ (الحجرات:15).

3. القبول: وذلك بأن يكون قائلها قابلاً لمقتضيات هذه الشهادة بقلبه ولسانه، ولذلك توعد الذين لم يتقبلوها بالقبول فقال - تعالى-:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الصافات:35).

4. الانقياد: وهو الاستسلام لمقتضيات لا إله إلا الله، قال -تعالى-:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ (النساء:65).

5. الصدق: وهو أن يشهد بها صدقاً، قال - تعالى-:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (العنكبوت:1-3).

6. الإخلاص: وهو تطهير الشهادة قولاً عملاً من شوائب الشرك والرياء قال - تعالى-:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ (البينة:5).

7. المحبة: أي محبة هذه الشهادة ومحبة مقتضياتها وأهلها العاملين بها. قال – تعالى-:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (البقرة:165).

﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ (ص:32).

2.1.3 مظاهر التوحيد

إن العبد إذا أعلن توحيد الله – تعالى-، وشهد أن لا إله إلا الله، فإن هذا التوحيد لا يبقى شيئاً محبوساً في نفسه مجرد قناعة من فكرة، وإنما له مظاهر ومقتضيات في واقع الحياة، ومن مظاهر هذا التوحيد ومقتضياته:

(1) إسناد كلّ شيء إلى الله –تعالي- خلقاً وتدبيراً.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ (آل عمران: 26-27).

(2) التوجه له وحده بالإخلاص والقصد في كل ما يفعله العبد كما قال – تعالى-:

﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ (الانعام: 162-163).

(3) الولاء لله وحده والبراء من كل ما سواه، قال – تعالى-:

﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا

يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) (الأنعام: 14).

وكما قال –تعالى–:

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ) (الممتحنة: 4).

ومن الولاء لله سبحانه عدم مودة الكفار كما قال سبحانه:

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ) (الممتحنة: 1).

(4) عبادة الله – تعالى– وحده لا شريك له، وذلك بأن يعبد الله كما شرع ويخلص له في هذه العبادة. قال – تعالى–:

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة: 21–22).

وعبادة الله – تعالى– أمر جامع لكل مشاعر العبد وشعائره التي يقدمها لله وحده وشرائعه التي يأخذها من الله وحده ولذلك تتعدد مظاهر هذا التوحيد بتعدد مظاهر العبادة لله وحده:

(أ) ففي مجال المشاعر: يكون العبد خوفه ورهبته من الله وحده ورجاؤه ورغبته في الله وحده، وتوكله على الله وحده، وحبه لله وفي الله، وغضبه لله وفي الله، وخشيته من الله، وإنابته إلى الله، واستعاذته بالله، واستعانته بالله واستغاثته بالله، فكل هذه المشاعر إنما هي عبادة لله وتوحيد لله. وإليك -أخي الدارس- الآيات الدالة على مظاهر التوحيد في المشاعر:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ) (الرحمن: 46).

(فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (آل عمران: 175).

(وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ) (الاسراء: 57).

(وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (المائدة: 23).

(إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ) (يونس: 84).

(وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) (هود: 88).

(وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ) (ال عمران: 173).

(فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا) (الكهف: 110).

(فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى) (البقرة: 150).

(وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ) (الزمر: 54).

(فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ) (ص: 24).

(وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ) (المؤمنون: 97-98).

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (الفاتحة:4).

(إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ) (الأنفال: 9).

(ب) وفي مجال الشعائر: العبد يقوم بالعبادات لله وحده لا شريك من صلاة وصيام وزكاة وحج وجهاد وذبح ونذر ودعاء وذكر كما قال – تعالى-:

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ) (الكوثر: 2).

(وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ) (الحج: 36).

(وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥ) (البقـــــرة:270).

(تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ) (الصف: 11).

(قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ) (الإسراء: 110).

(وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ) (المؤمنون: 117).

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ) (غافر: 60).

(قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ) (آل عمران:31).

(ج) وفي مجال الشرائع: فالعبد يفرد الله -تعالى- وحده بالحاكمية، فهو – سبحانه- لـه الخلق وله الأمر، فلا يأتمر إلا بأمره، ولا يقر بشرع غير شرعه. قال الله – تعالى-:

(إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ) (يوسف: 40).

(وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ) (المائدة:47).

(وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ) (المائدة:45).

(وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ) (المائدة:44).

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا) (النساء:65).

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا) (الأحزاب:36).

3.1.3 الفرق بين التوحيد والشرك

عرفت – أخي الدارس- معنى التوحيد ومظاهره، وأنه لا يضاد التوحيد إلا الشرك، فكما أن التوحيد إفراد الله -تعالى- بالربوبية والألوهية والعبادة، فالشرك إشراك ما سوى الله مع الله في أي أمر من أمور الربوبية أو الألوهية أو العبودية، أو إعطاء سوى الله ما لله من حق في الخلق أو الأمر أو عبادة ما سوى الله في الطريق إلى الله –سبحانه-. ولا يكفي لمقام التوحيد أن يؤمن العبد بمجرد وجود الرب – سبحانه-، وأنه خالق كل شيء، حتى يوحده في ألوهيته وفي أسمائه وصفاته ويجرد هذا التوحيد من كل شائبة من شوائب الشرك، ولهذا وصف الله -تعالى- أولئك الذين يشركون غير الله في ما هو لله من خصائص الألوهية بأنهم مشركون وإن كانوا يؤمنون بوجود الله -سبحانه-، قال الله – تعالى-:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ) (يوسف:106).

قال الإمام مجاهد في تفسير هذه الآية:

«إيمانهم بالله قولهم إنّ الله خلقنا و يرزقنا ويميتنا فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره» (الطبري. ج16ص287).

قال الله – تعالى-:

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) (البقرة:165).

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ) (الزمر:3).

(وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ) (يونس:106).

وليتضح مفهوم التوحيد من مفهوم الشرك، فإننا نقدم لك أهم مظاهر الشرك –كما سبق أن شرحنا لك أهم مظاهر التوحيد.

4.1.3 مظاهر الشرك

كل ما يناقض مظاهر التوحيد يعد من مظاهر للشرك.

(1) القول والاعتقاد بأن ما سوى الله من مخلوقاته، بشراً أو حجراً أو صنماً، رب أو إله، أو يتقرب إليه مع الله أو من دون الله أو في الطريق إلى الله –سبحانه–. ويدخل في هذا الشرك كل طوائف الكفار من عبدة الأصنام والقائلين بإله للخير، وإله للشر، وإله للنور، وإله للظلمة، والقائلين بأن لله ابناً أو القائلين بالتثليث، والذين يعبدون الملائكة زاعمين أنها بنات الله، والذين يجعلون لما سوى الله في الكون تأثيراً من المنجمين وعبدة الأفلاك والمظاهر الطبيعية. فمن جعل لله مثلاً أو نداً أو ضداً فهو مشرك.
وإليك الآيات الكريمة في بيان هذا المظهر من مظاهر الشرك. قال الله – تعالى–:

(لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ) (المائدة:72).

(فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ

ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ) (الحج: 30-31).

(وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (الأعراف: 180).

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ) (البقرة: 165).

(لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (المائدة: 73).

(قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) (الشعراء: 96- 98).

(وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) (التوبة: 30).

وقال -تعالى- على لسان فرعون

(فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) (النازعات:24).

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى) (القصص:38).

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ) (غافر:36-37).

(وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ) (الأنعام: 100).

(وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا) (الزخرف:19).

(2) نفي شهادة أن لا إله إلا الله أو الاعتقاد بنقيض معناها، ونقيض معناها نفي استحقاق الخالق، لأن يعبد بأي نوع من أنواع العبادة، أو إثبات هذا الاستحقاق لأي مخلوق من مخلوقات الله –سبحانه وتعالى–. (ياسين: الإيمان1985 ص239) ولهذا فالشهادة لغير الله بأي مظهر من مظاهر التوحيد التي هي لله، شرك بالله –تعالى–. قال –تعالى–:

(قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) (الانعام:19).

(3) إعلان الولاء لغير الله –تعالى–، أو مع الله –تعالى– شرك، قال –تعالى–:

(قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) (الأنعام: 14).

وبالتالي فمن والى غير الله أو أحبه وأطاعه على حساب ترك الولاء لله أو شركه مع الله –تعالى– فهو مشرك.

(4) عبادة غير الله –تعالى– في أي صورة من صورها مظهر من مظاهر الشرك؛ فمن خاف غير الله ورجا غير الله وتوكل على غير الله وأحب غير الله من دون الله، ومن توجه لغير الله بعبادة من صوم أو صلاة أو زكاة أو حج أو جهاد أو دعاء أو نذر أو ذبح، ومن اقتحم حدود الله –تعالى– بإعلان الحاكمية لغيره –سبحانه– واعتقد بأن حكم غير الله فيه الصلاح فهو مشرك. ومن اغتصب أخص خصائص الألوهية وهي الأحقية بالأمر والحاكمية فهو مشرك. ومن أطاع شرع غير الله عن رضا نفس وطواعية وإرادة فهو مشرك. قال –تعالى–:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا

تَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا) (النساء: 65).

(قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ) (آل عمران:64).

(وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ) (يونس:18).

(وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ) (النحل:51-55).

؟

أسئلة التقويم الذاتي (2)

1. ما لوازم شهادة أن لا إله إلا الله؟
2. قارن بين التوحيد والشرك في جدولين متقابلين.
3. هات آية واحدة على كل من: توحيد الله في كل من: المشاعر، الشعائر، والشرائع.

2.3 أدلة التوحيد

عرفت -أخي الدارس- معنى التوحيد ومظاهره، ومعنى الشرك ومظاهره. وأيقنت بضرورة التوحيد وأحقيته، وببطلان الشرك. فلو جاءك شخص يؤمن بوجود الله -تعالى-، لكنه لا يؤمن بوحدانيته، فهل تستطيع أن تثبت له وحدانية الله -تعالى-؟ وهل أنت قـــادر

على إقناعه؟ أظنك تشاركني الرأي في ضرورة معرفة أدلة التوحيد، أو أدلة وحدانية الله -تعالى-، وبهذا نزداد يقيناً ونكون قادرين على رد شبهات المشركين. والأدلة منها ما هو نقلي ومنها ما هو عقلي. ونحن نستدل هنا بالأدلة الشرعية وإن كان الخصم لا يؤمن بها، لأننا نستدل بما تتضمنه هذه الأدلة من خطاب للعقل، لا من جهة كونها شرعية أي من الله فنلزم الخصم الكافر بقبولها والتسليم بها؛ لأنه لا يؤمن بما هو أسبق منها وهي وحدانية الله -تعالى- فكيف نلزمه بها؟ ولذا فلا مناص من الاستدلال بها من جهة كونها عقلية تخاطب العقل وتلفت نظره، ولكن ميزة الاستدلال بها أنها أقرب في مخاطبة الفطرة والعقل لأنها من الله -سبحانه- والعقل مخلوق لله -سبحانه-، وليس أحسن من أن يخاطب منهج الله خلق الله. ولنبدأ -إذاً- استدلالنا الشرعي أولاً ثم نأتي إلى الاستدلال العقلي ثانياً.

1.2.3 أدلة التوحيد النقلية -الشرعية

نستطيع أن نقول: إن منهج القرآن في الاستدلال لم يفرق كثيراً بين الاستدلال على قضية وجود الله -تعالى- وقضية وحدانيته؛ لأن مشكلة البشرية ليست في إنكار وجود الله قدر ما هي في الإشرك بالله، ومن هنا كانت أدلة التوحيد كثيرة، وكل أدلة وجود الله -تعالى- هي أدلة توحيده. وقد خاض القرآن معركته الكبرى مع المشركين أكثر منها مع المنكرين. فإن الذي يؤمن بوحدانية الله -تعالى- يؤمن بوجوده ضرورة، لكن بعض الكفار كان يؤمن بوجوده -تعالى- وأنه خالق رازق مدبر، ولكنه لا يؤمن بألوهيته الواحدة في الأمر كما قال -سبحانه-:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ) (يوسف: 106).

ولنأت الآن إلى بعض من هذه الأدلة المباشرة على التوحيد، ولنجعلها في مجموعات:

(1) مجموعة من الآيات تخاطب الإنسان وتدعوه للنظر في خلق السموات والأرض وإنبات الحدائق، وجعل الأرض قراراً، وجريان الأنهار فيها، ونصب الجبال، أي ما في الكون من خلق ونظام ودقة، وأن هذا كله لا يمكن أن يكون صادراً إلا عن إله، وأنّ هذا الإله لا يمكن إلا أن يكون واحداً، وإلا لما انتظم أمر هذه المخلوقات بتنوعاتها وتناسقاتها. يقول الله -تعالى-:

(قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ) (النمل: 59-61).

(2) مجموعة تثير النظر إلى ضرورة توحيد الذات الإلهية وتفردها بصفاتها من خلال ظواهر الخلق والإحياء والكفالة والرزق، والتدبير والقوامة، والعلم والإحاطة، والهيمنة والسلطان، والبعث والجزاء، ومن ثم إفراد صاحب هذه الخصائص بالألوهية بلا شريك أي إفراده بالتوحيد أو الوحدانية منها قوله -تعالى-:

(ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ) (الأنعام:1-3).

(ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ) (الرعد: 2-3).

(مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ) (فاطر: 2-3).

(أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ) (الملك: 20-21).

(3) مجموعة تثير الفطرة في حاجتها إلى من يكشف عنها الضر عند الشدة، أو يهديها عند التيه، أو يحتاج إلى رحمة الله، من ذلك قوله -تعالى-:

(أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (النمل: 62- 63).

(قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ) (الأنعام: 63-64).

(﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ) (النمل: 64).

(4) مجموعة تستنكر على الإنسان أن يدعي لله شريكاً من ولد أو والد أو كفو أو مثل أو ند من جن وإنس وملائكة وغير ذلك، فإذا بطل هذا الإدعاء لم يبق إلا تفرد الله -تعالى- بالوحدانية. من هذه الآيات قوله -تعالى-:

(قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾) (الإخلاص: 1-4).

(وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ

لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (الأنعام: 100-102).

(فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ) (الصافات: 149-154).

(وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ) (النحل: 20-23).

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ) (الحج: 73).

(5) مجموعة من الآيات لها منطق برهاني قاطع على ضرورة التوحيد باستحالة التعدد عقلاً وواقعاً، من خلال النظر في رفض العقل لفكرة الشركة في الصنعة الواحدة وانتظام أمرها وذلك كما يلي: قال الله -تعالى-:

(لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ) (الأنبياء: 22-24).

(مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (المؤمنون: 91-92).

(ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا) (الإسراء: 39-43).

2.2.3 أدلة التوحيد العقلية

نظم علماء التوحيد أدلة عقلية أو منطقية في نقاشهم مع المشركين والفلاسفة، ولذلك تأثروا بالصياغة المنطقية. وتأثروا كذلك في تعريف الوحدانية، فقالوا عنها إنها نفي الكم المتصل والكم المنفصل، ولذلك صاغوا الأدلة بما ينفي الكم أي التعدد المتصل والمنفصل، أي أنه - تبارك وتعالى- لا يتركب من أجزاء -وهذا نفي الكم المتصل- وأنه لا مثيل له ولا ند وله ضدّ ولا كفو -وهذا يعني نفي الكم المنفصل-. وإليك الصياغات المنطقية لهذه الأدلة العقلية على التوحيد:

(1) لو كان الله -تعالى- مؤلفاً من أجزاء لكان كل جزء قائماً بنفسه حياً عالماً قادراً، وذلك تصريح بإثبات إلهين، وإثبات إلهين باطل عقلاً فبطل ما أدى إليه وثبت نقيضه، وهو الوحدانية بنفي الكم المتصل عن الله -تعالى- كما أنه لو كانت ذاته مركبة من أجزاء للزم احتياج كل جزء إلى الآخر، ولتوقف وجوده على من يركبه، والباري - سبحانه- غير محتاج؛ لأن الاحتياج علامة الإمكان والخالق -سبحانه- واجب الوجود، وليس بممكن (الجويني: الإرشاد 1985م، ص69).

(2) وقد أفاد علماء التوحيد من الأدلة القرآنية البرهانية في نفي التعدد وإثبات الألوهية،

وصاغوا ما يسمونه دليل التمانع أو المُمانعة المستنبط من قوله –تعالى–: (لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا) (الأنبياء: 22). وذلك على النحو التالي:

لو تعدد الإله لم يوجد العالم لكن العالم موجود فبطل ما أدى إليه وثبت نقيضه، وهو الوحدانية.

وبيان هذا الدليل العقلي:

أنه لو قدرنا للعالم إلهين صانعين كاملين مستكملين لشرائط القدرة والإرادة، فالاحتمالات العقلية لا تخرج عما يلي: فإنهما إما أن يتفقا وإما أن يختلفا – فإن اتفقا على خلق شيء أو إعدامه؛ فإما أن تسبق قدرة أحدهما وإرادته قدرة الآخر وإرادته أو لا: فإن سبق أحدهما الآخر إلى الخلق، فالسابق هو الإله والآخر المسبوق عاجز لا يصلح أن يكون إلهاً.

وإن لم يسبق أحدهما الآخر فتوجها إلى الخلق معاً لأدى ذلك إلى أن يكون المخلوق الواحد مخلوقين، وهذا باطل بالمشاهدة، ولأدى إلى وقوع المقدور بين قادرين، أو المخلوق الواحد بين خالقين وهذا باطل عقلاً، وافتراض أن يخلق أحدهما نصف المخلوق ويخلق الإله الآخر النصف الآخر، يؤدي إلى عجز كل منهما؛ لأن الخالق الكامل القادر هو الذي يخلق مخلوقه كاملاً بدون الحاجة إلى الآخر، فضلاً عن أن انتظام أمر المخلوق يدل على أن خالقه واحد، وإلا لو كان له خالقان لم ينتظم أمره. وبالتالي فإن اتفاقهما مستحيل، ومن ثم فلا مجال للقول إلا بالوحدانية.

ولم يبق معنا سوى الاحتمال الآخر وهو أن يختلفا، فهذا يخلق وذاك يعدم، وبالتالي لو حصل هذا لم يوجد العالم ولفسد أمره خلقاً ونظاماً، وكون العالم موجوداً بالمشاهدة دليل على أن الذي نفذت إرادته وقدرته واحد، وأنه لا يملك غيره أن يمنع إرادته وقوته، وبهذا يثبت عجز ما سوى الله عن الخلق والإعدام أي عن أن يكون إلهاً، وتثبت وحدانية الله –تعالى–. (الجويني: الإرشاد1985م، ص69– 75)، (الصابوني: البداية 1969م، ص39–43) بتصرف.

(3) وإليك دليلاً عقلياً آخر مستمداً من قوله –تعالى–:

(مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) (المؤمنون:91).

كما ينظمه بن أبي العز الحنفي:

«لو كان معه – سبحانه- إله آخر يشركه في ملكه، لكان له خلق وفعل. وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة. بل إن قدر على قهر ذلك الشريك، وتفرد بالملك دونه والإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق كما ينفرد ملوك الدنيا، بعضهم عن بعض بملكه، إذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه، فلا بد من أحد ثلاثة أمور:

- إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه.
- وإما أن يعلو بعضهم على بعض.
- وإما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء، ولا يتصرفون فيه -بل يكون وحده هو الإله، وهم العبيد المربوبون المقهورون من كل وجه، وانتظام أمر العالم وإحكام أمره، من أدل دليل على أن مدبره إله واحد، وملك واحد، ورب واحد لا إله للخلق غيره، ورب واحد لا إله للخلق غيره، ولا رب لهم سواه... فالعلم بأن وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته، مستقر في الفطر معلوم بصريح العقل بطلانه، هكذا تبطل إلهية اثنين. فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واستقر في الفطر من توحيد الربوبية، دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الألوهية» (ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية. 1365هـ ص24).

؟

أسئلة التقويم الذاتي (3)

بعد قراءة هذا القسم من التوحيد، أظنك أصبحت قادراً على إجابة الأسئلة التالية:

1. أكمل العبارة التالية: نستدل بقوله -تعالى- (الآية.........) على أن بعض الكفار يؤمنون بالله رباً، ويشركون به في ألوهيته غيره.
2. هات دليلين شرعيين على ضرورة الإيمان بتوحيد الله -تعالى-.
3. انظم دليلاً عقلياً على ضرورة التوحيد من قوله -تعالى- (أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ) (الانعام: 101).
4. اشرح دليل الممانعة على وحدانية الله -تعالى-.



تدريب (1)

أخي الدارس، ما الفرق بين الأدلة النقلية والعقلية؟ وهل نستدل بالأدلة النقلية في نقاشنا للملحدين؟ وضح ذلك وأعط مثالاً على ما تقول.

3.3 آثار التوحيد في حياة المسلم

إن القضية الكبرى التي جاء القرآن ليعالجها في حياة البشرية هي قضية التوحيد، التي يقوم عليها نظام الحياة بأكملها. وقد كانت هي القضية الكبرى التي نالت موضع اهتمام كل الرسالات السماوية السابقة. ولقد عرف العرب المخاطبون "بلا إله إلا الله" معنى هذه الكلمة، وما يمكن أن يكون لها من آثار في حياتهم وحياة الناس، ذلك أنها تريد أن تنزع كل سلطان يزاوله المعتدون على سلطان الله؛ من سلطان على الضمائر والمشاعر وسلطان على الشعائر والشرائع. ولذلك خاض القرآن معركته مع الجاهلية بتعريف الناس بربهم -سبحانه- وبوحدانيته في ربوبيته وفي ألوهيته، وفي أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فهو الله الخالق، الرازق، مالك الملك، صاحب القدرة والقهر والسلطان، العليم الخبير، علام الغيوب والأسرار، يقلب الليل والنهار كما يقلب القلوب والأبصار، المستحق للعبادة وحده، له الحكم في الدنيا والآخرة سريع الحساب، المنتقم الجبار. وبالتالي فالتوحيد ثورة على الشرك بكل صوره وأشكاله. ومن ثم كانت مظاهر التوحيد تطفىء مظاهر الشرك.

ولهذا التوحيد آثار في حياة المسلمين منها:

(1) معرفة الإنسان لربه بأسمائه الحسني وصفاته العليا تجعله متحرراً من الخرافات والأوهام وأوضار الشرك، وتحرر فطرته من تقديس ما سوى الله لتنشىء عبادة لله -تعالى- وتنزيهاً وتقديساً، يدفع العبد للخوف من الله وحده كما عرفه، وللرجاء منه وحده كما عرفه، بدل أن يقدس خرافات ويخشى من أوهام لا تضر ولا تنفع.

(2) كما أن توحيد الله - تعالى- ينشىء في العبد ولاية لله وحده يحرره من الولاء لغير الله، كما قال - سبحانه-:

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ (الأنعام: 14).

وبهذا فإن المسلم لا يرى أحداً غير الله آمراً ولا ناهياً ولا حاكماً ولا مطاعاً على الإطلاق، ويجعل حريته الذاتية تابعة لأحكامه - تعالى-. (المودودي. الإيمان. ص284).

(3) ثم إن هذا التوحيد -عقيدة وعملاً- يرفع الإنسان من حضيض الذل والهوان إلى أرفع ما يكون من منازل الأنفة والعزة. فمن لم يعرف ربه ويوحده، دليل تستعبده شهواته وطواغيت الأرض ممن لا يملكون نفعاً ولا ضراً، بل هم مخلوقات مثله محتاجة إلى من يمدها بالوجود والحياة، قال - تعالى-:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ (الأعراف: 194).

وقال عنهم:

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ (الأعراف: 197).

وكيف لا يكون عزيزاً من يؤمن بالله القوي العزيز ويعبده؟ فهو –سبحانه– يقول:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ (الذاريات: 58).

ومن ثم فإن التذلل لا يكون إلا له –سبحانه–، والتواضع لا يكون إلا للمؤمنين به:

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (المائدة: 54).

وإنما هذه نتيجة لفهمه علاقته وعلاقة سائر الموجودات في العالم بالله العلي العظيم على أمثل وجه وأكمله وأحكمه، ولذا لا تكون فيه الأنفة إلا مقترنة بالتواضع، ولا تكون فيه عزة النفس إلا متصلة بالتذلل والخضوع، يعلم أنه أعجز ما يكون أمام قوة الله (المودودي، الإيمان، ص143).

(4) إبطال الأماني الكاذبة: فعقيدة التوحيد تبطل الآمال الكاذبة التي يوسوس بها الشيطان للإنسان؛ لأن المؤمن حين يعرف ربه –سبحانه– ويتوجه إليه –سبحانه–، لا يعود يتعلق بالشفعاء والوسطاء، فكرامة المؤمن على ربه بالتقوى. إن هذه المعرفة هي التي يعرف بها الإنسان أن لا سبيل له إلى النجاة والفلاح والسعادة إلا الاعتقاد الصحيح والعمل الصالح (المودودي: الإيمان، ص144). والتقوى، أما الشفعاء من دون الله –تعالى– فلا يضرون ولا ينفعون. قال –تعالى–:

﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ (البقرة: 255).

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ (الإسراء: 111).

﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ (الحجرات: 13).

(5) إن توحيد الله –تعالى– يجعل المسلم سعيداً مطمئناً في كنف الله –تعالى–، يدعوه

وحده، ويرجوه وحده، ويستغفره وحده، وينيب إليه وحده، ويسأله وحده، ويستعين به وحده، ويستغيث به وحده، ويذكره وحده كما قال –تعالى–:

(أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ) (الرعد:28).

(إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ) (يوسف:87).

(قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا) (الزمر:53).

(6) إن توحيد المسلم لربه يجعله جريئاً شجاعاً صابراً، متوكلاً على الله –تعالى–، لا يخاف في الله لومة لائم. كما وصف الله –تعالى– أحوال المؤمنين الموحدين:

(ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ) (آل عمران:173).

(قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ) (التوبة:51).

(إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ) (التوبة:111).

(7) إن التوحيد يربي نفس المؤمن على القناعة والاستغناء، ويطهرها من الغل والحقد والحسد وينشيء مجتمعاً متحاباً واحداً. ذلك أنّ العبد حينما يستقر في أعماقه أن النفع بيد الله وحده، وأن الضر من الله وحده، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن رزقه محدود وأجله محدود، فإنه –بالتالي– لا يعتدي على أموال الناس ولا على حياتهم، فينشأ مجتمع الأمن والأمان والطمأنينة والسلام. وهذا أدعى لوحدة المجتمع وترابطه؛ لأن يقوم على الأخوة في الله وتطبيق مفاهيم هذه الأخوة القائمة على توحيد الله وعبادته. كما قال –تعالى–:

(إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الحجرات: 10).

(8) ومن آثار الإيمان بالتوحيد أن يؤمن العبد برسالة محمد ﷺ، وبما ورد في القرآن الكريم من إيمان بالملائكة والكتب والرسل والقدر خيره وشره؛ لأن توحيد الله - تعالى- يقتضي توحيد عبادته عملياً والرسالة هي التوحيد العملي. ومن ثم قرنت شهادة أن محمداً رسول الله بشهادة أن لا إله إلا الله.



أسئلة التقويم الذاتي (4)

1. التوحيد أساس التحرر. علل.
2. وضح كيف تؤثر عقيدة التوحيد في وحدة الأمة وعزتها.
3. اذكر ثلاثة آثار للتوحيد في حياة المسلم.

4. أنواع التوحيد

1.4 مقدمة

أظنك - أخي الدارس- قد استوعبت معنى التوحيد ومظاهره والفرق بينه، وبين الشرك. وأصبحت قادراً على الاستدلال على وحدانية الله -تعالى- بالأدلة العقلية والنقلية. وأدركت آثار عقيدة التوحيد في حياة المسلم. وللمزيد من استكمال عناصر بحث التوحيد نأتي إلى هذا القسم من الوحدة وهو أنواع التوحيد. وهذا التنويع إنما هو لتسهيل مهمة دراسة التوحيد. وإلا لا يفصل القرآن التوحيد إلى أنواع، ولكن درج بعض علماء التوحيد على تفصيل بحث التوحيد وتقسيمه أو تنويعه تسهيلاً لبحثه؛ فبعضهم قسمه إلى توحيدين: توحيد الإثبات والمعرفة أو التوحيد العلمي، يقابله توحيد القصد والطلب أو التوحيد العملي. وبعضهم الآخر قسمه إلى ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

ويبدو لي أن التقسيم الأول كان أدل على المقصود ذلك أن العبد يعرف ربه -سبحانه-، ثم يعبده وحده لا شريك له، ومن ثم كان التوحيد توحيد معرفة علمية أو نظرية وتوحيد عمل وعبادة.

وأما التقسيم الآخر: فتقسيم إلى توحيد ربوبية وألوهية وتوحيد أسماء وصفات فمسوّغاته أن توحيد الربوبية إنما هو إثبات مجرد وجود رب؛ ولم يكن المشركون ينكرون وجود الرب، وإنما كانوا ينكرون تفرده بالألوهية أي العبودية وحده، فكانوا يشركون به -سبحانه وتعالى-، فيشركون معه غيره في العبادة أو يعبدون غيره من دونه أو يعبدون غيره ليقربهم إليه زلفى، فلا بد -إذن- من توحيد الألوهية. وبالتالي فالرب المعبود المتفرد بالربوبية والألوهية كيف نعرفه؟ نعرفه بتوحيد ثالث وهو توحيده في أسمائه وصفاته، فهو رب إله معبود له الأسماء الحسنى والصفات العليا.

وقد أنكر الفكر الفلسفي صفات الله -تعالى-، وتأثر بهم المعتزلة؛ لأن الألوهية لدى الفكر الفلسفي لا تعدو أن تكون فكرة مجردة، ومن ثم كان تميز التوحيد في الإسلام بأنه توحيد ذات لله ثابتة والله -تعالى- له أسماء وصفات فكان ثبوت الأسماء والصفات لله نوعاً من أنواع التوحيد.

ومع كون الأسماء والصفات ذات علاقة بنوعي التوحيد توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية إلا أنه لا مانع من إفراده بالشرح والتفصيل. بعد أن نتناول النوعين الأولين من التوحيد.

وبعد هذه المقدمة أظنك - أخي الدارس- قد هيأت نفسك لدراسة أنواع التوحيد فهيا

نبدأ بسم الله:

2.4 توحيد الربوبية: معناه وأدلته ومظاهره

1.2.4 معنى توحيد الربوبية

لا بد لنا من معرفة معنى الرب في اللغة حتى نتصور معنى توحيد الربوبية. وإذا ما عدنا إلى المعاجم لنجري تحقيقاً لغوياً لمادة كلمة رب وجدناها تدل على المعاني التالية: (ابن فارس: معجم مقاييس اللغة ج381/2). (الفيروز أبادي: القاموس المحيط) (ابن منظور: لسان العرب1 - 348/344):

(1) التربية والتنشئة والإنماء: وبهذا المعنى ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله -تعالى-:

(قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ) (يوسف:23).

وفي قوله -تعالى-:

(فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) (الشعراء: 77- 80).

(2) الجمع والحشد والتهيئة: كما في قوله -تعالى-:

(رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا) (المزمل:9)

(هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (هود: 34).

(وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) (الأنعام: 38).

(3) السيادة والسلطان والملك والتصرف؛ كما في قوله -تعالى-:

(ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) (الفاتحة: 3).

(أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: 258).

وبهذا يتبين أنّ كلمة الرب مشتملة على جميع المعاني التالية:

المربي الكفيل بقضاء الحاجات، والقائم بأمر التربية والإنشاء، والكفيل والرقيب والمتكفل بالتعهد وإصلاح الحال، والسيد الرئيس المطاع، وصاحب السلطة النافذ الحكم المعترف له بالعلاء والسيادة، والمالك لصلاحيات التصرف والملك والسيد. (المودودي: المصطلحات. 1955م، ص37).

وبعد هذا البيان لمعنى الرب في اللغة يمكننا أن نتحدث عن معنى توحيد الربوبية، فهو الإقرار بأن الله – تعالي– رب كل شيء وخالقه «وأنه ليس للعالم خالقان متكافئان في الأسماء، والصفات، والأفعال». (ابن ابي العز: شرح العقيدة، 1385هـ، ص15) وأنه –سبحانه– هو الفاعل المطلق في كل ما سواه، وأن كل ما سواه يستند إليه، وأن كل اسم من أسمائه، وكل صفة من صفاته وكل فعل من أفعاله لا يشاركه فيه غيره، وأنه –سبحانه– هو الموجود القديم أزلاً، والباقي أبداً لم يشاركه في الوجود القديم غيره.

روى البخاري – في صحيحه في كتاب بدء الخلق بسنده– عن عمران بن الحصين قال: دخلت على النبي ﷺ: وعقلت ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني تميم. فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم. قالوا: بشرتنا فأعطنا –مرتين–. ثم دخل ناس من أهل اليمن، فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم... قالوا: قد قبلنا يا رسول الله. قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر. قال: كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض» (البخاري: بفتح الباري 1385هـ، جـ6، ص286).

ويعرفه الإمام الصنعاني بقوله «توحيد الخالقية والرازقية ونحوها ومعناه أن الله وحده هو الخالق للعالم وهو الرب وهو الرازق لهم» (الصنعاني: تطهير الاعتقاد، ص /2، 22).

فالرب – سبحانه– غني بنفسه «وما يستحقه من صفات الكمال ثابت له بنفسه واجب له من لوازم نفسه، لا يفتقر في شيء من ذلك إلى غيره، بل أفعاله من كماله، كما فعل، وإحسانه وجوده من كماله، لا يفعل شيئاً لحاجة إلى غيره بوجه من الوجوه، بل كل ما يريده فعله، فإنه فعال لما يريد. وهو – سبحانه– بالغ أمره، فكل ما يطلب فهو يبلغه ويناله ويصل إليه. وماله من المخلوقين ظهير، وليس له ولي من الذل» (ابن تيمية: مجموعة الفتاوى 1398، هـ، جـ1، ص38).

ولقد وضح القرآن هذا النوع من التوحيد؛ لأن الأمم الضالة كانت تشرك في ربوبيته -تعالى- في هذه المعاني: فتعترف لله -سبحانه- ببعضها وتثبت لغيره بعضها الآخر. ومن ذلك ما كان على سبيل المثال:

من قوم نوح -عليه السلام-، فهم وإن لم يكونوا جاحدين بوجود الله -تعالى- وأنه الخالق وأنه المدبر لأمر السماوات والأرض، إلا أنهم كانوا معترفين على أن آلهة أخرى لها بعض التدخل في تدبير العالم ونظامه وتتعلق بها حاجاتهم فلا بد أن يؤمنوا بها كذلك آلهة مع الله (المودودي: المصطلحات، 1955م، ص44).

وقد دعاهم نوح -عليه السلام- إلى ترك هذه الأصنام التي وصى بعضهم بعضاً على عدم تركها؛ لأنها بزعمهم آلهتهم، قال -تعالى-:

(وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) (نوح: 23).

أما عاد قوم هود -عليه السلام- فكانوا يؤمنون بالله الخالق، ولكنهم عبدوا معه غيره مما اعتقدوا أنها آلهة، فلما دعاهم هود إلى عبادة الله وحده، قالوا:

(قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا) (الأعراف: 70).

وهكذا كان قوم صالح حيث أطاعوا غير الله، وطاعتهم له عبادة تخالف اعتقادهم بتوحيد الربوبية، حيث دعاهم صالح بقوله:

(وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) (الشعراء: 151-152).

وكذا كان قوم إبراهيم يعبدون الأفلاك والأصنام على أنها آلهة مع الله، وأنها تضر وتنفع، فكانوا يخافونها ويخوفون إبراهيم منها، ولذلك كان إبراهيم -عليه السلام- يتحداهم في نقاشه لهم أنها تضر ولا تنفع، ولا تملك أن ترد البأس عن نفسها، إذ يقول لهم:

(وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ

ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) (الأنعام: 80-82).

وكان يقول لهم:

(أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ) (الصافات: 85-87).

إذاً لقد ساء ظن هؤلاء بالله – تعالى–، وساءت معرفتهم للرب وأشركوا في إيمانهم به، فقد نسب بعضهم الربوبية للشمس والقمر، ونسب بعضهم الملك والربوبية لنفسه، فادعى أنه صاحب العرش في دائرة السياسة والمدنية، بل في دائرة الإحياء والإماتة، وتورطوا في أنواع من الضلال منها: «أنهم كانوا أصبحوا يعتقدون الألوهية والربوبية في آلهة أخرى مع الله، فلم تعد عبادتهم خالصة لوجه الله، وأنهم كانوا يعتقدون أن ربوبية الله لا مدخل لها في شؤون الحياة الإنسانية من الأخلاق، أو الاجتماع، أو الاقتصاد، أو المدنية، أو السياسة، وعلى ذلك كانوا يزعمون أنهم مطلقو العنان في حياتهم المدنية، ولهم أن يتصرفوا في شؤون حياتهم كيف يشاؤون» (المودودي: المصطلحات1955م، ص58)، بل بلغ الأمر بفرعون أن يستهتر بإله موسى ويقول لهامان:

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ) (غافر: 36-37).

وبلغ به الأمر كذلك أن يتوعد موسى –عليه السلام– بقوله:

(قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ) (الشعراء: 29).

بل ويعلن ربوبية نفسه بقوله:

(فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) (النازعات: 24).

كما يطلب منهم أن يعلنوا ألوهيته الواحدة:

(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى) (القصص: 38).

فأي اعتداء على الربوبية والألوهية أشد من هذا الاعتداء؟ وأي خروج أعلى من هذا الخروج؟ والمشكلة أنه (استخف قومه فأطاعوه) فيما ادعى فآمنوا به، واستسلموا له وأطاعوه.

وكان من هذا الانحراف في توحيد الربوبية انحراف أهل الكتاب من اليهود والنصارى كما قال عنهم – سبحانه–:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (التوبة: 30).

وقال – سبحانه–:

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة: 72).

وقال – سبحانه–:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ (المائدة: 116).

بل أعطوا حقوق الربوبية والألوهية بالطاعة لأحبارهم ورهبانهم كما وصفهم – سبحانه وتعالى– بقوله:

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة:31).

وكما قلنا سابقاً قد يعبر عن هذا التوحيد بأنه توحيد الإثبات والمعرفة، أي إثبات وجود الرب – تبارك وتعالى– وإثبات ما له من معاني الربوبية ومعرفته بها علماً واعتقاداً والإقرار بها إثباتاً وكلاماً.

تدريب (2)

تأكد من توحيد الربوبية في دلالة الآيات التالية عليه من المصحف الشريف بنفسك في مستهل السور الآتية: سورة الحديد، سورة طه، أول سورة السجدة، سورة آل عمران، وآخر سورة الحشر وفي سورة الإخلاص بكاملها.

2.2.4 أدلة توحيد الربوبية

عرفت - أخي الدارس- أدلة وجود الخالق - سبحانه-. كما عرفت أيضاً أدلة التوحيد النقلية والعقلية. وتوحيد الربوبية هو أحد أنواع التوحيد، فما كان دليلاً على التوحيد - كأصل- هو دليل على أنواعه - توحيد الربوبية. ولذلك بإمكانك أن تستدل بأدلة التوحيد على الربوبية، ومع ذلك نزيدك أدلة على توحيد الربوبية بتنوع المعارضين فيها من المشركين.

(1) فدليل الممانعة - التمانع- المستنبط من قوله -تعالى-: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: 22). دليل على القائلين بالتعدد ويمكنك العودة إليه في أدلة التوحيد.

(2) أما القائلون بالإثنينية - إله النور وإله الظلمة- فدليلنا عليه أن نقول لهم: «وافقتمونا على أن الظلمة حادثة، فنقول: حدثت الظلمة بذاتها أم بإحداث النور إياها؟ إن قلتم: حدثت بذاتها، فقد صرحتم بحدوث شيء بدون الصانع، وفيه تعطيل لا إثبات صانعين. وإن قلتم بإحداث النور لها، فهو الذي أحدث أصل الشرور والقبائح، وهذا خلاف أصلكم» (الصابوني: كتاب البداية، 1969م. ص41-42). وهو القول بإلهين، إذ ثبت أن المحدث واحد وهو إله النور، وبهذا يبطل معتقدكم، وتثبت الوحدانية. فالرب -إذاً- واحد.

(3) وأما الذين يقولون بعقيدة التثليث، والأقانيم الثلاثة، كالنصارى والبوذيين..، فيُطالَبون بالدليل على ذلك، "ولا دليل لهم على تقسيمهم بثلاثة أقانيم لا من جهة العقل، ولا من جهة النقل. ولأنهم جعلوا الذات مع العلم والحياة ثلاثة، فهلا جعلوها مع القدرة والإرادة خمسة؟ ومع السمع والبصر سبعة... إلى غير ذلك من صفات الكمال؟ وقول من جعل مريم صاحبة وعيسى ولداً أشنع؛ لأن فيه إثبات الحاجة والتجزئة لله - تعالى-، وذلك كله من أمارات الحدوث» (الصابوني: البداية، 1969م، ص42). والحدوث مستحيل على الله - تعالى-، فثبت فساد معتقدهم على القول بالتثليث والتعدد وثبتت الوحدانية للرب - تعالى-.

ويقرر القرآن الكريم فساد معتقدهم، وأنه لا دليل لهم عليه من العقل، ولا من النقل سوى أنه تكرير لما سمعوه من المشركين قبلهم. يقول الله - تعالى-:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ

ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) (التوبة: 30).

ويقول –سبحانه-:

(لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ) (المائدة: 72).

(لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ) (المائدة: 73).

3.2.4 من مظاهر توحيد الربوبية

إذا أقررت لله – تعالى- بالربوبية الواحدة، وأنه رب واحد ولا رب سـواه، وقـد عرفت معاني توحيد الربوبية، فإن مظاهر هذا التوحيد لا بد أن تُرى في حياتك:

(1) وأول مظهر من مظاهر هذا التوحيد أن تؤمن، وتعتقد، وتقر لله –سبحانه- بلـسانك بعد قلبك بأنه رب كل شيء ولا رب غيره، وأنه –تبارك وتعالى- الفاعل المطلق في الكون بالخلق والتدبير، والتغيير، والتسيير، والزيادة والنقص، والإحيـاء والإماتـة، وغير ذلك من الأفعال لا يشاركه أحد في فعله – سبحانه وتعالى- (د. ياسـين: الإيمـان، 1985م، ص16).

(2) وحيث اعتقدت بأنه – سبحانه وتعالى- وحده قاضي الحاجات، وأن بيده وحده الملك، وأنه النافع وحده والضار وحده، تضرعت إليه بالدعاء وحده، واتخذته ولياً ناصـراً وحده، إذ لا معنى لألوهية من لا سلطان له وحده، ولا معنى لدعاء من لا يضر ولا ينفع وحده، قال – تعالى-:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ) (الأحقاف: 5).

(وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا

يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا) (الفرقان: 3).

(رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا) (المزمل: 9).

(3) ومن مظاهر توحيد الربوبية أن تذكر نعمَ الله عليك وما أكثر هذه النعم، قال – تعالى-:

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ) (فاطر: 3).

(4) ومن مظاهر هذا التوحيد أن تعبده وحده لا شريك له، وأن تترك عبادة الهوى والطاغوت، قال – تعالى-:

(ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (التوبة: 31).

(وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ) (الأعراف: 73).

(۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ) (الأعراف: 65).

وبهذا تكون مستسلماً له – سبحانه- في كل شؤون حياتك متوجهاً إليه وحده كما قال – تعالى-:

(قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (الأنعام: 71- 72).

وقال – تعالى-:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: 161).

أسئلة التقويم الذاتي (5)

1. علل تقسيم التوحيد إلى توحيد إثبات ومعرفة، وتوحيد قصد وطلب.
2. ما التقسيم الآخر للتوحيد؟ وما مسوغات هذا التقسيم؟
3. عدد معاني الرب في اللغة واشتق منها معنى توحيد الربوبية.
4. عدد ثلاثة مظاهر من مظاهر توحيد الربوبية.

3.4 توحيد الألوهية: معناه وأدلته ومظاهره

1.3.4 مقدمة

عرفت -أخي الدارس- معنى توحيد الربوبية، وهو النوع الأول من أنواع التوحيد. وأظنك تسلم معي أن ذاك النوع إنما هو توحيد لله -تعالى- بالاعتراف له والإقرار به رباً واحداً خالقاً رازقاً، بيده كل شيء، لا يشبهه شيء من مخلوقاته ولا يشبه شيئاً سواه.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: 11).

واطمئنك - أخي الدارس- أن هذا النوع من التوحيد - الربوبية- يسلم به جميع الناس إلا من ندر ممن لا يحسنون استعمال عقولهم، أو من المكابرين الذين لا يؤبه لقولهم. بل إن المشركين يؤمنون بالرب، وأنه وحده الخالق:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (لقمان: 25).

ولكنهم يشركون معه غيره في الأمر والنهي، أي في العبادة والطاعة.

والله - سبحانه وتعالى- لا يقبل من عباده أن يوحدوه في الوجود والخالقية، ويشركوا معه غيره في الطاعة والعبادة والولاء.

ولهذا كان توحيد الألوهية لازماً لتوحيد الربوبية، فإن الله الخالق لكل شيء لا يقبل أن يتدخل غيره في أمر مخلوقاته، فإن الذي خلق هو الأحق بأن يأمر وينهى، ويطاع ويعبد، كما قال - سبحانه-:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: 54-56).

ولهذا إذا نسبت توحيد الربوبية إلي توحيد الألوهية وجدته متضمناً فيه، فالعبد إذا عبد الله وحده أي إذا وحده في ألوهيته كان قد وحده في ربوبيته، بينما المشركون يوحدون الله في ربوبيته، ولكنهم لا يوحدونه في ألوهيته فيعبدون غيره، ولو أعملوا عقولهم لكان لزاماً عليهم عقلاً إذا وحدوه في ربوبيته أن يوحدوه في ألوهيته إذ يستلزم العقل أن الذي له الخلق والربوبية ينبغي أن تكون له الطاعة والعبودية والألوهية.

ومن هنا كان توحيد الألوهية توحيداً عملياً، أو توحيد القصد والطلب. فالعبد متى عرف ربه علمياً، وجب عليه أن يعبده عملياً فلا يقصد إلا وجهه، ولا يطلب إلا منه وحده.

ألا تجد نفسك - أخي الدارس- وأنت تقرأ سورة الفاتحة في كل ركعة من ركعات صلاتك، أي وأنت تعبد ربك، تجمع في قراءتك بين نوعي التوحيد: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية؟ ولهذا تسمى سورة الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم؛ لأن القرآن كله توحيد: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، توحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد القصد والطلب، توحيد العلم وتوحيد العمل.

يروي أبو هريرة حديثاً قدسياً يقول: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله - تعالى-: قسمت الصلاة بيني، وبين عبدي نصفين؛ فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل. قال رسول الله ﷺ: اقرؤا يقول العبد: (الحمد لله رب العالمين) يقول الله -عز وجل-: حمدني عبدي. يقول (الرحمن الرحيم) يقول الله عز وجل: أثنى علي عبدي. يقول العبد: (مالك يوم الدين) يقول الله -عز وجل-: مجدني عبدي. يقول العبد: (إياك نعبد وإياك نستعين) يقول الله: هذه بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. يقول العبد: (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) يقول

الله: فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل» (أبو داوود: السنن 1969م، ج1، ص513-514، وأخرجه مسلم حديث رقم395 والترمذي حديث رقم2954 والنسائي حديث رقم910 وابن ماجة حديث رقم 838).

تدريب (3)

قرأت حديث أبي هريرة في سورة الفاتحة وهي تجمع نوعي التوحيد: الإثبات والمعرفة، والقصد والطلب. دل على الآيات الخاصة بالنوع الأول وعلى الآيات الخاصة بالنوع الثاني.

وهذا النوع من التوحيد -توحيد الألوهية- كما نرى هو ما دعا إليه الرسل جميعاً - عليهم الصلاة والسلام-، حيث جاؤوا يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ويقولون لأقوامهم:

(يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ) (الأعراف: 59، 65، 73، هود: 50،61، 84).

وعلى أساسه تكون المفاصلة بين المؤمنين والكافرين كما قال -تعالى-:

(قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦) (الكافرون: 1-6).

وإذا ما كان هذا النوع من التوحيد بهذه الأهمية، ولا يقبل توحيد العبد إلا به، فما معناه؟ وما أدلته؟ وما مظاهره؟

2.3.4 معنى توحيد الألوهية

هو إفراد الرب - تبارك وتعالى- باستحقاق الألوهية وحده، وإفراده بالعبادة وحده لا شريك له، وهو المتمثل في شهادة أن لا إله إلا الله. وهي قائمة على أصلين؛ «على أن يُعبد الله وحده لا يشرك به شيء»، وعلى أن يعبد بما شرعه.... فالإله بحق هو الذي تألهه القلوب حبّا وعبادة، واستعانة وتعظيماً، وخوفاً ورجاءً، وإجلالاً واكراماً. والله -عز وجل- له حق لا يشركه فيه غيره، فلا يعبد إلا الله ولا يدعى إلا الله ولا يخاف إلا الله، ولا يطاع إلا الله» (ابن تيمية: مجموع الفتاوى، 1398هـ، ج1، ص 365).

كما أن من مدلولات كلمة لا إله إلا الله «الكفر بكل طاغوت صارف عن عبادة الله - تعالى- وطاعته وطاعة رسوله ﷺ.. والطاغوت كل ما عبد من دون الله أو صرف عن عبادة الله - تعالى- من معبود رضي لنفسه بأن يعبد مع الله - تعالى-، أو متبوع، أو مطاع في غير طاعة الله - تعالى- وطاعة رسوله ﷺ» (الجزائري: عقيدة المؤمن، 1977م، ص101).

وبالتالي فإن توحيد الألوهية له أطراف ثلاثة:

(1) المخلوق الضعيف المحتاج الباحث عمن يقوي ضعفه أو يجلب له المنفعة أو يدفع عنه المضرة وهو الإنسان.

(2) الخالق الرب الغني الرزاق السميع العليم المستحق للربوبية وحده، والمستحق للألوهية وحده، فلا يعبد سواه.

(3) الواسطة: وهي العبادة أو الأقوال أو الأعمال والاعتقادات والتي يحبها الله - تعالى- ويرضاها من عباده، من طاعة لله تقرباً إليه، وإفراده - تعالى- بالعبادة التي هي جميع ما أحب أن يعبد به من أعمال القلوب والجوارح، من التزام أوامر أمر بها، واجتناب نواهي نهى عنها.

وهذه العبادة له وحده، أو هذا التوحيد للألوهية هي وظيفة الإنس والجن الذين خلقهم الله - تعالى- لها، كما بين -سبحانه- بقوله:

(وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ) (الذاريات: 56-58).

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة:21).

(وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ) (الأنبياء: 25).

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ) (النحل: 36).

وحقيقة الأمر، إنّ أوضح قضية جاء القرآن؛ ليعالجها، وأهم مقوم من مقوماته هي هذه القضية، أو هذا النوع من أنواع التوحيد، حيث عرضها القرآن الكريم في ألوهية واحدة واضحة، وعبودية دقيقة شاملة، على أساس منها جاء؛ ليغير واقع الحياة البشرية، مشاعرها ومعتقداتها، ومفاهيمها وتصوراتها، وشرائعها وشعائرها، من جاهلية في التصور والاعتقاد والخلق والسلوك، والشعائر والشرائع، إلى توحيد لله، وعبادة له وحده في كل هذه الأشياء. وهو بهذا يطرد من حياة الناس كل ألوان الطاغوت البشري والحجرى، والاجتماعي والسياسي، والاقتصادي، ويعيد الأمر كله لله وحده:

(إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ) (يوسف: 40).

ذلك أن أولى خصائص الألوهية هي حق تعبيد الناس؛ وتطويعهم للشرائع والأوامر، حق إقامة النظم والأوضاع والمناهج والشرائع، والقيم والموازين وحمل الناس على اتباعها» (قطب: مقومات 1986م، ص18-19) والإقرار بالألوهية لله – سبحانه- لا يقوم حتى تقرّ النفس بألوهيته في الضمائر والمشاعر، وألوهيته في السماء والأرض، وفي الحياة الدنيا والآخرة، وفي الشعائر التعبدية، وفي شرائع الحياة بحيث لا تخرج جزئية واحدة من جزئيات الحياة البشرية عن سلطان الله – سبحانه- إلى سلطان أحد سواه. وهذا هو مدلول قوله – سبحانه-:

(وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ)

(الزخرف: 84).

ولقد سار الرسل – عليهم الصلاة والسلام- طريقاً واحداً يدعون الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، أي يدعونهم إلى توحيد الألوهية.

(1) فآدم -عليه الصلاة والسلام- عرف إلهه الواحد، الله رب العالمين، ودان له بالتوحيد، وعرف أنه مستخلف في الأرض وأنه مأمور باتباع هدية وحده وشريعته وحدها هو وذريته من بعده، وأنّ هذا التوحيد هو شرط استخلافه في الأرض وغاية وجوده، وأن من يحيد عن هذا الهدى ومن يتلقى من غير الله في الشريعة لا يجد إلا الشقاء والتعاسة والنكد في الدنيا والآخرة، ولا يكون لسلطانه ولا لعمله شرعية، ولا يصح له أن يشرع من عند نفسه، ولا يقبل الله – تعالى- منه عبادة من غير أمره، وبالكيفية التي طلبها. وإن شئت – أخي الدارس- أن تتأكد من هذه المعاني للتوحيد الذي أمر الله به آدم -عليه الصلاة والسلام- فتعال معي إلى هذا التدريب:

تدريب (4)

اقرأ من سورة الأعراف الآيات من 10-36 واشتق بنفسك هذه المعاني لتوحيد الألوهية.

وإذا تأكدت بنفسك من هذه المعاني فتعال معي إلى:

(2) رسل الله نوح وهود وصالح وشعيب -عليهم السلام جميعاً-، لترى بنفسك كيف دارت معاركهم مع أقوامهم في هذه القضية، قضية توحيد الألوهية، حيث دعوا جميعاً أقوامهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وترك عبادة أصنامهم التي لا تضر ولا تنفع ولا تنصر ولا تشفع، وأنّ الأفضل لهم والأصلح في الدنيا والآخرة، أن يعبدوا رباً خالقاً يعلم الغيب، وأن يستغفروه ويتوبوا إليه فإن رحمته واسعة، وإنه الهادي المجيب الرحيم القوي العزيز الولي النصير، الذي يطعم ويسقي ويهدي وإنه القدير على تعذيبهم وإهلاكهم. وتعال معي إلى هذا التدريب:

تدريب (5)

اقرأ الآيات الكريمة(25-95) من سورة هود، وتأمل قصص الأنبياء والرسل مع أقوامهم في صراعهم حول قضية توحيد الألوهية مستخرجاً معاني توحيد الألوهية من تلك الآيات.

(3) وإلى هذا التوحيد دعا رسولنا محمد ﷺ البشرية جميعاً، وذكرّ أهل الأديان السابقة بضرورة العودة إليه. قال - تعالى-:

(قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (آل عمران: 64).

ودعا العرب المشركين الذي استغربوا دعوته لهم إلى إله واحد وترك الآلهة المدعاة كما قال -سبحانه-: (وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾ (ص:4-6).

دعاهم إلى الاعتقاد بأن الله وحده هو الإله والرب والقيم. ودعاهم إلى عبادة الله وحده والتقدم إليه بالشعائر، ودعاهم إلى التحاكم إلى شريعة الله وحده، والدينونة له بالعبودية. وكانت هذه الدعوة بمضموناتها هذه كاملة هي معنى شهادة أنّ لا إله إلا الله» (قطب، مقومات التصور الإسلامي، 1986م، ص107).

كما جعل القرآن توحيد الألوهية بهذه المعاني «قاعدة الاعتقاد والعبادة، وقاعدة الخلق والسلوك، وقاعدة الحكم والنظام، وقاعدة النشاط السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، والعلمي، والفني، وقاعدة العمل والجزاء في الدنيا والآخرة سواء» (قطب. مقومات التصور الإسلامي، 1986م، ص117).

وجعل عبودية كل شيء لله وحده لا شريك له، فكل شيء وكل حي وكل جماد وكل ما سواه لا يخرج عن عبوديته لله، ولذا فإن هذا العبد مدعو؛ لينسجم مع موكب الخلق المسبح بحمد الله.

﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء: 44).

فالكون المادي عابد لله في أجرامه وأفلاكه كما قال - تعالى-:

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ (فصلت: 11-12).

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ۝ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن

فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾) (النحل: 48-50).

- والخلائق المكلفون عابدون لله – تعالى–:

(إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا) (مريم: 93-95).

- والملائكة عابدون لله – تعالى– وحده:

(لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ) (الأنبياء: 27-29).

- والأنبياء والرسل والبشر الصالحون يعبدون الله وحده لا شريك لـه (وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ) (ص: 45).

(سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) (الإسراء: 1).

(وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ) (الزمر: 17-18).

- والعصاة يدعوْن لعبادة الله وحده لا شريك له؛ ليغفر لهم:

(﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ) (الزمر: 53).

أخي الدارس، أظنك، بعد أن درست معنى توحيد الألوهية، أدركت أهمية هذا النوع من التوحيد، وأن عليه مدار الدين والرسالة. وإذا ما كان توحيد الربوبية علماً واعترافاً نظرياً بوحدانية الرب – تبارك وتعالى–، فإن توحيد الألوهية يتجاوز الاعتراف والعلم النظري، إلى الإقرار بلا إله إلا الله، ومن ثم كان لهذا التوحيد مظاهر دالة عليه؛ لأن المشركين الذي يشركون بالله في ألوهيته لحياتهم مظاهر واضحة دالة على هذا الشرك. ولذا تجدني أقدم لك مظاهر هذا التوحيد لارتباطها بمعنى التوحيد، وسأؤجل لك الأدلة عليه حيث سبقت الأدلة على التوحيد بصفة عامة، وعلى توحيد الربوبية بصفة خاصة.

3.3.4 مظاهر توحيد الألوهية

توحيد الألوهية يفرق بين الموحدين والمشركين؛ لأن له مظاهر دالة، وليس مختفياً في قناعة أو مخزوناً في فكر. ومن مظاهر هذا التوحيد:

(1) إعلان شهادة أن لا إله إلا الله اعترافاً بالقول وبالتلفظ فمن لم يشهد بلا إله إلا الله فليس بموحد. وكما عرفت فإن التلفظ بلا إله إلا الله صدقاً يقتضي أن يكون نابعاً من علم بها ويقين ومحبة وإخلاص وقبول واستعداد للانقياد لها ولمقتضياتها من توحيد الرسالة والوحي أي بما يقترن بها من شهادة أن محمداً رسول الله، وأنه عبد الله ورسوله، وأنها مقترنة بها لا انفكاك بينهما فإن توحيد المرسل لا يتم إلا بتوحيد الرسول أو الرسالة.

ولذا فإنك تجد مشاعر هذا العبد المؤمن بالله كلها متوجهة إلى الله وخاشعة بين يديه، محبة وتذللاً وخوفاً ورجاء، ورغباً ورهباً وتوكلاً عليه وإطراحاً بين يديه واستعانة به والتجاء إليه، وافتقاراً إليه، وإنابة إليه واستغاثة به، وولايته وحده والبراءة مما سواه. وانظر بعض هذه المعاني في الآيات الكريمة التالية:

(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ) (آل عمران: 31).

(وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ) (الزمر: 54).

(وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) (البقرة: 165).

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (الفاتحة: 4).

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ (الإسراء: 57).

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: 19).

﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: 56).

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود: 90).

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿14﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿15﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿16﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿17﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: 14-18).

(2) عبادة الله – تعالى– وحده لا شريك له: والعبادة اسم جامع لكل ما يرضي الله – سبحانه– من شعائر تعبدية من صوم وصلاة وحج وزكاة وتوكل وجهاد وصبر، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وصدقة، وذكر من تسبيح وتحميد واستغفار ودعاء، وذبح ونذر، وصلاة على النبي ﷺ، وبر والدين. ولا بد لهذه العبادة من أن تؤدى بإخلاص وأن تكون موافقة لما شرع الله – تعالى–. كما قال – تعالى–:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ (البينة: 5).

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: 60).

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: 23).

﴿كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ (الأنبياء: 90).

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ (البقرة: 45).

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ (الكوثر: 2).

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ (الإنسان: 7).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: 41).

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ (الإسراء: 23).

(3) التحاكم إلى شرع الله – سبحانه– في كل أمر من أمور الحياة، في الحياة الاقتصادية والمالية من بيع وشراء، ورهن وإجارة، ومساقاة ومزارعة، وشركة ووكالة، وغير ذلك من الشؤون المالية.

وفي الحياة السياسية بإقامة نظام الإسلام في الحكم المستمد من شريعة الإسلام، وعدم الاعتداء على أخص خصائص توحيد الألوهية وهي الحاكمية كما قال – تعالى–:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا

مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا) (النساء: 59-65).

(وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ) (المائدة: 44).

فنرى من هذه الآيات أن قضية الحاكمية والتشريع يجب أن ترد إلى الله وحده وأن يستمد الحكم فيها من الله وحده، فهي قضية إيمان وكفر، فمن أقر لغير الله بالأحقيّة في التشريع أو الحكم، أو أطاع غير الله في شريعة شرعها راضياً مختاراً فهو مشرك بالله، ومن ادعى أنه أحق من الله بالأمر والتوجيه، والتشريع والحكم فهو كافر مشرك بالله - تعالى- يعتدي على أخص خصائص الألوهية ويجعل من نفسه إلهاً، ومن هواه حكماً:

(أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ) (الجاثية: 23).

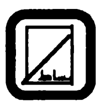
وقد نعى الله -تعالى- على الذين تحكموا في حياة الناس يُعبّدونهم لشرعهم من الأحبار والرهبان وعلى الذين أطاعوهم فيما أرادوا فقال -سبحانه-:

(ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ) (التوبة: 31).

«وفي عبادة العباد تنطوي جميع الوثنيات والجاهليات التي عرفتها البشرية والتي ستعرفها إلى يوم القيامة. عبادة الأرواح والطواطم، وعبادة الملائكة والجن، وعبادة الأصنام والأوثان، وعبادة النجوم والأفلاك، وعبادة الآباء والأجداد، وعبادة الحكام والكهان، وعبادة الأحبار والرهبان، وعبادة الأهواء والشهوات وعبادة الأصنام التي تتزيا بشتى الأزياء فتتبدى تحت أسماء الطبيعة، والإنسان، والحياة، والاقتصاد، والجنس، والقوم، والوطن، والزعيم،.. وفي عبادة العباد تنطوي جميع الأنظمة والأوضاع وجميع المذاهب والنظريات، التي تنتهي إلى أن تحكم حياة الناس، وسياستهم، واقتصادهم، واجتماعهم، وقيمهم وموازينهم، وعاداتهم وتقاليدهم، شريعة من صنع البشر - في صورة من الصور- غير شريعة الله ومنهجه الفريد للحياة» (قطب: مقومات التصور الإسلامي، 1986م. ص180).

(4) الالتزام بمنظومة القيم والأخلاق وفق ما يحبه الله - تعالى- ويرضاه. ومن هنا تظهر

عقيدة التوحيد في النظام الخلقي الذي يعيشه المسلم وتعيشه الأمة، ومن ثم يتجلى توحيد الألوهية في «إعطاء هذه القيم إلزامها وإيجابيتها وفاعليتها، فهي موكولة إلى ما يحبه ويرضاه إله واحد، متفرد بالألوهية والربوبية، خالق رازق، مدبر كامل، عالم محيط بالسر والنجوى، مطلع على الخفي والظاهر، رؤوف بالإنسان رحيم، لا يحب له إلا الخير ولا ينهاه إلا عن الشر، وهو في الوقت قادر قاهر، مهيمن متصرف، فعال لما يريد، لا رادّ لحكمه، ولا معقب على قضائه، ولا مهرب منه، ولا فوت في الدنيا ولا في الآخرة، وهو يجزي على الحسنة وعلى السيئة، لم يخلق الناس عبثاً، ولم يتركهم سدى. ومن هذه الحقيقة الكبرى تستمد الأخلاق في الإسلام إلزامها لضمير الفرد اعتقاداً، ولسلوكه عملاً، كما تستمد ثباتها وعدم خضوعها لأي تصورات أو مقولات غير ربانية، ولهذا وذاك قيمته الإيجابية الكبرى في فاعليتها في واقع الحياة » (قطب: مقومات التصور الإسلامي، 1986م، ص ص291-290).



نشاط (3)

راجع الآيات الكريمة التالية واستخرج منها مجموعة الأخلاق والقيم التي تدل بظاهرها على توحيد الألوهية (الإسراء 22-39 + لقمان 12-20).
(سورة الحجرات + سورة البقرة 204-209).
اعرض هذا النشاط على مشرفك.

4.3.4 أدلة توحيد الألوهية

أنواع التوحيد – أخي الدارس- لا ينفك بعضها عن بعض، وكما قلنا تنويعها إنما هو لزيادة الفهم، وبالتالي فإن ما مر بك من أدلة التوحيد عموماً ومن أدلة توحيد الربوبية يمكن أن تكون أدلة على توحيد الألوهية. بمعنى ما الحجة القائمة على البشر؛ ليفردوا الله – تعالى- في ألوهيته دون سواه، بعدما آمنوا بتوحيده في ربوبيته؟

(1) الإلزام: ومعناه إذا كنتم تقرون بأنه لا رب في الوجود إلا الله فمقتضى ذلك ألا يكون إله معبود سواه، إذ إن وحدانية الرب تعني أنه الخالق وحده، الرازق وحده، المحيي المميت وحده، النافع الضار وحده، مالك يوم الدين وحده، ومن يكون له كل هذا أيقبل أن يطاع غيره، وأيقبل أن يختص في الأمر والتوجيه، والحكم والتدبير سواه؟! فإن العقل: يحكم أو يلزم بأن من له الخلق له الأمر، كما قال – تعالى-:

﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأعراف: 54).

وكثير من الآيات القرآنية الآتية في باب الاستدلال على توحيد الألوهية واقعة في هذا الدليل الجامع، وهو دليل الإلزام العقلي بأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية وإليك هذه الآيات:

(قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ) (النمل: 59-61).

(2) ضرورة توحيد الألوهية في السموات والأرض:

وذلك بأن يقال لهم: إنكم تقرون بأن الله هو الذي خلق السماء والأرض وتقرون أن ملك السموات وتدبيرها وتعريفها بيده، فوجب عليكم أن تقروا أنه إله الأرض يدبر أمرها وأمر أهلها. وفي هذا المعنى يقول الله - تعالى-:

(وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ)

(الزخرف: 84).

(3) الاستدلال بعجز الشركاء الذين يعبدهم المشركون، فإنهم لا يخلقون ولا يدبرون أمر المخلوقات ولا يضرون ولا ينفعون ولا يشفعون، فثبت توحيد الألوهية؛ لأنه - سبحانه- هو وحده الخالق النافع الضار الشفيع. وفي هذا المعنى يقول الله - تعالى-:

(أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١٨ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ۝١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ۝٢١

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ (النحل: 17-22).

(4) ضرورة توحيد السلطة وإلا فسد نظام الخلق والحياة. وهذا نلمحه من قراءة الآيات السابقة جميعاً بأساليب مختلفة فكأنه يقول لهم: إن أعمال الألوهية من كشف الضر وقضاء الحاجات، والتوفيق والرقابة والحماية لا يمكن أن تصدر عمن لا سلطة له ولا خلق عليه، وإذا أقررتم بالسلطة في الخلق فلا بد أن تقروا بالسلطة له في هذه الشؤون جميعاً، فلا تدعوا سواه ولا تعبدوا غيره. ذلك أن هذه السلطة غير قابلة للتجزئة، فلا يمكن أبداً أن تكون السلطة في أمر الخلق بيد، وفي أمر الرزق بيد أخرى، وأن تكون الشمس مسخرة لهذا وتكون الأرض مذللة لذاك، كما لا يمكن أن يكون الإنشاء في يد والمرض والشفاء في يد أخرى، والموت والحياة بيد ثالثة فإنه لو كان الأمر كذلك لما أمكن لنظام هذا الكون أن تقوم له قائمة، فمما لا بد منه أن تكون جميع السلطات والصلاحيات بيد حاكم واحد يرجع إليه كل ما في السموات والأرض» (المودودي: المصطلحات، 1955م، ص30).

قال - تعالى-:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء: 22-23).

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: 42-43).

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: 91).

(5) الزوجية في الكون دليل الوحدانية:

إن المخلوقات في الكون تعتريها اثنينية، أو يحكمها قانون الزوجية، سموات وأرض ذكر وأنثى، غيب وشهادة، علو وسفل، يمين وشمال، أمام وخلف، نور وظلمة، موجب وسالب، فالكون قائم على نظام المتقابلات، والتضاد، ولا يمكن للضد أن يخلق ضده وأن ينظم أمره وإلا لكان محتاجاً، وبالتالي فلا بد أن يكون الإله واحداً وأن يكون

هو المسؤول عن هذه الأزواج والمنظم لها، قال - تعالى-:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الذاريات: 49-51).

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: 21).

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ (النجم: 45).



أسئلة التقويم الذاتي (6)

1- ضع إشارة، (√) للدلالة على العبارة الصحيحة فيما يلي:
أ) توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية.
ب) توحيد الربوبية متضمن لتوحيد الألوهية.
ج) لا يتضمن أحدهما الآخر .
د) توحيد الألوهية مساو لتوحيد الربوبية .

2- اشرح عبارة «سورة الفاتحة تجمع أنواع التوحيد».

3- ما أطراف توحيد الألوهية؟

4- اشرح: «توحيد الألوهية يقتضي توحيد الله -تعالى- في المشاعر والشعائر والشرائع»

5- هات دليلين على توحيد الألوهية؟

6- ضع (√) للدلالة على الإجابة الصحيحة:
أ) توحيد الألوهية يستلزم توحيد الربوبية.
ب) توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.
ج) لا يستلزم أحدهما الآخر.

4.4 توحيد الأسماء والصفات

1.4.4 مقدمة

عرفت – أخي الدارس– كلاً من توحيد الربوبية وتوحيد الألوهيـــة، وأدركـــت أن مشكلة البشر ليست في إنكار وجود الرب – سبحانه–. ولكن مشكلتهم في أنهم لا يعبدونه وحده لا شريك له. وسبب هذا الشرك أنهم يسيئون معرفة الحق –تبارك وتعـــالى–، فـــلا يعرفونه بأسمائه وصفاته، ولذا فإن القلة منهم تشرك في ربوبيته، والغالبية العظمى مـــنهم يشركون به في ألوهيته. ومن ثم دعت الحاجة إلى معرفة الله –تعالى– معرفة صـــحيحة. وكانت الحاجة ماسة لهذه المعرفة، حتى يتمكن البشر مـــن عبادتـــه –ســـبحانه– عبـــادة صحيحة.

حتى الذين آمنوا بوحدانية الله –تعالى–، فإن ثمة تفسيرات كثيرة لها، حفـــل بهـــا تاريخ الاعتقاد والفلسفة، حتى وصل الفكر وفي أكثر صور تجريده إلـــى تجريـــد الله –تعالى– من صفاته بدعوى تنزيهه وتوحيده.

والحقيقة أن العقل البشري قد سار بمعطياته وإدراكاته في رحلة شاقة، يحاول اكتناه الألوهية، وقد خصص لها جزءاً كبيراً من تفكيره المجرد. ولكن نتائج هذا البحث كانـــت متضاربة؛ فبعض الناس أسلم نفسه إلى الانبهار المادي في الحياة، ففسر الربوبية تفـــسيراً مادياً، في حين فسرها بعضهم الآخر تفسيراً عقلياً مجرداً أو تفسيراً رياضياً. وهاك بعض عبارات هؤلاء وأولئك:

- يقول فيثاغورس: «إن الله واحد لا كالآحاد، فلا يدخل في العدد، ولا يدرك مـــن جهـــة العقل، ولا النفس، فلا الفكر العقلي يدركه، ولا المنطق النفـــسي يـــصفه، فهـــو فـــوق الصفات الروحانية غير مدرك من ذاته، وإنمـــا يـــدرك بآثـــاره وصـــفاته وأفعالـــه» (الشهرستاني: الملل. 1968م، حـــ2. ص74).
- يقول سقراط «الله جوهر فقط. وإذا رجعنا إلى حقيقة الوصف والقول فيه وجدنا المنطق الفكري قاصراً عن اكتناه وصفه وتحقيقه وتسميته وإدراكه؛ لأن الحقائق كلها من تلقاء جوهره، فهو المدرك حقاً والواصف لكل موجود اسماً، فكيف يقدر المسمى أن يـــسميه اسماً، وكيف يقدر المحاط به أن يحيط به وصفاً» (المرجع السابق، ص84).
- وهذا «بيرغسون» في الفلسفة الحديثة، يستشعر وجود الله في كيانه ويريد أن يتحســـسه ويماسه بعقله ولكن هيهات. (الخطيب: الله، 1971م، ص342).

والفلسفة البراجماتية تحاول أن تعبر عن حقيقة الله بغرض تقـــوم عليـــه المنفعـــة العاجلة، (الكردي: علاقة صفات الله بذاته، 1980م، ص12).

حيث يقول وليم جيمس: «لذلك ينبغي علينا كفلاسفة، ومن أجل تحقيق غاياتنا في إيجاد نطاق خلقي واحد أن نفترض وجود الله (الخطيب: الله، 1971م، ص342).

مما سبق ذكره نجدنا نقرر حقيقة أن الإنسان في بحثه عن الحقيقة تشتبك عنده فكرتان إحداهما مع الأخرى: فكرة البحث عن الله والأخرى البحث في الله. والعقل البشري لا يكتفي بالاهتداء إلى الإيمان بمجرد وجود الله فحسب وإنما هو طموح وشغوف يريد أن يعرف عن الله ما يجعله قادراً على التعامل معه. ولقد تخبط العقل البشري في البحث في الذات الإلهية، فوقع في تجسيد مادي أحياناً، وفي تجريد ذهني معطل للذات الإلهية أحياناً أخرى وأنزل الله – تعالى- عقيدة التوحيد على رسوله ﷺ، والبشرية في تخبط وحيرة حين ابتعد أهل الأديان السابقة عن التوحيد الخالص، وانحرفوا عن عبادة الله الواحد ومن هنا ركز القرآن الكريم على التوحيد وجعل معرفة الله –تعالى- مركز الثقل في التفكير، وكانت أول آية نزلت فيه:

(ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ) (العلق: 1).

لتدل الناس على معرفة الله – سبحانه-، وتلك المعرفة التي ينبثق منها منهج عمل.

(فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ) (محمد: 19).

وجعل معرفة الله – سبحانه- من خلال أسمائه الحسنى وصفاته العليا:

(وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ) (الاعراف: 180).

وسمى علماؤنا هذا التوحيد توحيد الأسماء والصفات. فالمسلم حين يثبت لله توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية فإنه يعرف ربه ويوحده في ألوهيته فيعبده، وهو يعرفه معرفة صحيحة بأنه رب واحد حقيقي له أسماء وصفات، وليس إلهاً مجرداً أو مجسماً كما ترى الفلسفات العقلية والمادية. وهذه هي المعرفة الحقيقية لله.

ولا يعرف الله – سبحانه- ولا يسميه على الحقيقة ولا يصفه إلا هو نفسه – سبحانه- في كتابه الكريم ولا رسوله ﷺ بما علّمه ربه من علم الغيب فإنه:

(وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ) (النجم: 3-4).

وبعد هذه المقدمة – أخي الدارس- فما معنى توحيد الأسماء والصفات؟ وما أدلته؟ وما أسماء الله الحسنى؟ وما هي صفاته – عز وجل-؟ وكيف فهمتها مدارس الفكر

الإسلامي من معتزلة وأهل سنة من أشاعرة وسلفية؟

2.4.4 معنى توحيد الأسماء والصفات

هو أن تعتقد أن لله -سبحانه وتعالى- أسماء وصفات وأنه واحد في أسمائه وصفاته، لا يشاركه فيها أحد ولا يشارك فيها أحداً، وأنه - سبحانه- بأسمائه وصفاته.

(لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) (الشورى: 11).

وأنه رغم ثبوت الأسماء والصفات له، فإنه مخالف لغيره فيها، منزه عن المشابهة والمماثلة.

(قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ) (الإخلاص: 1-4).

وأنه - سبحانه- يدعي بهذه الأسماء ويعرف بها ويعبد على ضوء معانيها، وأن كل مخالفة في الاعتقاد في هذا التوحيد إنما هو إلحاد في أسمائه كما قال - تعالى-:

(وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) (الأعراف: 180).

وقد عرف - سبحانه- خلقه بأسمائه وصفاته في القرآن الكريم فقال:

(هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٤) (الحشر: 22-24).

وتوحيد صفات الله - تعالى- معناه، الإيمان بصفات الكمال لله - سبحانه-، التي جاء بها الشرع، تصديقاً لما أخبر به، بدون البحث عن كنهها، أو ماهيتها، هل هي قبل الله أم بعده؟ هل هي غيره أو عينه: وهذا يقتضي عدم التعرض للحقيقة أو الماهية في الذات أو الصفات؛ لأن هذا تطاول إلى ما لم يبلغه العقل البشري من جهة، وهو عبث؛ لأنه سعي إلى ما لا يدرك ومهلكة؛ لأنه يؤدي إلى الخبط في الاعتقاد؛ لانه تحديد لما لا يجوز

تحديده، وحصر لما لا يجوز حصره (عبده: رسالة التوحيد، ص27).

فالله – تعالى– متصف بكل صفات الجلال والكمال، منزه عن كل صفات النقص. فهو معروف بأسمائه العليا، متصف بالعلم والإرادة والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام، وهو الأول، الموجود القديم المنزه عن الحدوث والفناء، الغني المنزه عن الحاجة والافتقار، القائم بنفسه المنزه عن القيام بالغير بل غيره قائم به، الواحد الأحد الفرد الصمد، المنزه عن التعدد وعن الشريك وعن الند والضد والمثل والشبيه وعن التركيب، وهو الآخر الباقي المنزه عن الفناء. ويمكن أن نجمل لك –أخي الدارس– معنى هذا التوحيد في الأسماء والصفات زيادة في التوضيح بما يلي:

(1) أن تؤمن بأن لله – تعالى– أسماء وصفات ثابتة في الشرع، وأن تؤمن بها كما وردت دونما تحريف أو تشويه أو تشبيه، وأن تعبده –سبحانه– بناء على معرفة هذه الأسماء والصفات، فكما لا يصح أن تلحد به في أسمائه فتسمي غيره باسمه ولا في صفاته فتصفه بما لا يجوز وصفه به أو تسمى غيره إلهاً أو أن تصف غيره بصفاته، فلا يصح أن تعبد غيره – سبحانه– بأي وجه من وجوه العبادة.

(2) أن تعرف أن من أسماء الله – تعالى– وصفاته ما يتعلق بذاته فهو الأول والآخر والظاهر والباطن والغني والواحد المتصف بصفات القدم والبقاء والعلو والعظمة والقدرة، وما تدل عليه أسماؤه الحسني مثل العظيم والحميد والقادر والقوي والمتين والسلام والقدوس والعزيز والجبار والمتكبر ونور السموات والأرض.. إلى غير ذلك من الأسماء والصفات الدالة على ذاته سبحانه.

ومنها ما يتعلق بصلته بمخلوقاته مثل أسماء المحيي والمميت والخالق والبارىء والمصور المبدىء والمعيد والباعث والوارث والمالك والمقتدر والولي، ومنها صفات الخلق والقدرة والإحياء والرزق.

ومنها ما يتعلق بالإنسان على سبيل تذكيره بنعمة الله – تعالى– عليه ودعوته لعبادته مثل أسماء: الغافر والغفور والغفار والودود والتواب والرحيم والحليم والصبور والشكور والحليم والرقيب والحسيب وغير ذلك من صفات المغفرة والحلم والشكر وما يشتق من الأسماء السابقة من صفات.

ومنها ما يتعلق بصلة الإنسان به من استشعار العبد بمعاني الأسماء والصفات، فيعبد ربه عبادة صحيحة ويتقيه حق تقاته وذلك مثل أسماء: المهيمن والهادي والوكيل والوهاب والرزاق والمجيب والنافع والضار والمانع والمغني.. وغير ذلك من الأسماء والصفات في هذا المعنى.

والهدف من توحيد الله – تعالى– في أسمائه الحسنى وصفاته العليا هو أن يستشعر

العبد أثر الخالق – سبحانه- في الكون وأن يستشعر عظمته وأثر هذه الوحدانية فيعبده عبادة خالصة لوجهه الكريم، وأن يبتعد عن كل مظاهر الشرك القائم على الجهل بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا، أو الإلحاد فيها تعطيلاً، أو تحريفاً، أو تشبيهاً، أو تمثيلاً.

3.4.4 أدلة توحيد الأسماء والصفات

(1) الفطرة دليل على توحيد الأسماء والصفات: ذلك أن الله – سبحانه- «قد أودع في الفطرة التي لم تتنجس بالجحود والتعطيل، ولا بالتشبيه والتمثيل أنه -سبحانه- الكامل في أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسله، وما خفي عن الخلق من كماله أعظم وأعظم مما يعرفونه منه» (الحنفي: شرح. 1385هـ، ص33).

(2) الدليل العقلي على توحيد الذات دليل على توحيد الأسماء والصفات، أي أن كل الأدلة على وجود الله – تعالى- دالة على توحيده في أسمائه وصفاته إذ ليس ثمة ذات إلا وهي متصفة بصفات، وإلا كانت ذاتاً مجردة ولم تكن وجوداً حقيقياً. ومن هنا إذا استعرضنا الظواهر الدالة على وجود الله – تعالى- وأنه واحد في ذاته استطعنا أن نستدل بهذه الظواهر على أنه – سبحانه- واحد في أسمائه وفي صفاته، كما تدل هذه الظواهر على ضرورة أن يكون لخالقها أسماء وصفات حسنى وعلى سبيل المثال:

فظاهرة الحياة تدل على ذات واحدة أعطت الأحياء حياتها، وأن هذه الذات المانحة للحياة لا يمكن إلا أن تكون متصفة بصفة الحياة، فإن فاقد الحياة لا يمنح الحياة لأحد إذ إن فاقد الشيء لا يعطيه، ولهذا ثبت اتصافه -سبحانه- بصفة الحياة. والحياة صفة والمتصف بها يثبت له اسم الحي، وطالما هو مانح الحياة فهو المحيي والقادر على الإحياء، ولا بد أن يكون قادراً على الإماتة فهو المميت. وهو الخالق وهو المعطي والمانع والباري والمعيد.. وهكذا تثبت وحدانية الله -تعالى- وتثبت له أسماؤه المتعلقة بهذه الظاهرة.

تدريب (6)

اشتق أسماء الله – تعالى- من كل ظاهرة من الظواهر التالية: الهداية والإجابة والإرادة والحكمة.

(3) أما وقد دل العقل على ضرورة اتصاف الله -تعالى- بصفاته وأنه له أسماء تدل عليها الظواهر الدالة على وجوده، فإن معرفة هذه الأسماء والصفات كما يليق به سبحانه دل عليها الوحي؛ لأنه لا يعرف الله -تعالى- معرفة حقيقة إلا الله -سبحانه-، فقد عرَّفنا بنفسه، ذاته وأسمائه وصفاته بما يليق بوجهه الكريم في القرآن الكريم وفي

السنة النبوية، إذ إن المخلوق لا يحيط بالخالق كما قال -تعالى-:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: 103).

(4) عدد هذه الأسماء كما في الحديث الشريف مما علمنا الله - تعالى- تسعة وتسعون اسماً، وقد ورد تفصيلها في كتب السنة، وإن اختلفت الروايات في سردها، ومن العلماء من يرى أن أحاديثها مرفوعة إلى النبي ﷺ، ومنهم من يرى أن تفاصيل هذه الأسماء إنما هو من حفظ الرواة وإدراجهم، ولذلك حصل اختلاف في روايات سردها.



نشاط(4)

راجع كتاب البيهقي: (الاعتقاد 1984م، ص20-30).
وكتاب البيهقي: (الأسماء والصفات).
وكتاب الرازي: (شرح أسماء الله الحسنى 1970م، ص153- 354).
وكتاب الشرباصي: (وله الأسماء الحسنى).
واكتب بحثاً موجزاً في أسماء الله الحسنى ومعانيها بحيث لا يزيد شرح كل اسم عن ثلاثة أسطر. اعرض بحثك هذا على مشرفك.

أظنك - أخي الدارس- بعد قيامك بهذا النشاط في كتابة بحث في أسماء الله الحسنى، ومعرفة معانيها، بات من المناسب أن أضع لك بعض الضوابط في فهمها:

(5) ضوابط في فهم الأسماء والصفات:

أ- إن أسماء الله -تعالى- توقيفية والصفات منها ما هو توقيفي، ومنها ما هو مشتق من الأسماء.

ب- أسماء الله ليست مقتصرة على التسعة والتسعين وليست محددة ومحصورة بها، ولكن هذه الأسماء هي التي أُمرنا أن ندعوه بها، بدليل قوله ﷺ «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك...» (أخرجه أحمد وصححه ابن حبّان. انظر الكاتب: عقيدة ابن حجر. 1938م، ص137). فالحديث ينص على أن لله أسماء استأثر بها في علم الغيب عنده، ولم يُعلّمها أحداً من خلقه.

ج- إن ما علمنا الله من أسمائه الحسنى وصفاته العليا إنما هو بالقدر اللازم الذي تحتمله عقولنا وأفهامنا وفطرنا، وبالقدر اللازم الذي تستلزمه مهمة وجودنا ووظيفتنا في هذه

الأرض. ولهذا فلا يصح لنا أن نخرج في مناهج بحثنا عن هذا القد، وإلا وقعنا في تشريح عقلي للذات الإلهية كما فعل الفلاسفة وعلماء اللاهوت، وكثير من متكلمي المسلمين. فلنلتزم –إذاً– بمنهج القرآن والسنة في معرفتنا لله – سبحانه– بأسماء هو سمى نفسه بها، وبصفات وصف بها نفسه وما يمكن اشتقاقه من صفات من أسمائه الحسنى.

د- إن اختلاف الروايات في تحديد التسعة والتسعين اسماً إنما هو لحكمة يعلمها الله – تعالى–، وربما لنجتهد في التزام معانيها ودعاء الله بها. وهذا هو معنى قوله ﷺ «من أحصاها دخل الجنة»، ذلك أن إحصاءها لا يعني مجرد عدها، بل من حفظها متفكراً في مدلولاتها معتبراً معانيها عاملاً بمقتضاها مقدساً لمسماها. (النووي: شرح صحيح مسلم. جـ16 ص 5– 6. العسقلاني: فتح الباري. ج13 . ص322).

4.4.4 أقسام الصفات

ولتسهيل فهم الصفات قام العلماء بتقسيمها:

أ– فمنهم من قسمها قسمين: صفات ذات وصفات فعل، وهذا ما جرى عليه (البيهقي في التقسيم في كتابه الاعتقاد 1948م. ص30–43) وإليك بيان ذلك:

(1) صفات الذات: وهي صفات يستحقها الرب – تبارك وتعالى– فيما لم يزل ولا يزال، وهي من حيث دليلها نوعان:

أحدهما: ما كان طريق ثبوتها العقل مع ورود الشرع به مثل: صفات: الوجود والقدم والملك والجلال والعظمة والعزة والكبر.

ثانيهما: ما كان طريق ثبوتها الدليل الشرعي فقط وتسمى صفات خبرية أي وردت من طريق الخبر أو الوحي وهي عند مدرسة الحنابلة أو ما سموا بالسلفية صفات اليد والوجه والعين والاستواء والضحك والغضب وسائر ما جاء في الشرع من هذا القبيل.

(2) صفات الأفعال: وهي صفات يستحقها الباري – سبحانه– فيما لا يزال دون الأزل، أي أن الله – سبحانه– له هذه الصفات القديمة وهي قائمة بذاته –تعالى–، ولكن متعلقات هذه الصفات أو تجلياتها أو آثارها لم تكن قائمة بذاته ولا أزلية قديمة مثل صفة الخلق والرزق والإحياء والإماتة وما في معاني هذه الصفات أي وهي صفات تدل على تأثير وتعرف باعتبار آثارها.

ب– وقسم الأشاعرة الصفات على النحو التالي:

(1) الصفات النفسية: والمراد بها صفة نفسية ثبوتية يدل الوصف بها على الذات نفسها بدون معنى زائد، وهي صفة واحدة وهي صفة الوجود، ومعناها أن الله له صفة الوجود الأزلي الأبدي المطلق الكامل وكل وجود أو موجود سواه فإنما يستند إلى وجوده - سبحانه وتعالى-.

(2) الصفات السلبية: وهي الصفات التي تنفي أو تسلب عن الذات الإلهية ما لا يليق بها، وسميت سلبية لأنّ السلب جزء من معناها، فالوحدانية عدم التعدد والقدم عدم الحدوث، والمخالفة عدم المماثلة، وإنما قلت هذا؛ لأنه قد يتبادر إلى ذهن الطالب أن القدرة تسلب العجز والإرادة تسلب الإكراه والجبر فصفات الله كلها تنفي عنه ما لا يليق به، لكنهم حينما عرفوا القدرة لم يعرفوها بأنها عدم العجز، والعلم عدم الجهل...

وهي أكثر من أن تحصى إذ كل ما خطر ببالك من أمر في عالم المخلوق فالله - سبحانه- بخلاف ذلك، فإن المخلوق متصف بالحدوث والفناء والعجز والمحدودية والنسبية والجسمية وغير ذلك والله - سبحانه- منزه عن كل ما يتصف به المخلوق.

وقد اختصرها العلماء في خمس صفات رئيسة:

إحداها: صفة الوحدانية ومعناها نفي التعدد عن الله - سبحانه-، بنفي الشريك والند والضد والمثل والكفؤ له - سبحانه-، ونفي التركب والتبعض عنه - سبحانه-. وكما يسميها العلماء نفي الكم المنفصل ونفي الكم المتصل. وهي كما ترى معناها سلبية أي تسلب عن ذات الله التعدد.

وثانيها: صفة القدم: و معناها عدم وجود بداية في الزمان لوجوده - سبحانه-، فهو الأول الذي لا شيء قبله.

وثالثها: صفة البقاء، ومعناها امتناع لحوق الفناء بذاته - سبحانه- فهو الآخر الذي لا شيء بعده

رابعها: صفة المخالفة للحوادث، ومعناها عدم مُماثلته - سبحانه- للمخلوقات، فهو ليس كمثله شيء.

وخامسها: صفة القيام بالذات، ومعناها أن ذاته - سبحانه- لا تقوم لغيره ولا تستند إلى ذات أخرى، فهو - سبحانه- الغني الصمد القيوم.

(3) صفات المعاني: وهي صفات قائمة بذاته - تعالى- يستلزم اتصافه بها حكماً معيناً **وهي سبع صفات:**

الأولى: صفة العلم، وهي صفة أزلية قائمة بذاته - تعالى- يتأتى بها انكشاف الأمور والإحاطة بها على ما هي عليه في الواقع وفي الأمر نفسه.

الثانية: صفة القدرة، وهي صفة أزلية قائمة بذاته - تعالى- يتأتى بها إيجاد المخلوقات وإعدامها، فهي صفة تأثيرية في الأشياء كما ترى.

الثالثة: صفة الإرادة ويتأتى بها تخصيص المخلوقات مما يجوز عليها من الأحوال والألوان والهيئات والصفات، وهي صفة تأثيرية أيضاً.

الرابعة: صفة الحياة ويتأتى بها ثبوت جميع الصفات؛ لأن الحياة شرط اتصاف الموصوف بكل صفاته.

الخامسة والسادسة: صفتا السمع والبصر ويتأتي بهما الإدراك التام على نحو يليق به - سبحانه وتعالى-.

والسابعة: صفة الكلام وهي صفة قائمة بذاته - تعالى- هو بها آمر وناه ومخبر.

وكما أن هذه الصفات عند الأشاعرة صفات معاني إلا أنها صفات ذات كذلك عندهم.

ج- وقد أضاف الحنابلة أو السلفية صفات أخرى سموها الصفات الخبرية - كما سبق أن تحدثنا عنها في صفات الذات- وهي في الأصل إطلاقات أو ألفاظ أو عبارات وردت في الخبر من الكتاب والسنة، دار من حولها البحث هل هي صفات أم لا؟ هل هي من قبيل المُحكم أو من المتشابه؟ هل تؤوّل أم أنه لا يصح تأويلها، وحيال هذه كانت هنالك مدارس فكرية ثلاث: المعتزلة والأشاعرة والسلف - كما سنوضح لك قريباً - إن شاء الله تعالى-. ومن هذه الإطلاقات قوله - تعالى-:

(وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ) (الرحمن: 27).

(تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا) (القمر: 14).

(ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ) (الأعراف: 54، يونس: 3، الرعد: 2).

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) (الفتح: 10).

(ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ) (الملك: 16).

ومنها ما ورد في السنة النبوية منها قوله -عليه الصلاة والسلام-:

«إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحّاء الليل والنهار. أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم ينقص ما في يمينه، وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الفيض أو القبض - يرفع ويخفض» (البخاري (فتح)، جـ13، كتاب التوحيد ص.403).

ومنها قوله - عليه الصلاة والسلام-: «..خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته..» (المرجع السابق ص392).

وقوله «يا محمد إن الله يمسك السموات على أصبع والأرض على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع والخلائق على أصبع، ثم يقول أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قرأ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ (الأنعام: 91)
(المرجع السابق393).

وما ورد فيه ألفاظ وإطلاقات أخرى على هذه الشاكلة في الكتاب والسنة، عدَّه السلفية صفات ذات لله – تعالى–. وعلى هذا فصفات الذات عند الحنابلة تضم صفات المعاني والصفات الخبرية.

مع وجود اضطراب في قولهم في بعض الصفات الخبرية كما نقل عنهم صاحب تفسير المنار في تفسير قوله – تعالى– ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة:1) حيث عدها بعضهم صفة ذات وعدها آخرون صفة فعل، وكذلك قيل في الرضى والغضب (الكواشف الجلية: 429).

5.4.4 آراء علماء المسلمين في الصفات

عرفت – أخي الدارس– أسماء الله – تعالى– وصفاته وأقسامها، فكيف نظر علماء المسلمين أو المدارس الإسلامية في التفكير إلى هذه الصفات من حيث إثباتها أو نفيها، ومن حيث فهمها؟ كانت هناك ثلاث مدارس رئيسة: المعتزلة والأشاعرة والسلفية. وسنعرض لك مختصر مواقف هذه المدارس الثلاث من قضية الصفات:

(1) رأي المعتزلة:

يثبت المعتزلة الصفة النفسية والصفات السلبية لله – تعالى–. ذلك أن صفة الوجود لا تعني سوى ذات الله – سبحانه–، والصفات السلبية فيها تنزيه الخالق – سبحانه– بنفي ما لا يليق به. ولكن موقفهم من صفات المعاني السبع هو النفي فهم لا يقولون بثبوت هذه الصفات حفاظاً على الوحدانية من كل وجه في نظرهم، حيث تسرب إليهم من الفكر الفلسفي مفهوم "واحد أفلوطين" أي الإله الواحد المجرد البسيط الحقيقي الذي لا يتكثر بوجه من الوجوه، فكما لا يتعدد في الخارج بنفي المثيل أو الشبيه. ولا يتركب من أجزاء، فهو أيضاً لا يتعدد في الذهن فلا يصح أن تتعدد المعاني عنه، ولذا فإن ثبوت صفات المعاني – في نظرهم– يخل بوحدانية الله – تعالى–؛ لأن هذه المعاني متعددة ومتكثرة ومتخالفة في معانيها وهذا تكثر أو تعدد ذهني أو عقلي، والله – في نظرهم– واحد لا يوصف ومجرد من الصفات، فلا الواقع يعدده ولا الذهن يصفه. (الكردي: علاقة، 1980م، ص88).

ومستندهم العقلي في هذا النفي لصفات المعاني:

1. أن الله – تعالى– لو كانت له صفات المعاني هذه، لكانت قديمة فإذا أثبتنا صفات قديمة والذات قديمة تعدد القدماء في الوجود وهذا تعدد وشرك، فمن أثبت صفة أثبت تعدد الإله. وتعدد الإله باطل. أي لو شاركته صفات في القدم لشاركته في الالوهية. (السابق: 89) وقد كفر النصارى بالقول بثلاثة أقانيم فكيف من يقولون بسبع صفات قديمة؟ (التفتازاني: شرح المقاصد:4/ 72\).
2. أنه لو ثبت أن لله – تعالى– صفات لكان لكل صفة معنى مختلف عن معنى الصفة الأخرى، وهذا يقود إلى تعدد المعاني، وبالتالي فإن الذات الإلهية مركبة من مجموعة من المعاني المتغايرة، والتركب أمارة الحدوث؛ لأن المركب يحتاج إلى من يركبه وهذا إخلال بالوحدانية.
3. لو ثبت لله صفات، وكل صفة واجبة الوجود، وهي مستغنية بوجودها عن العلة، وإذا كانت مستغنية بوجودها كانت مستغنية عن الذات القديمة، وهذا يؤدي إلى كثرة في واجب الوجود المستغني عن الله، وهذا باطل ينافي التوحيد (القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة 1956م. ص199).

ولهذا نفى المعتزلة ثبوت صفات المعاني عن الله – تعالى–، وأوّلوا كل ما ورد في الكتاب والسنة من ألفاظ ذات مدلول يدل على الصفات، على أنها الذات، فمثلاً: أولوا العلم في قوله – تعالى–:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ) (البقرة:255).

بأنه معلوماته.

وكذا العلم في قوله –تعالى–:

(فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ) (الأعراف:7).

أي ونحن عالمون.

وأولوا القوة في قوله –تعالى–:

(هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) (فصلت:15).

بالاقتدار أي كونه قادراً، وكونه قادراً في نظرهم ليس إلا كونه موجوداً، وبالتالي فلا ثبوت لصفات المعاني، ولا زيادة للصفات على الذات.

أما موقف المعتزلة مما سمي بالإطلاقات الخبرية من اليد والأعين واليمين والوجه والاستواء وغيرها، فلا شك أن نفي المعاني الظاهرة من هذه الألفاظ أمر طبيعي تنزيهاً لله

- تعالى- عن الجسمية وعن مماثلة المخلوقات إذ (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ولذا فلا يمكن إطلاق هذه العبارات على أنها صفات مطلقاً حفاظاً على التنزيه للذات الإلهية من وجهين:

الوجه الأول: نفي المماثلة والجسمية والتبعيض والأعضاء **والوجه الثاني:** عدم ثبوت صفات لله - تعالى- تحمل معاني زائدة عن ذاته لما يخل بالتوحيد البسيط الحقيقي الذي لا يتكثر بوجه من الوجوه، جرياً علي قاعدتهم في نفي صفات المعاني.

وكان موقفهم منها التأويل، وهو إخراج هذه الإطلاقات عن المعنى الحقيقي المتبادر منها إلى المعنى المجازي لها في اللغة، فإنه إذا تعذرت إرادة المعنى المتبادر للفظ لقرينة صارفة من استحالة عقلية أو شرعية وجب أن يكون اللفظ دالاً علي معنى آخر هو المعنى المجازي. ولهذا أولوا اليد بالقدرة والقوة، والأيدي بالنعمة، والعين والأعين بالرعاية والحفظ والوجه بالذات، والاستواء بالقهر والغلبة وهكذا، وللمزيد من المعرفة أنظر (القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة.1965م، ص226-228).

ولا شك أن المعتزلة مخطئون في نفيهم لصفات المعاني والقول بأن الصفات هي الذات عينها؛ لأن تعدد المعاني عن الذات الواحدة لا يؤدي إلى تعددها في الخارج، وأن تغاير المعاني عن الذات الواحدة لا يؤدي إلى تركب الذات من متغايرات. فإن هذا التعدد والتغاير للمعاني إنما هو ذهني عقلي.

وفي الواقع المشاهد نجد أننا نتحدث عن واحد في الخارج ونصفه بمعان كثيرة، وهذا لا يؤدي إلى تكثره خارجاً. فالذهن أو العقل لا يحكم على الواقع ولا يستدعيه، فإن المستحيل موجود في الذهن أو العقل، ولكن ليس موجوداً في الخارج، والعقل يفرض المستحيلات ذهناً ولكن فرضه لها لا يستلزم وجودها في الواقع.

(2) رأي الأشاعرة من أهل السنة:

عرفت - أخي الدارس- موقف مدرسة المعتزلة من الصفات، وأدركت أن هذه المدرسة اعتزلت في تفكيرها وموقفها أهل السنة، وكانت لها مواقف فكرية متأثرة بالفلسفة كما رأيت. كما عرفت خطأ موقفها من نفي الصفات حفاظاً على توحيد الذات - كما تزعم-.

ويجدر بنا أن نبين لك من هم الأشاعرة من أهل السنة.

أهل السنة هي المدرسة الكبرى الجامعة باعتبارها الفرقة الناجية - بإذن الله تعالى-، وهي مدرسة بقيت تدافع عن العقيدة الإسلامية يوم أن تفرقت الأمة على فرق

كثيرة خوارج ومعتزلة وكرامية وشيعة وغير ذلك، وهي مدرسة الأئمة الأربعة وسائر أئمة الحديث والفقه والأصول والتفسير وأهل النحو والأدب ومن هو على فهمهم من جماهير المسلمين.

وبرزت في هذه المدرسة مدرستان كبيرتان إحداهما المدرسة السلفية أو الحنابلة نسبة إلى الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى-، والأخرى مدرسة الإمام أبي الحسن الأشعري وتسمى بالأشعرية، ويسمى علماء هذه المدرسة المشتغلين بمسائل علم التوحيد والكلام بالأشاعرة وكلتاهما مدرسة أهل السنة، ولا تنظر إلى روح التعصب الموجودة في بعض كتب كل من هاتين المدرستين إذ تنفرد بتسمية نفسها أهل السنة وتقصر هذا المصطلح على نفسها.

والمدرستان كلتاهما تقران بثبوت الصفات النفسية والصفات السلبية وصفات المعاني لله - تعالى-، لا خلاف بينهما في هذا إطلاقاً.

ولنأت إلى رأي الأشاعرة بالتفصيل:

يقر الأشاعرة بثبوت الصفات النفسية والسلبية والمعاني لله - تعالى-، وهذا التقسيم والاصطلاح لهم. ويعدون أن إثبات الأسماء والصفات هو التوحيد خلافاً للمعتزلة - الذين يعدون نفي الصفات ضرورة التوحيد - دفاعاً عن العقيدة وعن التوحيد من خطر الفكر الفلسفي والفكر المعتزلي.

يقرر الإمام أبو حنيفة هذه العقيدة لأهل السنة قبل الإمام الأشعري فيقول «لا يشبه شيئاً من الأشياء من خلقه، ولا يشبهه شيء من خلقه.. - ويعود فيقول: وصفاته كلها بخلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، ويسمع لا كسمعنا ويتكلم لا ككلامنا... لم يزل ولا يزال بأسمائه وصفاته، لم يحدث له اسم ولا صفة في الأزل... وصفاته في الأزل غير محدثة ولا مخلوقة، فمن قال أنها مخلوقة أو محدثة أو وقف أو شك فيها فهو كافر بالله -تعالى- (أبو حنيفة: الفقه الأكبر، 1324هـ. ص2) ويقرر الآمدي - من علماء الأشاعرة- هذه المعاني بقوله:

«ذهب أهل الحق أن الواجب بذاته مريد بإرادة، عالم بعلم، قادر بقدرة، حي بحياة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام. وهذه كلها معان وجودية زائدة على الذات» (الآمدي: غاية المرام. 1971م، ص38).

وقد أثبت الأشاعرة جميع هذه الصفات بالأدلة العقلية والأدلة الشرعية، وقالوا بتقسيماتها المعروفة هذه كما وافقوا الحنابلة في تقسيمها إلى صفات ذات وإلى صفات فعل (كما فعل الباقلاني في الإنصاف: 1963م، ص25) (وكما فعل البيهقي في الأسماء والصفات).

ولكن الأشاعرة لا يثبتون الصفات الخبرية، أي لا يفهمون الإطلاقات الواردة في الكتاب والسنة من الأيدي والأعين واليمين والاستواء والقدم وغيرها على أنها صفات، ولكنهم يعتقدون أن التنزيه لله - تعالى- يقتضي تأويلها إلى معانيها المجازية لا على قاعدة نفي الصفات كما عند المعتزلة، ذلك أنهم يثبتون صفات المعاني، ولكن جرياً على قاعدة

التنزيه لله – تعالى– عن المماثلة والتجسيم والتبعيض والأعضاء، ويعتقدون أن التوحيد لا يمنع تأويلها، حسب ما تحتمله وجوه اللغة العربية، ذلك أن القرآن بلسان عربي مبين والحديث النبوي له بيانه، وأن البيان في اللغة إذا تعذرت إرادة المعنى الحقيقي المتبادر من اللفظ لقرينة صارفة عقلية أو شرعية وجب أن نأخذ بالمعنى المجازي للفظ، بحسب ما تحتمله وجوه اللغة العربية حتى لا يكون التأويل تحريفاً، أو اعتداء على النص بالهوى. ولذلك أولوا اليد بالقدرة والأيادي بالنعمة والوجه بالذات والاستواء بالغلبة والقبضة بالسيطرة والتمكن، وهكذا. (الرازي: التغير. جـ12، ص43 – 49، جـ29 ص39. والآمدي: غاية المرام1971م، ص 136–137–138).

(3) رأي السلفية أو الحنابلة.

وهي المدرسة الثانية من أهل السنة. ولا يختلف رأيها عن رأي الأشاعرة في ثبوت الصفات النفسية والسلبية وصفات المعاني، وهم يعبرون عنها بصفات الذات وصفات الفعل، ويرون أن في ثبوت هذه الصفات توحيد الذات، ويخالفون المعتزلة، حيث يرون توحيد الأسماء والصفات.

ولكن موقفهم متفرد في فهم الإطلاقات الواردة في الكتاب والسنة. مما يوهم ظاهرهُ التشبيه، فهم يرون أن هذه الإطلاقات صفات ذات لله – تعالى–، وإن كان دليلها الشرع، وليس العقل. ذلك أنه وجب أن نثبت له – تعالى– كل ما أثبته لنفسه ولا نفرق بين صفة العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والحياة حيث هي صفات أثبتها –تعالى– لنفسه مع التنزيه عن المشابهة لخلقه، وبين ما أثبته لنفسه من اليد والعين والرجل والقدم واليمين والقبضة والضحك والغضب والاستواء بدون الدخول في تأويل هذه الصفات أو البحث في تكييفها، فنحن نثبت أنها صفات ونفوّض في كيفيتها لله – تعالى–.

وهم مع قولهم بأنها صفات ينفون مشابهتها لصفات المخلوقين فيقولون نثبت لله يداً لا كأيدينا، ورجلاً لا كأرجلنا، وأعينا لا كأعيننا.. وهكذا ولا يوافقون المعتزلة ولا أهل السنة الأشاعرة على تأويلها، ويعدون من يؤول هذه الصفات معطلاً للذات الإلهية معتدياً على صفات الذات لله – تعالى–.

ويمثل هذا الرأي علماء الحنابلة جرياً على مذهب الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من أهل الحديث كالأوزاعي والثوري وأئمة الحنابلة بعد ذلك والإمام أبو الحسن الأشعري في أحد قوليه.

يصور ابن تيمية تصور السلف وطريقتهم في فهم هذه الصفات، فيقول: «وقد علم أن طريقة السلف وأئمتها إثبات ما أثبته الله – تعالى– لنفسه من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل. وكذلك ينفون ما نفاه عن نفسه مع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد، لا في أسمائه ولا في آياته، فإن الله – تعالى– ذم الذين

يلحدون في أسمائه وآياته، كما قال – تعالى–:

(وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) (الأعراف: 180).

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ) (فصلت: 40).

فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات بلا تشبيه، وتنزيها بلا تعطيل (ابن تيمية: الرسالة التدمرية، 1399هـ، ص5-6).

وقد رد ابن تيمية على المؤولين لهذه الصفات بأصلين:

الأصل الأول: أن يقال إن القول في بعض الصفات كالقول في بعض، فإن كان المخاطب ممّن يقول بأن الله حي بحياة، عليم بعلم، قدير بقدرة – ويقصد هنا الأشاعرة – ويجعل ذلك حقيقة وينازع في بقية الصفات الثابتة في الشرع –أي الخبرية– فيجعلها مجازاً ويؤولها، أن يقال له:

لا فرق بين ما لقيته، وبين ما أثبته، فإن قلت الإرادة لله مثل إرادة المخلوقين وقعت في التمثيل والتشبيه. وإن قلت إرداة الله غير إرادة المخلوقين، فنحن نقول أيضاً يد الله لا كيد المخلوقين فما الفرق بين ما أثبت مع التنزيه وما أثبتنا مع التنزيه.

وإن قال: إن طريقة إثبات الصفات التي نقول بها العقل ولا دليل لكم من العقل على ثبوت الصفات الخبرية، يرد عليه بأن عدم الدليل ليس دليلاً على عدم المدلول، فإن كان الدليل العقلي لا يثبتها، ولكنه لا يملك أن ينفيها، وقد رد عليها دليل من الشرع، ولا بد للعقل أن يسلم بما ورد به الدليل الشرعي.

والأصل الثاني: إن القول في الصفات كالقول في الذات، ونحن الحنابلة متفقون معكم على أن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كان له ذات حقيقية لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقية لا تماثل سائر الصفات.

وإن سأل سائل عن الكيفية في الصفة يرد عليه بأن العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف، فكيف يطالب بكيفية الاستواء والنزول واليد والعين وهو لا يعلم كيفية الذات الإلهية؟.

- خلاصة:

أظنك – أخي الدارس– بعد هذه الجولة من توحيد الأسماء والصفات، ومعرفة آراء المدارس الإسلامية، قد دخلت آفاقاً واسعة، وخضت في أمور فيها من الصعوبة ما فيها، وأين نقف الآن بعد كل هذا؟.

ولذا فإني أقدم لك تقويماً سريعاً عله يختصر عليك التقويم لكل ما سمعت ويريحك من عناء التفكير في أعقد مسألة من مسائل علم الكلام.

خلاصة الأمر: أن المعتزلة فرقة متأثرة بالفلسفة العقلية التي أخذت بمفهوم تجريدي للألوهية، وهذا النفي لصفات الله - تعالي- يخرج الربوبية عن الفاعلية، ويعطلها عن الخلق والتدبير، ويخرج الألوهية عن الفهم ويخرج التوحيد عن المفهوم الصحيح للعبادة. فإثبات الصفات لله -تعالى- يجعل العبد داعياً لعبادة رب يعرفه، وإله مسيطر يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتجعل علاقة العبد بالرب علاقة ذات عابدة لذات إلهية معبودة. والمعتزلة كانت مجتهدة في تقرير عقيدة التوحيد مع وقوعها في خطأ لا نقرها عليه ولكن مناقشتها للفلاسفة ودفاعها عن التوحيد لم يحل دون تأثرها بهذا المفهوم لدى الفلاسفة.

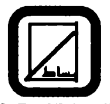
وأما ما دار في داخل مدرسة أهل السنة من نقاش من الأشاعرة والسلفية، فهما كلاهما يقرآن بالصفات لله - تعالى- خلافاً للمعتزلة، وإنما كان خلافهما في الإطلاقات والعبارات الواردة في النصوص الشرعية، وكلاهما فهماها على التنزيه لله - تعالى- فالأشاعرة أخذوا بمعانيها المجازية حفاظاً على التنزيه فأثبتوها تبعاً لفهمهم لصفات المعاني، والسلفية عاملوها على أنها صفات ذات لله - تعالي-، أثبتها - تعالى- لنفسه ووصف نفسه بها فلا يصح أن نعطلها أو نؤولها، ونفهمها على قاعدة التنزيه كما فهمنا صفات المعاني، وأثبتناها مع عدم مشابهتها لصفات المخلوقين.

ويبدو لي أن كلتا المدرستين منزهة وإن اختلفتا في فهم هذه الإطلاقات، فاختلفت مواقفهما في فهم التنزيه، وفي تقرير عبارة التنزيه، ولكل مدرسة حججها المقنعة، ومسوغاتها الواضحة في موقفها.

فالمدرسة السلفية كانت تخشى من القول بتأويل هذه الألفاظ الخبرية خوفاً من مدرسة المعتزلة المعطلة للصفات، فقالت بثبوتها صفات.

ومدرسة الأشاعرة كانت تخشي من مدرسة التجسيم فقالت بتأويلها مع إقرارها بسائر صفات المعاني.

واعتقد أن هذه القضية ليست من مجمل الاعتقاد، فكلا المدرستين مصيبة مع اختلاف المواقف وهي من تفاصيل الاعتقاد الذي لا يتيسر لعامة الناس والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل.



نشاط(5)

اكتب تقريراً أو ملخصاً لا يزيد عن عشر صفحات للباب الثالث من كتاب «علاقة صفات الله بذاته» للدكتور راجح عبد الحميد الكردي في قضية التنزيه بين التشبيه والتعطيل وقدمه لمشرفك.

أظنك بعد قراءة هذا القسم من أقسام الوحدة والقيام بالتدريبات اللازمة والأنشطة المطلوبة. قد استكملت فهم المادة. ويمكنك أن تجيب الأسئلة التالية.

؟

أسئلة التقويم الذاتي (7)

1- ما الفرق بين مفهوم التوحيد عند كل من أهل السنة والمعتزلة؟.

2- هات دليلين على توحيد الأسماء والصفات.

3- ما معنى الإلحاد في قوله -تعالى-: (وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ) (الأعراف: 180).

4- ضع إشارة (√) على رمز الإجابة الصحيحة فيما يلي:

(أ) أسماء الله - تعالى- وصفاته اجتهادية فقط.

(ب) أسماء الله - تعالى- توقيفية وصفاته توقيفية ومشتقة من أسمائه.

(ج) أسماء الله - تعالى- وصفاته توقيفية فقط ولا يجوز الاشتقاق.

(د) أسماء الله - تعالى- اجتهادية وصفاته توقيفية.

5- علل اختلاف العلماء في تحديد التسعة والتسعين من أسماء الله -تعالى- الحسنى.

6- عدد أقسام الصفات السلبية؟.

7- أكمل العبارة التالية بملء الفراغ بالكلمة المناسبة:

(1) صفة الوجود صفة وصفة واحدة هي ....

أما صفات المعاني هي.............. وصفة .... وصفة .... وصفة .... وصفة .... وصفة .... وصفة ....

(2) ينكر المعتزلة ثبوت صفات .... بينما يقرون بصفات .... في حين .... الصفات الخبرية ويؤولونها.

5. الخلاصة

أخي الدارس: ما الذي ناقشناه في هذه الوحدة؟.

أرجو أن تكون قد وفقت في دراسة هذه الوحدة من مقرر العقيدة الإسلامية (1).

وقد حاولنا أن نطرح فيه عدداً من الموضوعات الأساسية التي تشكل الركن الأول من أركان الإيمان، وهو ركن التوحيد. ذلك أن العقيدة الإسلامية تقوم على هذا الركن. وكما رأيت فقد قسمنا الموضوع وتدرجنا في عرضه منطقياً. حيث عرضنا الأدلة الفطرية والكونية على وجود الله – تعالى– بحيث تعمق ايمانك، وتجعلك قادراً على الاستدلال على هذه القضية، ويمكنك من رد شبهات الملحدين، وما أكثر هذه الأدلة المثبوتة في النفس والآفاق، إذ كل ما سوى الله – سبحانه– دليل على وجوده وعظمته.

ثم انتقلنا إلى معنى التوحيد، حيث هو القضية الرئيسة في معنى العقيدة، ومعركة الإسلام مع الجاهلية غالباً في التوحيد فإن المشركين يسيئون النظر إلى الألوهية، فهم يعترفون بوجود الرب – سبحانه–، ولكنهم لا يعترفون بلازم هذه الربوبية وهو الألوهية، فتحدثنا عن توحيد الربوبية وأدلته، وضرورة توحيد الألوهية التي تعني عبادة الله وحده في كل شأن من شؤون الحياة، وكل نشاط من نشاطات الإنسان، فأزلنا الغبش عن التصور، وقررنا شمول مفهوم الألوهية الواحدة لكل أنماط العبودية من مشاعر وشعائر وشرائع، وبهذا يتميز التوحيد عن الشرك، والإيمان عن الكفر، والإسلام عن الجاهلية.

وتوحيد الله – تعالى– يقوم على معرفته – سبحانه– وعلى قصده والتوجه إليه وحده – سبحانه–، وهذا تقسيم آخر للتوحيد لا من جهة الموحد أو المعبود (ربوبيته وألوهيته) ولكن من جهة العابد العارف، فهو يثبت توحيد ربه ويعرفه، ويعبده وفق ما عرفه، ومن ثم كان هذا التقسيم للتوحيد: توحيد الإثبات والمعرفة وتوحيد القصد والطلب.

وكي يعرف العبد توحيد ربه تمام المعرفة، عرضنا لك توحيد الأسماء والصفات، إذ بمعرفتها يعرف الله – سبحانه وتعالى–. وقد أثبتنا لك تقسيم الأسماء الحسنى وأقسام الصفات الإلهية، بما يساعدك على الفهم.

كما عرضنا طريقة العلماء في تقسيم الصفات، خدمة لمعرفة الله –تعالى– بأسمائه الحسنى وصفاته العليا؛ لتكون الألوهية حقيقة فعالة، وهذا ما يميزها عن المفاهيم الفلسفية المجردة. كما عرضنا هذه الصفات بما يحقق مفهوم تنزيه الله –تعالى– من التجسيم المادي وعن التجريد العقلي. وطرحنا آراء المدارس الفكرية الثلاث الكبرى؛ مدرسة المعتزلة بصفتها مدرسة متأثرة بالفكر الفلسفي في مفهوم التوحيد، ومدرسة الأشاعرة، وهي المدرسة الكبرى لأهل السنة والمدرسة السلفية، وهي المدرسة الأخرى لأهل السنة. وكان موقفهما واحداً في وجه المعتزلة نفاة الصفات، وإن اختلفت عبارتاهما في موضوع جزئي من موضوع الصفات، وهو فهم الآيات والأحاديث التي تتضمن ألفاظاً، أو إطلاقات قد توهم التجسيم، فأثبتها الأشاعرة صفات بالتأويل لها إلى صفات الفعل، بينما رفض السلفية تأويلها وعدوها صفات ذات خبرية، فأثبتوها كما هي بدون تكييف، أو تمثيل، أو

تعطيل، أو تأويل.

وبهذا ترى التنوع في الفهم مع كون هاتين المدرستين أهل السنة والجماعة.

وبهذا أصبحت قادراً على التمييز بين آراء هذه المدارس، وقادراً على نقد كل رأي وتقويمه.

اقترح عليك – أخي الدارس– بعد قراءة هذه الوحدة أن تعود لقراءة أهدافها، ليتأكد لك أن هذا العرض للوحدة قد حقق تلك الأهداف أم لا؟ وقبل أن تحكم تأكد من القراءة، وتأمل حتى تكون منصفاً في حكمك.

ولا تنس أننا طلبنا منك حل التدريبات المبثوثة في الوحدة، للتركيز على بعض المعاني فيها، وللوقوف على بعض الصعوبات للتأكد من العودة إلى النص لتسهيل فهمها.

ولا تنس القيام بالنشاطات المطلوبة منك، فإنها تؤكد لك مفاهيم هذه الوحدة، وتزيد معرفتك بها واستكمال تفاصيلها وبهذا نكون قد وصلنا بك إلى ما نأمله ونرجوه من دراسة هذه الوحدة من المقرر. واقترح عليك بعد ذلك كله أن تعيد قراءة الخلاصة مرة أخرى لتتأكد من أننا فعلاً قد غطينا الأفكار الرئيسة لهذه الوحدة، وحققنا أهدافنا في ضوء استيعابك الشخصي لها.

6. لمحة عن الوحدة الدراسية الثالثة

كما ترى فقد ناقشنا الركن الأول من أركان الإيمان وهو توحيد الله – تعالى–. وماذا تتوقع أن نناقش في الوحدة الثالثة –القادمة–؟ بدهي أن نناقش الركن الثاني من أركان الإيمان وهو الإيمان بالملائكة، اتساقاً مع ما ورد في الآية الكريمة:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (البقرة: 285).

ذلك أن الذي لا يؤمن بالله – تعالى– لا يؤمن بالملائكة؛ لأن الملائكة مخلوقات غيبية خلقها الله – تعالى– ووظفها في وظائف محددة ومن ثم كان الإيمان بالملائكة تابعاً للإيمان بتوحيد الله – تعالى–. ولذا فإننا سنناقش فيها – باذن الله تعالى– مفهوم عالم الغيب وطريق الإيمان به، ومعنى الإيمان بالملائكة وأدلته. ثم سنعرض ما أعطانا الشرع عن طبيعة الملائكة من حيث حقيقتهم وخلقهم وصفاتهم والفرق بينهم وبين الجن كمخلوقات غيبية أيضاً.

والأهم من هذا كله هو وظائف الملائكة في عالم الغيب وعالم الشهادة. وما أثر الإيمان بهم في حياة المسلمين، وفي تعزيز عبادتهم لله –سبحانه–.

علي أي حال نرجو أن تجدها وحدة دراسية نافعة وأن ينفعك الله بها مسلماً عاملاً، ومدرساً ناجحاً.

7. إجابات التدريبات

أرجو أن تكون قد حاولت بنفسك إجابة التدريبات المبثوثة في ثنايا الوحدة. وبعد تلك المحاولة بإمكانك الآن قراءة هذه الإجابات لتتأكد لك صحة إجابتك، ولتقارن بين محاولتك ونموذج الإجابة، وإليك الإجابات الصحيحة عن كل تدريب:

تدريب (1)

الفرق بين الأدلة النقلية والعقلية: إن الدليل النقلي هو الشرعي من الكتاب الكريم، ومما ثبت من السنة النبوية أي الحديث الشريف. والدليل العقلي هو صياغة عقلية منطقية تبدأ من مقدمات وتنتهي إلى نتائج. والأدلة النقلية إنما تخاطب العقل، ولذا فإن مضمون الأدلة النقلية أدلة عقلية، ولكن التفريق بينهما من جهة مصدر الاستدلال بهما على الإيمان بالله – تعالى– فمن لا يؤمن بالله لا يقبل الدليل الشرعي لأنه أثر للإيمان بالله – تعالى–، ولهذا فنحن نستدل له بالأدلة العقلية، وطالما أن الدليل الشرعي أو النقلي يخاطب العقول فلا مانع من صياغة الدليل النقلي صياغة منطقية لنخاطب به الملحد إذ إننا نستدل له بالعقل وإن كان الدليل العقلي مأخوذاً من فهمنا للدليل النقلي .

مثال ذلك: قال – تعالى–:

(أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ) (الطور: 35-36).

دليل نقلي على اثبات وجود الخالق سبحانه.

تسلمون بالحدوث أو الخلق والحصر العقلي لا يخرج عن أن يكون سبب هذا الخلق: الصدفة أو أن الإنسان هو خالق نفسه أو أن يكون ثمة خالق ليس مخلوقاً هو السبب.

والصدفة باطلة عقلاً أو بداهة. وأن يخلق الإنسان نفسه باطل عقلاً فإن فاقد الشيء لا يعطيه، فثبت ضرورة أن يكون خالق المخلوق موجود قبل المخلوقات، وليس من جنسها.

تدريب (2)

- أول سورة الحديد: بعد قراءة آياتها نجد الآيات تدل على أن الرب هو المتفرد بالوجود وحده فهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو الذي خلق السموات والأرض وله ملك السموات والأرض وهو الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل. ا
- وأول سورة طه: فهو – سبحانه– خلق السموات والأرض واستوى على العرش وله مـ في السموات والأرض، وله الأسماء الحسنى.
- وأول سورة السجدة: نجد أنه – سبحانه– الخالق للسموات والأرض وأنه استوى على العرش، وأنه الشفيع والولي وحده وأنه مدبر الأمر وأنه عالم الغيب والشهادة.
- وأول سورة آل عمران: نجد أنه – سبحانه– الواحد الحي القيوم الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه المصور الخالق العزيز الحكيم.
- وأواخر سورة الحشر نجد أنه – سبحانه– المتفرد بأسمائه الحسنى وصفاته العليا فهو الله الذي لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ومنها: الله وعالم الغيب والشهادة والرحمن الرحيم والملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، الخالق البارىء المصور، الحكيم.
- وسورة الإخلاص بكاملها تثبت لله – تعالى– أنه الأحد، وأنه الذي تسند إليه كل الأمور فهو الصمد، وأنه لا يشبه مخلوقاته فهو لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

تدريب (3)

- الآيات الدالة من سورة الفاتحة على توحيد الإثبات والمعرفة هي: (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ) (الفاتحة: 2-4).
- الآيات الدالة من سورة الفاتحة على توحيد القصد والطلب هي: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ) (الفاتحة: 5-7).

تدريب (4)

قرأت الآيات من 10- 36 من سورة الأعراف وأخذت منها المعاني الآتية لتوحيد الألوهية:

1- من حق الله – تعالى- أن نشكره وحده، ونسجد له وحده.
2- لا بد من أن نطيعه وحده في أوامره.
3- أن نأتمر بأمره في أمر لباسنا وزينتنا.
4- أن نتخذه وحده ولياً فنأتمر بأمره بالبعد عن الفواحش والعمل بالقسط.
5- أن نخلص له وحده بالدعاء.
6- أن نحل ما أحل – سبحانه- وأن نحرم ما حرمه –سبحانه-.

تدريب (5)

بعد قراءة الآيات 25- 95 من سورة هود وتأمل صراع الرسل مع أقوامهم حول قضية الألوهية نستخرج المعاني التالية لتوحيد الألوهية:

1- الله وحده هو المعبود وعبادة الله وحده تعني توحيده في ألوهيته. ومع ذلك بترك كل ما يعبد ويقدس من أصنام وغيرها.
2- طاعته وحده في كل أمور الحياة، وترك المعاصي بأشكالها وأنواعها، فإن تلك المعاصي مؤشرات على عدم عبادة الله وحده.
3- الاعتقاد بأن الله هو النافع والضار وحده، وأن ما سواه من المعبودات لا تضر ولا تنفع.
4- استغفار الله وحده عبادة يقر بها العبد بتوحيد الألوهية.
5- التوكل على الله وحده عبادة يُقرُّ بها العبد لله وحده بالتوحيد.

تدريب (6)

- ظاهرة الهداية تدل على الأسماء: الهادي والمضل وما في معناها.
- ظاهرة الإجابة تدل على الأسماء: الغفور، الغفار، التواب، المجيب، السميع البصير وما في معانيها.
- ظاهرة الإرادة تدل على الأسماء: المريد، فعال لما يريد الوهاب، المصور وما في معانيها.
- ظاهرة الحكمة تدل على الأسماء: الحكيم العليم الخبير، وما في معانيها.

8. مسرد المصطلحات

- **الأشاعرة:** مدرسة في التوحيد: أسسها أبو الحسن الأشعري بعد رجعته عن الاعتزال دافعت عن العقيدة الإسلامية بالشرع والعقل في وجه الفرق المنحرفة من الخوارج والمعتزلة والجهمية والفلاسفة. وقد ضمت هذه المدرسة أكبر علماء المسلمين من فقهاء وأصوليين ومفسرين وعلماء لغة وغيرهم. وهي تثبت الصفات لله -تعالى- وتقول بتأويل الصفات الخبرية، وللأشعري نفسه فيها رأيان: رأي يؤولها وآخر يثبتها كما عند الحنابلة.
- **التأويل:** إخراج اللفظ عن معناه الحقيقي المتبادر منه إلى معناه المجازي لقرينة صارفة.
- **التسلسل:** توقف شيء في وجوده على شيء آخر سابق إلى ما لا نهاية من جهة الماضي وهو باطل عقلاً لضرورة الانتهاء إلى سبب للحوادث.
- **التوحيد:** إفراد الله - تعالى- الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.
- **توحيد الإثبات والمعرفة:** إثبات حقيقة ذات الله - تعالى- وصفاته وأسمائه وأفعاله.
- **توحيد الأسماء والصفات:** إفراد الله - تعالى- بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.
- **توحيد الالوهية:** إفراد الله - تعالى- بالعبادة في الطاعة في الأمر في المشاعر، والشعائر، والشرائع.
- **توحيد الربوبية:** إفراد الله - تعالى- بالخالقية والرازقية والتدبير.
- **توحيد القصد والطلب:** إفراد الله - تعالى- بالتوجه والطاعة والعبادة والاستعانة.
- **الحقيقة:** المعنى المتبادر من اللفظ.
- **الدليل:** ترتيب أمور معلومة للتوصل إلى مجهول.
- **الدليل العقلي:** نظم أو صياغة منطقية للدليل مصدره العقل.
- **الدليل النقلي:** الدليل الشرعي من الكتاب والسنة.
- **الدور:** توقف شيء في وجوده على شيء آخر مع توقف هذا الآخر في وجوده على الشيء الأول وهو باطل بداهة لاستحالة الجمع بين النقيضين.
- **السلفية:** مدرسة الإمام أحمد بن حنبل وابن تيمية وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب وبعض أهل الحديث ممن يقولون بالصفات الخبرية ويمنعون التأويل.
- **الشرك:** إشراك سوى الله - تعالى- معه، أو من غيره أو من دونه في أمور الربوبية، أو الألوهية أو الأسماء والصفات والأفعال.
- **الشرائع:** أنظمة الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.
- **الشعائر:** ما يتقرب به إلى الله - تعالى- من العبادات من صلاة وصوم وزكاة وذبح ونذر وذكر ودعاء.

- **الصفات الخبرية**: الصفات من يد وعين، ورجل واستواء ووجه وما ورد في الخبر من إطلاقات أثبتها الله – تعالى– لنفسه بدون تكييف أو تمثيل أو تعطيل. وللمدارس الفكرية اختلاف فيها فالسلفية يعدونها صفات، والأشاعرة والمعتزلة يؤولونها.
- **صفات الذات**: الصفات التي يستحقها الباري – تعالى– فيما لم يزل ولا يزال.
- **صفات الفعل**: الصفات التي يستحقها الباري – تعالى– فيما لا يزال دون الأزل.
- **الصفات السلبية**: الصفات التي تنفي عن الله – سبحانه– ما لا يليق به.
- **صفات المعاني**: صفات ثبوتية قائمة بذاته – تعالى– يستلزم الاتصاف بها حكماً معيناً.
- **العالم**: كل ما سوى الله – تعالى– مما يعلم به الخالق أو يكون يكون دليلاً عليه.
- **المعتزلة**: فرقة إسلامية أسسها واصل بن عطاء حين اعتزل مجلس الحسن البصري بسبب رأيه في مرتكب الكبيرة حيث قال بانه في منزلة بين المنزلتين توسطاً بين رأي الخوارج الذين يخرجونه من الإيمان، ويدخلونه في الكفر ومن رأي أهل السنة الذين لا يخرجونه من الملة ويجعلونه فاسقاً، ثم أصبحت مدرسة لها أصولها الخمسة ومن أبرز آرائها نفي الصفات والقول بخلق القرآن. وأصولهم الخمسة معروفة في كتاب الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي.
- **الوحدانية**: صفة سلبية لله – تعالى– تنفي عنه التعدد بنفي الكم المتصل، والكم المنفصل أي تنفي تركبه من أجزاء كما تنفي عنه المثل والند والضد والكفؤ.



9. المراجع

1- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، الرسالة التدمرية، مطبوعة مع مجموع يحمل اسم: كتب ورسائل وفتاوي ابن تيمية في العقيدة، تحقيق عبدالرحمن محمد قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية.

2- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم. مجموع فتاوي شيخ الإسلام، 1، توحيد الألوهية، (جمع وترتيب عبد الرحمن النجدي وابنه محمد). ط1. بيروت: مطابع دار العربية 1398هـ، ص20-36، 91-100.

3- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. مجموع فتاوي شيخ الإسلام، 2، توحيد الربوبية، (جمع وترتيب عبد الرحمن النجدي وابنه محمد). ط1. بيروت: مطابع دار العربية، 1398هـ، ص352-355.

4- ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام هارون، بيروت، دار الجيل.

5- ابن ماجة، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

6- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، بيروت، دار صادر.

7- أبو داود، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين، دار الفكر.

8- الآمدي، علي بن أبي علي، غاية المرام في علم الكلام، تحقيق حسن محمود عبداللطيف، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1391هـ.

9- البوطي، محمد سعيد رمضان. كبرى اليقينيات الكونية، ط3، بيروت ودمشق: دار الفكر، 1394هـ، ص115-140.

10- البيهقي، أحمد بن الحسين. الاعتقاد على مذهب السلف، ط1 بيروت: دار الكتب العلمية، 1984م، 5-58.

11- الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر وآخرون، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

12- التفتازاني، مسعود بن عمر، شرح المقاصد.

13- الجزائري، أبو بكر. عقيدة المؤمن، ط1، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، 1977م، ص33-115.

14- الجويني، أبو المعالي عبد الملك. الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، ط1 (تحقيق أسعد تيم) بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، 1986م، ص34-155.

15- الحكمي، حافظ بن أحمد. معارج القبول جـ1، القاهرة: المطبعة السلفية، 1366هـ، ص53-105، 350-436 .

16- الحنفي: ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية، ط3، (تحقيق محمد ناصـر الـدين الألباني) دمشق وبيروت: المكتب الإسلامي، دار القلم، 1975م، جميع الكتاب.
17- الخطيب، محمد نمر، الله، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع.
18- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر الخطيب، شرح أسماء الله الحسنى، القـاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، 1976م، جميع الكتاب.
19- الرازي، محمد بن عمر بن الحسن، التغير.
20- سابق، سيد. العقائد الإسلامية، ط3 ، القاهرة: دار الكتـب الحديثـة، 1976م، ص 37-82.
21- السلمان، عبدالعزيز المحمد، الكواشف الجلية عن معاني الوسطية، شركة الراجحي للصرافة والتجارة، الرياض، الطبعة العاشرة، 1401هـ/1981م.
22- الشهرستاني، محمد بن عبدالكريم، الملل والنحل.
23- الصابوني، كتاب البداية.
24- الصنعاني، محمد بن إسماعيل، تطهير الاعتقاد، نشر وتوزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية.
25- الطنطاوي، علي. تعريف عام بدين الإسـلام، ط9، بيـروت: مؤسـسة الرسـالة، 1980م. ص63-97.
26- عبده، محمد عبده، رسالة التوحيد، مكتبة الجامعة الأزهرية، 1385هـ.
27- العسقلاني. الحافظ أحمد بن علي، فتح الباري بـشرح صـحيح البخـاري، ج13، القاهرة، المكتبة السلفية. د.ت، ص 377-415.
28- الفيروز أبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ط2، شركة مكتبـة ومطبعـة مصطفى البابي الحلبي، مصر.
29- القاضي عبدالجبار، عبدالجبار بن أحمد، شرح الأصول الخمسة.
30- قطب. سيد. خصائص التصور الإسلامي، بيروت: دار الشروق. جميع الكتاب.
31- قطب. سيد. مقومات التصور الإسلامي، بيـروت: دار الـشروق 1986م. جميـع الكتاب.
32- الكاتب، أحمد عصام، عقيدة التوحيد في فتح البـاري، ط1. بيـروت: دار الآفـاق الجديدة، 1983م، ص124-164.
33- الكردي، راجح عبدالحميد وآخرون، العقيدة الإسلامية، ط1. عمان: مركز التأهيـل وزارة الأوقاف، 1991م، ص27-69.

34- الكردي، راجح عبدالحميد، علاقة صفات الله بذاته، دار العدوي للتوزيع والنـشر، عمان: سنة 1400هـ.
35- الكتاب من العلماء الأمريكيين، الله يتجلى في عصر العلم، (ترجمـة د. دمـرداش سرحان). ط3، القاهرة: 1988م، جميع الكتاب.
36- المودودي، أبو الأعلي. الإيمان، الإسكندرية: دار الخلافة للطباعة والنشر. (د.ت)، ص135-159.
37- المودوي، أبو الأعلي. المصطلحات الأربعة في القرآن، (تعريب محمـد كـاظم). دمشق: المطبعة الهاشمية، 1955م.
38- الميداني، عبدالرحمن حسن حبنكة. العقيدة الإسلامية وأسـسها، ط2. دمـشق: دار القلم، 1979م، ص 95-860.
39- النسائي، أحمد بن شعيب، سنن النسائي، تحقيق عبدالفتاح أبو غـدة، ط2، مكتـب المطبوعات الإسلامية، حلب.
40- النووي، يحيى بن شرف، شرح صحيح مسلم، الطبعة الأولى، بيروت، الدار الثقافية العربية.
41- النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، من منشورات الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، 1400هـ.
42- ياسين، محمد نعيم. الإيمان، ط1. عمان: جمعية عمال المطابع التعاونيـة، 1978م، ص. 6-20 .



الوحدة الثالثة

الإيمان بالملائكة

محتويات الوحدة

1. المقدمة

1.1 تمهيد

أخي الدارس: السلام عليكم ورحمة الله -تعالى- وبركاته وبعد،

فهذا هو لقاؤنا الثالث في تطوافنا معاً عبر وحدات هذا المقرر، نلتقي لنتدارس معاً ما يتعلق بالركن الثاني من أركان العقيدة الإسلامية، وهو الإيمان بالملائكة، بما يتقدم هذا الموضوع من حديث عن عالم الغيب، وما يتصل به من حديث عن عالم الجن، حتى نكون على جلية من الأمر ونحن نجوب رياض هذه العقيدة روضة من بعد روضة، ووحدة من بعد وحدة.

ولا أخالك، أخي الدارس، إلا وأنت على يقين من موقع عالم الغيب من البناء العقدي في الأديان الإلهية بعامة، والعقيدة الإسلامية بخاصة، فالإيمان بالغيب أساس الاعتقاد الديني. بل إنه يعد من أبرز خصائص العقيدة الدينية، وهذا هو مفاد قوله -تعالى-: (الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ) (البقرة: 1-3).

وأظنك من بعد تقدر أن الإيمان بالغيب ليس أمراً تفردت به العقيدة الإسلامية، بل هو القاسم المشترك الأعظم بين الأديان بعامة، ولا يحرم هذه القاعدة وجود ديانات وثنية تجعل من الأوثان والأصنام آلهة تعبد، ذلك أنه «ليس أحد من عُبّاد الأصنام والأوثان كان هدف عبادته في الحقيقة هياكلها الملموسة، ولا رأى في مادتها من العظمة الذاتية ما يستوجب لها منه هذا التبجيل والتكريم. وكل أمرهم هو أنهم كانوا يزعمون هذه الأشياء مهبطاً لقوة غيبية، أو رمزاً لسر غامض يستوجب منهم هذا التقديس البليغ (دراز، محمد. الدين، 1970م، ص42).

والإيمان بالملائكة فرع من الإيمان بعالم الغيب، إنه إيمان بوجود ليس ببعيد عنا، بل إنه يخامر وجودنا ويعنى بشأننا، به وعليه تقوم السموات والأرض، وتتنزل الرحمة على الكائنات، والملائكة رسل الله إلى الخلق يحملون إليهم هداه، ويتولونهم بأمر الله في حياتهم ومماتهم وما بعد الممات، ولهذا كان الإيمان بهم ركناً من أركان العقيدة الإسلامية مع أننا لا نراهم ولا نحس بهم (وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ

وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا) (النساء: 136).

ونظراً لأن كثيراً من الناس أصبح تعلقهم بالجن أكثر من تعلقهم بالملائكة مع أن الإيمان بالجن ليس ركناً من أركان العقيدة الإسلامية خلافاً للإيمان بالملائكة، فقد خصصنا جزءاً من هذه الوحدة للحديث عن الجن وعلاقتهم بالملائكة وصلتهم بالإنسان تحقيقاً للبعد الوظيفي لهذه المادة التعليمية.

وتجد - أخي الدارس- في ثنايا هذه الوحدة عدداً من التدريبات والأنشطة وأسئلة التقويم، يرجى الاهتمام بها، وتنفيذك لما هو مطلوب منك عون لك على تحقيق الأهداف المتوخاة من هذه المادة.

2.1 أهداف الوحدة

ينتظر منك - أخي الدارس- بعد دراسة هذه المادة التعليمية والقيام بأنشطتها وتدريباتها أن تكون قادراً على أن:

1- توضح مفهوم الغيب، والشهادة.
2- تستدل على الإيمان بالغيب وتوابعه بالأدلة المناسبة.
3- توضح طرق الإيمان بعالم الغيب.
4- تبين طبيعة الملائكة وصفاتهم.
5- تتعرف وظائف الملائكة في عالم الغيب والشهادة.
6- تعرف بأشهر الملائكة مثل جبريل وميكائيل وإسرافيل.
7- تستنتج آثار الإيمان بالملائكة في حياة المسلم.
8- تتبين علاقة الجن بالملائكة.
9- تتبين علاقة الجن بالإنس وصلتهم بهم.
10- تتعرف خصائص الجن وصفاتهم.
11- تتعمق لديك مشاعر المحبة والرهبة من عالم الملائكة.

3.1 أقسام الوحدة

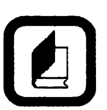
تقسم هذه الوحدة إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

القسم الأول: عالم الغيب: مفهومه وأدلته وطرق الإيمان به ويغطي هذا القسم الأهداف (1-3) المذكورة أعلاه.

القسم الثاني: عالم الملائكة: ويتناول الحديث عن طبيعتهم وصفاتهم ووظائفهم وآثارهم في حياة المسلم. ويغطي هذا القسم الأهداف (4-7) والهدف (11) من قائمة الأهداف السابقة.

القسم الثالث: عالم الجن: ويتناول الحديث عن طبيعتهم، وصفاتهم وعلاقتهم بالملائكة والإنس، ويغطي هذا القسم بقية الأهداف (8-10) من قائمة الأهداف السابقة الذكر.

ولعلنا بهذا التقسيم نتمكن من معالجة صلب موضوعنا وهو «الإيمان بالملائكة» وما يحيط به من موضوعات نعتقد أن بتجليتها تتضح الصورة، وتتجلي الضبابية عن هذا الموضوع الخطير.



4.1 القراءات المساعدة

أخي الدارس: تجد في هذه المادة التعليمية ما يلبي حاجتك مما يتعلق بموضوعها الرئيس وهو الإيمان بالملائكة، ومع ذلك فإن اطلاعك على بعض المراجع الأخرى يثري حصيلتك المعرفية في هذا المقام، ويوسع مداركك ويعزز قناعاتك، ونجد من المفيد أن تطلع على ما يلي منها:

1- الأشقر، عمر، عالم الملائكة الأبرار. ط5، الكويت، مكتبة الفلاح، 1989م.

2- الطنطاوي، علي. تعريف عام بدين الإسلام، عمان، قسم المطبوعات التربوية في وزارة التربية والتعليم، 1969م، ص ص (33-47)، ص ص (113-127).

5.1 ما تحتاج إليه لدراسة الوحدة

أنت بحاجة، أخي الدارس، إلى دراسة هذه الوحدة بعناية، ثم الإجابة عن أسئلة التقويم الذاتي المبثوثة في ثناياها، فإن في الإجابة عنها عوناً لك على فهم المادة وتمثلها. ثم إنك مدعو من جانب آخر إلى الإجابة عن التدريبات المثبتة ومقارنة إجاباتك عنها بالإجابات الواردة في نهاية الوحدة، وهناك بعض النشاطات التي أملنا من خلالها وصلك ببعض المراجع الرئيسة بهدف تعزيز بعض العناصر ذات الأهمية الخاصة.

ونحن، مع هذا وذاك، نتمنى لك دراسة موفقة وعزيمة صادقة.

2. عالم الغيب

نوهنا في مقدمة هذه الوحدة بمكانة الإيمان بالغيب في صرح العقائد الدينية بصورة عامة ونزيد الأمر بياناً هنا فنقول إن نصوص القرآن الكريم تقرن الحديث عن عالم الغيب بعالم الشهادة في كثير من المواطن، ومن ذلك قوله -تعالى-:

(هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ) (الحشر: 22).

وقوله: (عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) (التغابن: 18).

وقوله: (ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ) (السجدة: 6).

ولعلك تلحظ معي، أخي الدارس، أن لهذا الاقتران بين عالمي الغيب والشهادة معناه الكبير، فإن كان عالم الشهادة حقيقة ماثلة للعيان فإن عالم الغيب حقيقة كبرى كذلك لا يقلل من شأنها كونها غيباً، ولا أدل على ذلك من أن الآيات الكريمة تقدم ذكر عالم الغيب علي عالم الشهادة، والحكمة من هذا التقديم «أن الأمور المغيبة عنا لا تتناهى سعة ومدى، أما الأمور التي يمكن لنا أن نتوصل إلى شهودها ومعرفتها فهي أمور يسيرة». (حبنكة، عبد الرحمن، العقيدة الإسلامية وأسسها، 1986م، 26).

وبما أن الإيمان بالغيب على هذا القدر من الأهمية فإنه يجدر بنا أن نتعرف معنى الغيب وأنواعه وأدلته وطرق الإيمان به في فقرات متوالية.

1.2 معنى الغيب

تعددت آراء العلماء في تعريف الغيب، فلنستنطق طائفة منهم في هذا الشأن:

- فقد عرفه ابن منظور بأنه «كل ما غاب عنك» ونقل عن ابن الأعرابي تعريفه للغيب بأنه «ما غاب عن العيون وإن كان محصلاً في القلوب» (ابن منظور، لسان العرب، مادة غيب).
- وعرفه ابن تيمية بأنه «ما غاب عن شهود العباد». (ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل 172/5).
- وعرفه التهانوي بأنه «الأمر الخفي الذي لا يدركه الحس ولا تقتضيه بديهة العقل». (سلامة، بسام. الإيمان بالغيب، ص 10).

وهناك تعريفات أخرى كثيرة.

وبالوقوف على مجمل هذه التعريفات يمكننا إبداء الملاحظات التالية:

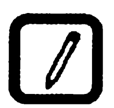
أ- تلتقي التعريفات المتقدمة في أن الغيب ما غاب عن الإنسان، لكنها تختلف فيما إذا كان هذا الغيب قد غاب عن العيون، أم غاب عن الحواس بصورة عامة.

ب- ذهب التهانوي إلى أن الغيب لا تقتضيه بديهة العقل، وهذا الكلام إن كان يصدق على كثير من الأمور الغيبية السمعية كالملائكة - وعذاب القبر والصراط والميزان إلا أنه لا يصدق على الإيمان بالله - تعالى- عند من عد الذات الإلهية غيباً. وهذا الإيمان فطري متحصل في القلوب كما ذكر ابن الأعرابي في تعريفه، والعقل الإنساني يحكم بوجود الله بداهة لو خلي وشأنه بدون ضغط من الأهواء والشهوات.

ج- إننا إذ قلنا إن الغيب لا تدركه الحواس فليس من لوازم هذا المعنى أن الغيب مما لا يمكن الإحساس به، ولهذا شدد ابن تيمية النكير على من خلط في هذا الأمر فقال: «الغيب الذي أخبرت به الرسل هو مما يمكن الإحساس به في الجملة، ليس مما لا يمكن الإحساس به، لكن مشاهدته والإحساس به يكون بعد الموت وفي الدار الآخرة، وهناك الحياة وتوابعها من الإحساس، والعمل أقوى وأكمل، فإن الدار الأخرى لهي الحيوان، فالرسل لم تفرق بين الغيب والشهادة بأن أحدهما معقول والآخرة محسوس كما ظن ذلك من ظنه من المتفلسفة والجهمية، ومن شركهم في بعض ذلك، وإنما فرقت بأن أحدهما مشهود الآن والآخر غائب عنا لا نشهده الآن، ولهذا سماه الله - تعالى- غيباً. قال - تعالى-:

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ (البقرة: 3).

(ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل 14/9، 15).



تدريب (1)

استناداً إلى الملاحظات السابقة واعتماداً على ما لديك من قدرة على المقارنة والتحليل أرجو منك - أخي الدارس- أن تقارن بين تعريف الغيب عند كل من ابن الأعرابي والتهانوي.

د- إذا كان الغيب ما غاب عن الحواس، فإن من أنواع الغيوب ما كان يوماً من عالم الشهادة أو ما يمكن أن يكون من عالم الشهادة يوماً ما.

ومن النوع الأول ما قصه الله علينا من قصص الأولين، وقد كانت هذه القصص واقعاً معاشاً ومشاهداً، فقد قص الله علينا قصة مريم ابنة عمران وما كان من شأن حملها،

ثم أعقب ذلك بقوله:

(ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ) (آل عمران: 44).

ويعرض لنا القرآن الكريم قصة يوسف –عليه السلام–، ثم يعقب عليها بقوله –تعالى–:

(ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ) (يوسف: 102).

ومن النوع الثاني ما يمكن أن يكشف عنه العلم في مختلف الميادين، في الفيزياء، والكيمياء، والأحياء، والفلك، والطب إلخ... فإن كل اكتشاف قبل التوصل إليه كان غيباً ولا ريب أن عدّ هذا من الغيب يحتم على المسلم أن يؤمن بالتطور والتجديد وعدم الوقوف عند حد في نطاق العلوم التجريبية، ولذلك انعكاساته الإيجابية جداً على الفكر الإسلامي في نطاق الإنجاز العلمي. ولا يميل بعض العلماء إلى اعتبار هذا من جملة الغيب المقصود في كتاب الله – تعالى–، فهذا الشيخ محمد عبده يقول: «وأما ما يعلمه بعض البشر بتمكينهم من أسبابه واستعمالهم لها، ولا يعلمه غيرهم لجهلهم بتلك الأسباب، أو عجزهم عن استعمالها، فلا يدخل في عموم معنى الغيب الوارد في كتاب الله. وهذه الأسباب منها ما هو علمي كالدلائل العقلية والعلمية، فإن بعض علماء الرياضيات وغيرها يستخرجون من دقائق المجهولات ما يعجز عنه أكثر الناس، ويضبطون ما يقع من الخسوف والكسوف بالدقائق والثواني قبل وقوعه بالألوف من الأعوام. ومنها ما هو عملي كالتلغراف الهوائي، أو اللاسلكي الذي يعلم المرء به بعض ما يقع في أقاصي البلاد وأجواز البحار التي بينه وبينها ألوف من الأميال» (عبده، محمد، تفسير المنار 422/7).

ويميل الشيخ محمد عبده إلى تقسيم الغيب إلى قسمين:

أولهما: غيب حقيقي مطلق، وهو ما غاب علمه عن جميع الخلق حتى الملائكة، وفيه يقول الله –عز وجل–: (قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ) (النمل: 65).

وثانيهما: غيب إضافي وهو ما غاب علمه عن بعض المخلوقين بدون بعض كالذي يعلمه الملائكة من أمر عالمهم وغيره، ولا يعلمه البشر مثلاً.

2.2 أدلة الإيمان بالغيب

تكرر ذكر الغيب في القرآن الكريم في مواطن كثيرة تجاوزت خمسين موضعاً، فهذه آيات كريمة تصف رب العزة بأنه «عالم الغيب والشهادة» وقد مر بنا طائفة من هذه الآيات.

وآيات أخرى تقصر علم الغيب عليه وحده -سبحانه وتعالى-:

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (النمل: 65).

﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ (يونس: 20).

وآيات ثالثة تنفي علم الغيب عن غير الله -تعالى- من المخلوقات سواء كانوا من الملائكة:

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (البقرة:32).

أو من الجن:

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ (سبأ: 14).

أو من الناس: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ (الطور: 41).

وآيات رابعة تصف المؤمنين بأنهم:

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (البقرة:3).

وأما الأحاديث الشريفة التي تتصل بهذا الموضوع فهي كثيرة نقتبس منها قوله ﷺ:

- «والذي لا إله غيره ما آمن أحد أفضل من إيمان بغيب». (أخرجه سفيان بن عيينة وابن أبي حاتم والحاكم وصححه).
- «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن آمن بي ولم يرني» قالها سبع مرات. (أخرجه أحمد والبخاري في تاريخه والحاكم).
- «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت

إلا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله». (أخرجه البخاري).

وفي رواية: «مفاتيح الغيب خمسة: إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت». (أخرجه البخاري).

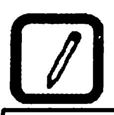
وهذا الحديث الشريف يرتبط بقوله - تعالى-:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ (لقمان: 34).

وقد أثارت هذه الشواهد اهتمام العلماء والعامة في فهمها وتأويلها، ولربما أثارت منك - أخي الدارس- تساؤلات حول مضامينها، فكيف يكون العلم بما تغيض الأرحام، أو سقوط المطر من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ونحن نرى العلم الحديث يكشف عن نوع الجنين قبل ولادته، وتخبرنا النشرات الجوية عن سقوط الأمطار قبل وقوع ذلك بكثير؟

وأود، أخي الدارس، أن أطالعك أولاً بما ذكره ابن كثير في هذا المقام إذ قال: «هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه -تعالى- بها، فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب (لا يجليها لوقتها إلا هو)، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن يشاء من خلقه. وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه الله -تعالى- سواه، ولكن إذا أمر به بكونه ذكراً أو أنثى أو شقياً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله خلقه وكذا لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخراها (وما تدري نفس بأي أرض تموت) في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك».

ويقول الشيخ علي الطنطاوي: «النشرة الجوية إنما تخبر عن المطر بعد رؤية أسبابه وتمام خلقه........ فهو كمن شاهد موزع البريد من نافذته وقدر متى يصل إلى داره فقال لأهله: سيأتي موزع البريد بعد خمس دقائق، وكمن يحمل منظاراً يضعه على عينيه فيرى السيارة القادمة، فيخبر بها قل ظهورها للعيان، ما علم في الحقيقة الغيب، ولكن رأى الواقع قبل أن يراه غيره، ومثله من يخبر عن نوع الجنين بعد تشكله، وأما إنشاء السحاب وإنزال المطر في أرض كتب الله عليها الجفاف، ورفعه عن أرض أنزله الله عليها، ومعرفة جنس الجنين، وهو لا يزال حويناً منوياً، أو حويناً صادف بويضة فهذا هو المراد من الآية» (الطنطاوي، تعريف عام بدين الإسلام، 1969م، ص117، 118).



تدريب (2)

لخص بلغتك رد كل من ابن كثير والطنطاوي على القائلين بأن نـزول الغيـث ومعرفة ما في الأرحام لم يعد غيباً يستأثر الله بعلمه نتيجة للكشوفات العلمية.

3.2 طرق الإيمان بعالم الغيب

لقد سبق لنا إيضاح مفهوم عالم الغيب بصورة عريضة، ويأتي حديثنا هنا لبيـان طرق الإيمان به، فهل هي طريق واحدة أو طرق متعددة ؟

إن الإجابة عن ذلك تتوقف على معرفتنا لمفردات عالم الغيب وتحديد مـضمونه ولقد وجدنا لعلمائنا آراء عديدة في هذا المقام في أثناء تفسيرهم لقوله – تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ (البقرة: 3).

وهكذا فلنتوقف قليلاً عند هذه النقطة قبل أن نشرع في بيان المـسالك والطـرق المختلفة للإيمان بحقائق الغيب.

1.3.2 مضامين عالم الغيب

لقد أفاض مفسرونا في بيان ما يدخل في عالم الغيب، ونقلوا لنا أقوالاً مختلفـة عـن سلف هذه الأمة، ومن هؤلاء المفسرين ابن جرير الطبري (78/1)، وابن كثير (41/1)، والخازن (23/1)، وأنا أسوق لك، أخي الدارس، ملخص هذه الأقـوال نقـلاً عـن (زاد المسير في علم التفسير) لابن الجوزي، فقد أنهى اختلافات العلماء إلى ستة أقوال:

«أحدها: إنه الوحي. قاله ابن عباس وابن جريج.

والثاني: القرآن. قاله أبو رزين العقيلي وزر بن حبيش.

والثالث: الله – عز وجل-. قاله عطاء وسعيد بن جبير.

والرابع: ما غاب عن العباد من أمر الجنة والنار، ونحو ذلك مما ذكر في القـرآن، رواه السدي عن أشياخه، وإليه ذهب أبو العالية وقتاده.

والخامس: أنه قدر الله – عز وجل-. قاله الزهري.

والسادس: أنه الإيمان بالرسول في حق من لم يره، قال عمرو بن مرة «قال أصحاب عبد الله له: طوبى لك، جاهدت مع رسول الله ﷺ وجالسته فقال: إن شأن رسول الله ﷺ كان مبيناً لمن رآه، ولكن أعجب من ذلك قوم يجدون كتاباً مكتوباً يؤمنون به ولم يروه»».

(ابن الجوزي، زاد المسير، 1964م، 24/1، 25).

وذهب ابن كثير إلى أن هذه الأقوال جميعها صحيحة، فالغيب يكتنف أركان الإيمان. من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من بعث ونشور. وهذا هو القول الراجح. (ابن كثير 41/1)

وحريّ بنا، أخي الدارس، ونحن بصدد استعراض ما يتضمنه عالم الغيب من حقائق أن نقدم لك رأي الإمام الغزالي في النظر إلى الذات الإلهية، فهو يقرر أن الله - تعالى- ليس غيباً في عبارة صريحة يقول فيها: «اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله - تعالى- ». وقد نتساءل: إذا كان الله -تعالى- بمثل هذا الظهور والتجلي فلم لم تدركه أفهامنا وحواسنا؟ ويجيب الغزالي عن هذا التساؤل بأن ضعف عقولنا من جانب وشدة تجليه -سبحانه وتعالى- وإشراقه من جانب آخر هو سبب هذا الخفاء، فصار ظهوره سبب خفائه، وما أشبه حالنا هنا بحال الخفاش يبهره نور الشمس، فتكون قوة ظهور النور مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره.

وهو يسوق لنا مثلاً آخر من النور نفسه، فنور الشمس لا ندركه وحده، مع أنه ظاهر في نفسه، وسبب لظهور غيره من المحسوسات، والله -تعالى- نور السموات والأرض، وهو أظهر الموجودات وبه ظهرت الأشياء كلها. (الغزالي، إحياء علوم الدين، 1968م، 399/4-401).

ولعلك بعد هذا العرض المختصر لرأي الغزالي تشاركني النظر بوجاهة هذا الرأي القائم على التحليل العلمي والتأمل العميق.



نشاط(1)

ارجع إلى كتاب (إحياء علوم الدين للغزالي - الجزء الرابع - واقرأ الصفحات 399-401) ولخصها.

2.3.2 مسالك العلماء في الاستدلال على عالم الغيب

بينا أن عالم الغيب يتضمن حقائق عدة، وليس قصراً على حقيقة واحدة، وعليه فلا بد أن تتعدد مسالك العلماء في الاستدلال على هذه الحقائق، إذ إن ما يصلح لحقيقة قد لا يصلح لأخرى. وبالإجمال فإن هنالك ثلاث منظومات من الأدلة في هذا الشأن هي: الأدلة العقلية، والأدلة السمعية، وأدلة المكاشفة عند من يقول بها.

ومن قبل الإفاضة في التعليق على هذه الأدلة أود أن أبين، أخي الدارس، مسالك العلماء في الاستدلال على كبرى حقائق عالم الغيب، وهي الإيمان بالله - عز وجل-:

أ- فعند الحشوية أن طريق معرفة الله - سبحانه وتعالى- هو السمع لا العقل. إذ يكفي أن يتلقى الإنسان ذلك عن الوحي، وهذا يسري كذلك على قضايا عالم الغيب الأخرى التي سبق لنا ذكرها. (ابن رشد 1968م، ص 42).

ب- وذهب جمهور أهل السنة والمعتزلة إلى أن طريق الإيمان بالله - سبحانه- هو العقل والنظر. ولقد مر بك - أخي الدارس- طائفة من الأدلة على وحدانية الله -عز وجل- في الوحدة الثانية من هذا المقرر بما يغني عن الإعادة.

ج- وأما الصوفية فيقيمون إيمانهم على أساس من المكاشفة الروحية والإلهام بشرط تجريد النفس من الهوى والترفع عن الشهوة.

والآن لننتقل إلى التعليق على هذه الادلة:

- **الأدلة العقلية:**

للعقل الإنساني مكانته الخاصة في الاستدلال من غير منازع، وهو يعتمد في كثير من أحكامه على ما تردفه به الحواس، والحواس تتعلق بالمحسوسات المادية، وهكذا فإن أحكامه تتعلق بالماديات بدرجة كبيرة، أما ما وراء المادة من عوالم غيبية، فأمر ليس في متناول العقل وقد وضع الفيلسوف الألماني (كانت) كتاباً مشهوراً في إثبات أن العقل لا يستطيع أن يحكم إلا على المادة وحدها. وهو ما أثبته علماؤنا كذلك حتى صار كالبدهية المسلمة، وصار الكلام فيه من الحديث المعاد. (الطنطاوي، 1969م، ص 39).

ولقد وجدنا كيف ضل كثير من الفلاسفة عندما ركنوا إلى عقولهم وتأملاتهم المجردة، فلم يهتدوا إلى يقين ولم يتوصلوا إلى قرار. ويصف الإمام الشهرستاني حالهم فيقول:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها   وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واصفاً كف حائر   على ذقن أو قارع سنّ نادم

وقد تتساءل - أخي الدارس-، أليس في هذا القول تحجيم للعقل وتهميش لدوره ؟ وأجيبك بما أجاب به ابن خلدون إذ قال: «وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه، بل العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد وحقيقة النبوءة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال، وهذا لا يدلك على أن الميزان في أحكامه غير صادق. لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعَدى طوره». (مقدمة ابن خلدون، 460).

• **الأدلة السمعية:**

يطلق بعضهم على هذه الأدلة الأدلة الشرعية، ويجعلونها نوعاً آخر من الأدلة يقابل الأدلة العقلية، وكأن لا علاقة بين الدليل الشرعي والدليل العقلي، وهو وهم وقر في أذهان كثير من الباحثين، والحق أن الدليل الشرعي قد يكون عقلياً وقد يكون سمعياً لا يبلغه العقل وحده، وقد أجاد ابن تيمية وتلامذته من بعده في تجلية هذا الأمر بصورة تستحق الإعجاب. انظر، - إن شئت- مقالة ابن تيمية وتلامذته بهذا الخصوص إذ يقول: «وكثير من أهل الكلام يظن أن الأدلة الشرعية منحصرة في خبر الصادق فقط، وأن الكتاب والسنة لا يدلان إلا من هذا الوجه، ولهذا يجعلون أصول الدين نوعين: العقليات والسمعيات. ويجعلون القسم الأول مما لا يعلم بالكتاب والسنة وهذا غلط منهم، بل القرآن دل على الأدلة العقلية وبينها ونبه عليها وإن كان من الأدلة العقلية ما يعلم بالعيان ولوازمه كما قال - تعالى-:

(سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) (فصلت: 53).

(ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، 1979م، 199/1).

وتبدو أهمية الأدلة السمعية إذا أدركنا قصور العقل الإنساني عن الإحاطة بحقائق عالم الغيب، كالصراط والميزان والجنة والنار إلخ.... وهكذا يقوم الوحي بتكملة قصور العقل وتتكامل المعرفة في ضوء المعطيات الدينية ولا يصح الفصل بين جناحي المعرفة هذه بوجه من الوجوه فالعقل يهدينا إلى السمع، والسمع يهدينا إلى العقل، ويبين ابن تيمية ما بين العقل والسمع من تلازم فيقول: «ولما كان الطريق إلى الحق هو السمع والعقل، وهما متلازمان، كان من سلك الطريق العقلي دل على الطريق السمعي، وهو صدق الرسول ومن سلك الطريق السمعي بيّن له الأدلة العقلية كما بيّن ذلك القرآن الكريم، وكان الشقي المعذب من لم يسلك لا هذا ولا هذا، كما قال أهل النار:

(وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ) (الملك: 10).

وقال - تعالى-:

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ) (الحج: 46).

ولهذا نفى - سبحانه- عن الشرك الطريق السمعي والعقلي (ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، 394/7، 395).

وحتى لا نغلو في تقديس العقل الإنساني غلو الملاحدة في نفي عالم الغيب، أود

أن أذكرك، أخي الدارس، أن الإيمان بالغيب ليس حظاً للأديان السماوية وحدها، بل للعقل حظه منه كذلك في كثير من مجالات العلوم، فما الجاذبية يا ترى؟ وما الطاقة؟ وما الإلكترونات والبروتونات مما لم نره؟ وهو مع ذلك حقائق صارخة أثبتها العلم. ويعجبني في هذا المقام ما ذكره المفكر المسلم وحيد الدين خان حيث قال:

«لا ينبغي القول بأن الدين هو الإيمان بالغيب، وبأن العلم هو الإيمان بالملاحظة العلمية فالدين والعلم كلاهما يعتمد على الإيمان بالغيب، غير أن دائرة الدين الحقيقية هي دائرة تعيين حقائق الأمور نهائياً وأصلياً، أما العلم فيقتصر بحثه على المظاهر الأولية والخارجية، فحين يدخل العلم ميدان تعيين حقائق الأمور تعييناً حقيقياً ونهائياً، وهو ميدان الدين الحقيقي فإنه يتبع نفس طريق الإيمان بالغيب» إلى أن يقول: «والعلم في هذا الميدان هو البحث عن حقائق غير معلومة بوساطة حقائق معلومة» (وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، 1979م، ص ص 50-51).

ويقول الدكتور محمد فتحي عثمان: «ويعجبني الذين يرفضون وصف الاعتقاد في الله واليوم الآخر بأنه إيمان بغير المعقول، وإنما يرونه أنه إيمان بما يتجاوز المعقول» (سلامة، الإنسان والغيب، 1986م، ص 10).

- **أدلة المكاشفة والاشراق الروحي:**

يعتقد المتصوفة أن المكاشفة طريق من طرق المعرفة بعلوم الغيب، وهذا يعني أن المعرفة تُلقي في النفس عند تجريدها من الشهوات، ويجعلون للأولياء في الإنباء بالغيب مقاماً علياً، ويفرضون على أتباعهم تصديق مثل هذه الأنباء وهم يستدلون على مذهبهم هذا بأدلة منها:

1- قوله - تعالى-:

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا) (الأنفال: 29).

وقوله - تعالى-:

(وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ) (البقرة: 282).

2- قوله ﷺ «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» (رواه الطبراني والترمذي وقال: حديث غريب).

3- قياس الأولياء على الأنبياء، فالأنبياء يخبرون بما يكاشفون به من حقائق الأمور، فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق وهو الولي (الغزالي، إحياء علوم الدين، 1967م، 32/3).

4- الرؤيا الصادقة فإنها سبيل لمعرفة بعض الغيوب، وإذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضاً في اليقظة.

ونحن حيال الشواهد الكريمة المتقدمة، لا نملك أن ننكر أن مجاهدة النفس قد تكون سبيلاً إلى كشف حجاب الحس، والاطلاع على حقائق من الوجود لا يتأتى لغير أصحاب المجاهدة إدراكها.

وأما ركوب متن الشطط والذهاب إلى معاملة الأولياء معاملة الأنبياء فذلك يشكل مدخلاً ينفذ منه أصحاب الأهواء إلى دعاوى عجيبة ومريبة في إدعاء النبوة آخر الأمر، مثل ما فعل أرباب البابية والبهائية والقاديانية في العصور الأخيرة. مما نرجو أن نطلعك على صور منه في مقرر العقيدة الإسلامية (2) إن شاء الله.

ولا يغيب عن بالنا أن ما يطالعنا به الأنبياء من نبوءات لا يتأتى لهم نتيجة رياضة نفسية ومجاهدة دائبة، وإنما هو عطاء رباني لهؤلاء المصطفين الأخيار. ويكفي أن نستذكر هنا ما ورد في الصحيحين من حديث عائشة - رضي الله عنها- قالت: «من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب وهو يقول: «لا تدركه الأبصار»، ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب وهو يقول: «لا يعلم الغيب إلا الله». وهكذا فإن قياس الولي على النبي قياس مع الفارق. ومثل ذلك قياس اليقظة على النوم، فما أكثر ما نسمع من تهيؤات من أحلام اليقظة لدى كثير من المتصوفة مما لا يشهد بصدقه واقع ولا صلاح في السيرة والسلوك لدى كثير منهم!!

نقول هذا، ونذكر أن من مخاطر الإخلاد إلى هذه الطريقة صرف النظر عن التفكر والتدبر. ومعلوم أن القرآن الكريم دعوة صارخة للعقل الإنساني للنظر والاعتبار.

؟

أسئلة التقويم الذاتي (1)

1- اذكر أربعة من مظاهر اهتمام القرآن الكريم بعالم الغيب.
2- عد بعضهم من أنواع الغيب أحداثاً وقعت في عالم الشهادة في الماضي، وأحداثاً يمكن أن تقع في المستقبل. مثّل لكل نوع.
3- بين كيف تأول ابن كثير قوله - تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ (البقرة: 3).
4- بين السبب الذي من أجله لم يستطع الإنسان رؤية الله -سبحانه وتعالى- فيما يرى الإمام الغزالي.
5- يشترك العلم مع الدين في أنه يعتمد الإيمان بالغيب. وضح ذلك.

3. عالم الملائكة

أخي الدارس، سبق أن بينا أن الملائكة حقيقة كبرى من حقـائق عـالم الغيـب. عرضنا لذلك بصورة إجمالية، ونعرض هنا لهذا الموضوع تفصيلاً، فما الملائكة؟ ومـا دليل الإيمان بهم؟ وما صفاتهم وأصنافهم ووظائفهم؟ وما الآثار المترتبة على الإيمان بهم في حياة المسلم؟

أسئلة نطرحها بين يديك، أخي الدارس، نأمل أن نقدم إجاباتها عبر هذا القسم من أقسام هذه الوحدة:

1.3 معنى الملائكة

الملائكة – عند أكثر أهل العلم من المسلمين – كائنات نورانية لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة.

وهي عند طوائف من النصارى عبارة عن الأنفس الناطقة المفارقة لأبدانها وتتسم بالصفاء والخيرية.

وهي عند طوائف من عبده الأوثان عبارة عن الكواكـب الموصـوفة بالإسـعاد والإنحاس، فالمسعدات منها ملائكة الرحمة، والمنحسات منها ملائكة العذاب وترى علـى هذا أن الكواكب أحياء ناطقة فيما يرى هؤلاء (الرازي، التفسير الكبير 160/2) وتتعدد الآراء في هذا الشأن والصحيح ما عليه جمهور المسلمين مما ثبت بدليل صحيح بعيد عـن التأويـل والتحليل والتخمين العقلي.

وقد اختلف في الأصل اللغوي الذي اشتق منه لفظ (الملائكة) التـي هـي جمـع (ملك) فمن قائل إنه لا اشتقاق للفظ الملك في لغة العرب. وهو مروي عن النـضر بـن شميل.

- وقائل إنه مشتق، واختلف في مادة الاشتقاق:
  - فعن ابن كيسان أنه مشتق من (ملك يملك).
  - وعن غيره أنه مشتق من (ألك يألك) أي أرسل يرسل.

يقال: ألكني، أي أرسلني. والألوكة والمألكة هي الرسالة. قال لبيد:

وغلام أرسلتـــه أمه ... بألــوك فبذلــنا مــا ســـأل

وقال آخر:

أبلغ النعمان عني مألكاً ... أنه قد طال حبسي وانتظاري

وظاهر من هذا الاشتقاق الأخير أن أصل (ملك) هو (ملاك) قاله الليث.

وقال الكسائي: أصله (مألك) بتقديم الهمز، وقد حذف الهمز للتخفيف. وجمع (ملك) هو (ملائكة) كما ذكرنا، والهاء في (الملائكة) تأكيد لتأنيث الجمع، وقيل هي للمبالغة كقولنا: علاّمة ونسّابة.

(ابن منظور، لسان العرب (مادة ملك). وتفسير القرطبي 262/1، 263).

2.3 أدلة الإيمان بالملائكة

قلنا إن سبيلنا إلى الإيمان بالملائكة هو النقل الصحيح من الأدلة السمعية، وليس للعقل سبيل للاهتداء إليها إلا سبيل التسليم بما يأتي به الوحي، فالوحي لا يأتي بما يخالف العقل أو يناقضه. وعليه، فإننا نلتمس أدلة الإيمان بهم في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

1.2.3 الأدلة القرآنية

قال -تعالى-:

(ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ) (البقرة: 285).

وقال - تعالى-:

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا) (النساء: 136).

وقال كذلك:

(مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ) (البقرة: 98).

وهكذا تتوالى الآيات الكريمة لتقرن الإيمان بالملائكة بالإيمان به - سبحانه

وتعالى-، وتجعل الإيمان بالملائكة من صفات المؤمنين، والكفر بهم ضلالاً بعيداً، ومعاداتهم معاداة لله رب العالمين.

وهنالك سورة في القرآن الكريم تسمى (سورة الملائكة) وهي سورة (فاطر).

2.2.3 من الحديث الشريف

لعل أكثر الأحاديث ذيوعاً وشيوعاً في هذا المقام حديث جبريل الذي يرويه الشيخان عن أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر».

ومن هنا يتبين أن الإيمان بالملائكة ركن من أركان العقيدة الإسلامية ولا تسلم لمسلم عقيدته دون الإيمان بهذا الركن.

وقد يخطر ببالك، أخي الدارس. سؤال: لماذا كان الإيمان بالملائكة ركناً من أركان الإيمان؟ وجوابه ما ذكره الإمام محمد عبده في تفسيره إذ قال:

«إن الإيمان بالملائكة أصل للإيمان بالوحي، لأن ملك الوحي روح عاقل عالم يفيض العلم بإذن الله على روح النبي بما هو موضوع الدين، ولذلك قدم ذكر الملائكة على ذكر الكتاب والنبيين، فهم الذين يأتون النبيين الكتاب... فيلزم من إنكار الملائكة إنكار الوحي والنبوة وإنكار الأرواح، وذلك يستلزم إنكار اليوم الآخر، ومن أنكر اليوم الآخر يكون أكبر همه لذات الدنيا وشهواتها وحظوظها وذلك أصل لشقاء الدنيا قبل شقاء الآخرة». (محمد عبده، تفسير المنار 110/2).



تدريب (3)

أخي الدارس، تأمل النص السابق للإمام محمد عبده، ثم بيّن بلغتك سبب كون الإيمان بالملائكة ركناً من أركان العقيدة.

3.3 صفات الملائكة

قلنا ان الملائكة قوى غيبية دليلنا إليها الوحي، والوحي كذلك هو الذي يحدد لنا صفاتهم، ومن أهم هذه الصفات أنهم:

1.3.3 مخلوقات نورانية

يشهد لذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه عن عائشة - رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». (صحيح مسلم، كتاب الزهد، باب في أحاديث متفرقة).

2.3.3 خلق متميز لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة

زعم مشركو العرب في الجاهلية أن الملائكة بنات الله، وقد أعظموا على الله الفرية بزعمهم هذا حين ادعوا أن الله -تعالى- ولداً، وأن أولاده من الإناث، أي من الملائكة هذا في حين أنهم كانوا يأنفون من الإناث. قال - تعالى-:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (النحل: 58).

وعن هذا الزعم والافتراء قال -تعالى-:

﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ (الزخرف: 19).

وكذلك قال:

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (الإسراء: 40).

وليس عجيباً أن تبقى آثار هذه المعتقدات الفاسدة في عقول كثير من الناس وقلوبهم، ولا أدل على ذلك من تشبيه النساء بالملائكة، وبخاصة العاملات في حقل التمريض، وتجسيد صورة الملائكة في صور نساء جميلات أو أطفال صغار. يقول الشيخ وهبي الألباني «من اعتقد في صور البنات والنساء الجميلات على أطرافها أجنحة، والتي تباع في الأسواق ويتبادل بها بعض المسلمين التهاني في الأفراح والعيدين أنها تشبه صور الملائكة، كفر لظاهر نسبة الملائكة إلى الأنوثة. ومن اعتقد في صوت المرأة أنه ملائكي، أو في صورة الممرضة أنها صورة ملاك الرحمة كفر كذلك لما ذكرنا». (الألباني، أركان الإيمان 1984م، ص121) والذي أراه تعقيباً على هذا الرأي، أن تجسيد صورة الملائكة بدعة خطيرة تخرج المسلم من حظيرة الإيمان إن هو اعتقدها. أما الشق الآخر من المسألة المتعلق بصوت المرأة أو صورة الممرضة فذلك لا يعدو في نظري ضرباً من الاستعارة التي ألفنا مثلها وأكثر منها في لغتنا. ونحن مع عدم إيثارنا لمثل هذه التشبيهات، إلا أننا لا نشاطر الشيخ الألباني رأيه في تكفير القائلين بذلك، فليس هنالك أحد يعتقد فعلاً بأن صوت المرأة مثل صوت الملائكة، غاية ما في الأمر التمثيل، وقد ورد منه في القرآن الكريم كثير، حتى ورد منه في تصوير الذات الإلهية مثل رائع ذكره القرآن الكريم في قوله - تعالى-:

(۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) (النور: 35).

وقد استعار الشاعر هذا المعنى فضمنه رده على خصومه حين قال:

لا تنكروا ضربي له من دونه   مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره   مثلاً من المشكاة والنبراس

ولعلنا نذكر جيداً مقالة النسوة في يوسف - عليه السلام- عندما شبهنه بالملك قال - تعالى-:

(فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) (يوسف: 31).

3.3.3 لا يأكلون ولا يشربون

ودليل ذلك ما أورده القرآن الكريم من حكاية ضيوف إبراهيم الخليل - عليه السلام- من الملائكة الذين أرسلهم الله - تعالى- لتدمير قرى قوم لوط، ونترك للآيات الكريمة حكاية قصتهم قال - تعالى-:

(هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ) (الذاريات: 24-28).

4.3.3 لا يُرون على صورتهم الملكية

لقد مر بنا في الفقرة السابقة قصة استقبال إبراهيم الخليل - عليه السلام- للملائكة، وهذا يعني أن في الإمكان رؤية الملائكة في حال تشكلهم وظهورهم على غير صورتهم الملكية.

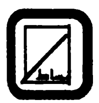
وقد زعم الصوفية أنهم يشاهدون الملائكة في اليقظة ويسمعون منهم أصواتاً، حتى أن أبا سليمان الداراني زعم أن الملائكة تكلمه وأنه يراها عياناً فأخرج من دمشق. وحكى مثل هذا الأمر عن سهل بن عبد الله التستري (ابن الجوزي، تلبيس إبليس، 166، 167).

والصحيح أن رؤية الملائكة مما يتعذر على البشر العاديين، ودليله قوله –تعالى-:

(۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا) (الفرقان: 21-22).

يقول ابن حزم تعليقاً على هذه الآية الكريمة: «وقد استعظم الله –عز وجل- ذلك من رغبة من رغب نزول الملائكة إلى الناس، وسمى هذا الفعل استكباراً وعتواً، وأخبر - عز وجل- أننا لا نرى الملائكة أبداً إلى يوم القيامة قط». (ابن حزم، الفصل، 57/4).

وإذا كانت رؤيتهم مما يتعذر على آحاد الناس، فإنه ممكن في حق النبي ﷺ فقد رأى الرسول ﷺ جبريل على هيئته في ليلة الإسراء. وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول: (وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ) (التكوير: 23)، (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ) (النجم: 13) ؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: «إنما ذاك جبريل» لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين: رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض، ساداً عظم خلق ما بين السماء والأرض». (تفسير ابن كثير 251/4، 252).



نشاط(2)

ارجع إلى تفسير ابن كثير للآيات (7-17) من سورة النجم، وبين خلاف العلماء وأدلتهم في المراد بالرؤية فيها.

ورؤية الملائكة إن لم تكن مقدورة لنا -نحن البشر-، فهي مقدورة بالنسبة لبعض المخلوقات الأخرى بما آتاها الله -سبحانه وتعالى- من قدرات خاصة. فقد أخرج الشيخان في صحيحيهما عن ابي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم صياح الديكة فسلوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً. وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان فإنهما رأت شيطاناً». (أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال).

وقد يدهش بعضهم لمثل هذه الأحاديث الشريفة، فكيف يتأتى للطيور والحيوانات مشاهدة مالم نشاهده ؟ والخطب في ذلك سهل فإنه يتأتى للجماد أن يرينا ما ليس لنا قدرة على رؤيته في الأحوال العادية، فهذا جهاز التلفاز يرينا الصور من على مسافات شاسعة، وهذه الصورة لا تنفك عن المحيط الذي نعيش فيه فنحن نجلس في الغرفة يتراءى لنا أن جوها خواء لا شيء فيه، بينما هو مليء ومشحون بصور وأصوات شتى تكشف عنها الأجهزة المتخصصة.

5.3.3 قادرون على التشكل

نعود بك، أخي الدارس، تارة أخرى إلى قصة إبراهيم الخليل - عليه السلام- مع ضيفه من الملائكة، لقد جاءه الملائكة في صورة رجال، وهذا ما حدا بإبراهيم -عليه السلام- للمبادرة بتقديم واجب الضيافة لهم، وما كان يتأتى له مشاهدتهم لولا ظهورهم بصورة إنسية.

- وهكذا أيضاً تجلى الملك لمريم فيما تحكيه لنا الآيات الكريمة من قوله -تعالى-:

(وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) (مريم: 16-17).

وكان جبريل - عليه السلام- يأتي إلى الرسول ﷺ في صور إنسية مختلفة، وكان يتمثل أحياناً بصورة دحية بن خليفة الكلبي، وقد كان دحية موصوفاً بجمال الصورة والطلعة. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، فجلس إلى رسول الله ﷺ، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام.........» ثم سأله عن الإيمان والإحسان والساعة، ثم انطلق، فقال ﷺ: «يا عمر، أتدري من السائل؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

6.3.3 يتمتعون بقدرات خارقة

يتسم الملائكة بقدرات خارقة تفوق الوصف، يكفي أن نتذكر أن منهم حملة العـرش الثمانية.

(وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ) (الحاقة: 17).

فإذا كان الكرسي قد وسع السموات والأرض، فما ظنك بالعرش، وما ظنك بهذه القوة الهائلة التي تتكفل بحمل العرش إذن؟!

وما قولك من بعد بصاحب الصور الذي إذا نفخ فيه صعق له من في السموات والأرض؟ قال – تعالى-:

(وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ) (الزمر: 68).

أي قوة جبارة هذه؟!

وانظر ماذا فعلت الملائكة بقرى قوم لوط، قال –تعالى-:

(فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ) (هود: 82).

هذه صورة مرعبة عن قوة الملائكة، أما سرعتهم فأبعد مما يتصوره بشر قال –تعالى-:

(تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ) (المعارج: 4).

ويكفي أن تعلم أن جبريل – عليه السلام- عرج بالرسول ﷺ إلى السموات العـلا ثم عاد به إلى الأرض في ليلة واحدة، بل في بعض ليلة. ونحن نعلم أن السـماء الـدنيا وحدها تحتاج منا إلى ملايين السنين الضوئية، أي أننا نحتاج أن نعيش ملايين من السنين، لنتمكن من قطعها إذا سرنا بسرعة الضوء، أي بسرعة 300/000 كم/ث، ومن لنا بذلك؟ ومن أين لنا بالعمر؟؟

6.3.3 مفطورون على الطاعة والتسبيح

الطاعة والعبادة في الملائكة جبلة، فهم كما وصفهم الله –سبحانه وتعالى-:

(لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (التحريم: 6).

(لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ) (الأنبياء: 27).

(يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) (الأنبياء: 20).

(وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ) (الأنبياء: 19).

وقد اختلف العلماء في كيفية تسبيح الملائكة، فقال ابن مسعود وابن عباس: تسبيحهم صلاتهم، ومنه قوله – تعالى-: (فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ) (الصافات: 143). أي من المصلين.

وقال قتادة: تسبيحهم سبحان الله كما تدل عليه اللغة. وقد صحح القرطبي هذا الرأي واستدل بما رواه أبو ذر أن رسول الله ﷺ سئل: أي الكلام أفضل ؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته: سبحان الله وبحمده» أخرجه مسلم. وعن عبد الرحمن بن قرط أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به سمع تسبيحاً في السموات العلا: سبحان العلي الأعلى –سبحانه– وتعالى» ذكره البيهقي. (تفسير القرطبي 276/1).

وصلاة الملائكة فيها قيام وسجود. عن حكيم بن حزام قال: «بينما رسول الله ﷺ في أصحابه إذ قال لهم: أتسمعون ما أسمع؟ قالوا: ما نسمع من شيء، قال: إني لأسمع أطيط السماء وما تلام أن تئط، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم.......... رواه الطبراني في المعجم الكبير (الأشقر، عالم الملائكة الأبرار، 1989م، 31).

وإن كون الملائكة مفطورين على الطاعة جعل بعض العلماء يعتقدون أنهم ليسوا مكلفين. والصحيح أنهم ليسوا مكلفين بتكاليفنا، أما القول بعدم تكليفهم مطلقاً فهو قول مردود، فهم مأمورون بالعبادة والطاعة.

(يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩) (النحل: 50).

والخوف من أعلى مراتب العبودية والطاعة. (الأشقر، 1989م، ص 29).

ولا أدل على التكليف من قصة أمرهم بالسجود لآدم – عليه السلام–. قال –تعالى–:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ) (البقرة: 34).

7.3.3 معصومون من الخطأ

إذا وصلنا حديثنا في هذه الفقرة بسابقتها تبين لدينا أن الملائكة معصومون، فإن كانوا (لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ) (التحريم: 6). وهم (لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ) (الأنبياء: 19-20). فلا شك أنهم معصومون من الوقوع في الخطأ والمعصية.

ونزيد الأمر بياناً فنقول إن جماهير العلماء على القول بعصمة الملائكة، وخالف بعضهم في هذا الأمر فقالوا بعدم عصمتهم. ولما كان الحكم الفصل في هذه المسألة رهناً بالأدلة، فإننا نسوق إليك، أخي الدارس، أدلة كل فريق ونترك لك الترجيح بينهما.

- **أدلة الجمهور:**

إضافة إلى الأدلة المتقدمة فقد ساق الجمهور الأدلة التالية:

1- قوله – تعالى-:

(فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩) (فصلت: 38).

2- إن الملائكة طعنوا في عصمة آدم وذريته، فلو لم يكونوا معصومين ما وقع منهم هذا الطعن موقعه، يظهر ذلك من قوله – تعالى-:

(وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ) (البقرة: 30-32).

فقولهم (أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ) (البقرة: 30). تعريض بالمعصية ويفهم بالمخالفة أنهم مبرأون منها، ويعزز ذلك قوله – تعالى- على لسانهم

(وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) (البقرة: 30). مما يكشف عن معنى الاستمرارية والعادة في التسبيح والتقديس.

- **أدلة المخالفين:**

أما المخالفون فقد ساق الإمام الرازي في تفسيره أدلتهم ورد عليها (الرازي، التفسير الكبير 2/166-171)، وها نحن نضع بين يديك، أخي الدارس، خلاصة هذه الأدلة:

1- إن قوله - تعالى- في حقهم وعلى لسانهم (قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) (البقرة: 30) دليل إدانة لهم وليس شهادة براءة وعصمة، وذلك من وجوه:

أ- إن قولهم (أَتَجۡعَلُ فِيهَا) (البقرة: 30). اعتراض على الله - تعالى-، وهذا من أعظم الذنوب.

ب- إنهم اغتابوا آدم وبنيه بطعنهم فيهم، والغيبة من الكبائر.

ج- إنهم مدحوا أنفسهم بعد طعنهم في بني آدم بقولهم (وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) (البقرة: 30). وتزكيه النفس على هذه الصورة مذمومة وتحمل على الإعجاب بالنفس وهو مذموم كذلك والله -تعالى- يقول:

(فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ) (النجم: 32).

2- إن قولهم (لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ) (البقرة: 32). يشبه الاعتذار، والاعتذار لا يكون إلا عن خطأ.

3- إن قوله - تعالى- (أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ) (البقرة: 31). يفهم منه أنهم كانوا كاذبين فيما قالوه أولاً.

4- إن قوله - تعالى-: (أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ) (البقرة: 33). يفهم منه أنهم كانوا يشكون في علم الله - تعالى- بكل شيء.

5- إن طعنهم في بني آدم قائم على الظن المحض، وهذا لا يجوز، والله -تعالى- يقول:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ (الإسراء: 36).

6- واستدلوا كذلك بقصة الملكين هاروت وماروت اللذين ورد ذكرهما في القرآن الكريم في قوله - تعالى-:

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ (البقرة: 102).

وقد رويت في قصتهما آثار كثيرة منها ما روي عن علي، وابن مسعود، وابن عباس وابن عمر، وكعب الأحبار والسدي والكلبي، وفحواه أنه لما كثر الفساد من أولاد آدم - عليه السلام- وكان ذلك في زمن إدريس -عليه السلام- عيرتهم الملائكة، فقال الله - تعالى-: «أما إنكم لو كنتم مكانهم وركّب فيكم ما ركبت فيهم لعملتم مثل أعمالهم. فقالوا: سبحانك ما كان ينبغي لنا ذلك» قال: فاختاروا وليكن من خياركم. فاختاروا هاروت وماروت. فأنزلهما إلى الأرض وركب فيهما الشهوة، فما مر بهما شهر حتى فتنا بامرأة اسمها بالنبطية (بيدخت) وبالفارسية (ناهيل) وبالعربية (الزهرة) اختصمت إليهما، وراوداها عن نفسها فأبت إلا أن يدخلا في دينها ويشربا الخمر ويقتلا النفس التي حرم الله فأجاباها وشربا الخمر، وألما بها، فرآهما رجل فقتلاه، وسألتهما عن الاسم الذي يصعدان به إلى السماء فعلماها فتكلمت به فعرجت فمسخت كوكباً.

وروى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس قال: وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب.

ويعلق ابن كثير على رواية الحاكم فيقول: «وهذا اللفظ أحسن ما ورد في شأن الزهرة» (تفسير ابن كثير 48/1).

7- إن ابليس كان من الملائكة المقربين، ومع ذلك عصى الله -تعالى- برفضه السجود لآدم - عليه السلام-، قال - تعالى-:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ (البقرة: 34).

8- إن الله – تعالى- أخبر أن من الملائكة من سيكون من أصحاب النار. قال –تعالى-:

(وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً) (المدثر: 31).

فدلت الآية الكريمة على أنهم سيعذبون فيها كما قال –تعالى-:

(أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ) (يونس: 27).

وقريب من هذا ما ورد في قوله –تعالى-:

(وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ) (الأنبياء: 29).

وقد رد عليهم الجمهور أدلتهم هذه على النحو التالي:

1- أما قوله – تعالى-: (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا) (البقرة: 30). فليس فيه أدنى اعتراض على الباري – سبحانه-، غاية ما في الأمر أن هذا الاستفهام يفيد الاستفسار والاستخبار، ولا يفيد المعارضة والاستنكار، وهذا ما ذهب إليه شيخ المفسرين ابن جرير الطبري، وتبعه ابن كثير.

وقد مال بعض المفسرين إلى أن الحوار الوارد في الآيات الكريمة ليس حقيقياً وإنما هو من باب تمثيل المعاني المجردة بصورة حسية، كما ورد في قوله – تعالى-:

(يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ) (ق: 30).

يقول الشيخ محمد عبده: «وتقرير التمثيل في القصة على هذا المذهب هكذا: إن إخبار الملائكة بجعل الإنسان خليفة في الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التي بها قوامه ونظامه لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها فيكون به كمال الوجود في هذه الأرض. وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد في الأرض لأنه يعمل باختياره ويعطى استعداداً في العلم والعمل لا حد لهما، هو تصوير لما في استعداد الإنسان لذلك وتمهيد لبيان أنه لا ينافي خلافته في الأرض» (تفسير المنار 280/1، 281).

وذهب آخرون إلى أن سؤالهم كان على وجه المبالغة في تعظيم الله – تعالى-، فإن العبد المخلص لشدة حبه لمولاه يكره أن يكون له عبد يعصيه.

- وأما دعواهم أن في سؤال الملائكة غيبة لبني آدم، والغيبة من الكبائر، فليس كل ذكر للإنسان في غيابه بما يسؤوه يعد غيبة، وقد وجدنا علماءنا يذكرون حالات رخصوا فيها ذكر الإنسان بالسوء في غيابه جمعها الشاعر في قوله:

الذم ليس بغيبة في ستةٍ   متظلم ومعرف ومحذر

وهذا الذم من الملائكة لابن آدم – إن كان يُعــدّ ذمــاً – ينـــدرج تحـــت هـــذه الاستثناءات المذكورة.

– وأما مدح النفس فلا يعد مظهراً من مظاهر العجب والكبر في كل حال، والله –تعالى– يقول:

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) (الضحى: 11).

وأيضاً فيحتمل أن هذا لم يسق في مجال مدح النفس، وإنما في معـــرض طلـــب وجه الحكمة من اختيار آدم، بدون أن يخطر في بالهم أن يقدحوا في حكمـــة البـــاري –سبحانه–، وكيف ذلك وهم يسبحون الله –تعالى– ويقدسونه ؟!

2– أما جواب الملائكة بقولهم (لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ) (البقرة: 32). فلا يـــستدعي وجود خطأ بدر منهم يستدعي الاعتذار، وإنما هذا اعتراف منهم بعظمة الذات الإلهية ومعرفة حقيقية لأقدارهم بدون أن يكون هناك أغلاط وأخطاء.

3– وأما دعوى اتهام بني آدم اتباعاً للظن بدون الوقوف على يقين، فمردود كذلك بـــالعلم الضروري الحاصل من معرفة مركبات هذا المخلوق الجديد، الذي خلق مـــن طـــين لازب، فمادته ليست بالنقاء المطلوب، وليست بصفاء النور الذي منه خلقت الملائكة.

ومن الصحابة من رأى أن علمهم هذا لم يكن قائماً على الاستنباط والظن، إنمـــا هو قائم على اليقين، ويروى ذلك عن ابن مسعود وغيره، ويروون فـــي ذلـــك أن الله –تعالى– كان قد أعلم الملائكة أنه كان في الأرض خلق عظيم أفسدوا فيها وسفكوا الدماء. كما يروون أن الملائكة اطلعت على اللوح المحفوظ الذي يحوي كل أمور الخلق.

4– وأما قصة هاروت وماروت فهي من الإسرائيليات كما صرح بذلك ابن كثيـــر فـــي تفسيره (48/1)، والقرطبي (52/2) ومن أوجه بطلان هذه القصة:

أ– أن الله – تعالى– خلق الزهرة وغيرها من الكواكب حين خلق السماء، وأما دعوى أن الزهرة كانت امرأة مسخت فصارت كوكباً فهـــي مـــن أســـاطير الأولـــين، وخرافات الأقدمين، وله صلة بعقائد الباطنية.

ب– جاء في القصة قول الله –تعالى– للملائكة: أما إنكم لو كنتم مكانهم وركب فـــيكم ما ركبت فيهم لعملتم مثل أعمالهم، فقالوا: سبحانك، ما كان ينبغي لنا ذلك. وهذا – إن صدر منهم – تكذيب للباري –سبحانه وتعالى–، ونحن نعيذهم مـــن هـــذا الكلام المفترى.

وأنى كان من أمر، فإنك تلحظ معي - أخي الدارس، أن إيراد هذه القصة للطعن في عصمة الملائكة أمر خارج عن دائرة الاعتبار، ولئن سألت عن تفسير لهذا الكلام فإني أحيلك ثانية إلى القصة؛ لتقرأها، ولتستنتج السبب بنفسك.

تدريب (4)

تأمل ما ورد في القصة من القول المنسوب إلى الله «أما إنكم لو كنتم مكانهم وركب فيكم مثل ما ركبت فيهم لعملتم مثل اعمالهم».
كيف تستدل بهذا النص على بطلان التمسك بهذه القصة للقدح في عصمة الملائكة ؟

5- وأما دعواهم أن إبليس كان من الملائكة المقربين، ثم عصى فهو قول مرجوح. وسيأتي تحقيق هذه المسألة في القسم الثالث من هذه الوحدة المتعلق بـ (عالم الجن).

6- بقي أن نفند زعمهم الأخير بأن كون الملائكة من أصحاب النار يعني أنهم سيعذبون فيها، وهذا استنتاج غريب، ويستطيع من له أدنى إلمام بفهم اللغة أن يتبين أن معنى قوله - تعالى- (وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً) (المدثر: 31) يراد به أنهم خزنة النار والمتصرفون فيها المدبرون لأمرها.

وأما قوله - تعالى-: (۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ) (الأنبياء: 29). فهذا من قبيل الوعيد، وليس من لوازمه أنهم يُتَصَوّر منهم ادعاء الألوهية، ومثل هذا في القرآن الكريم كثير، ومن ذلك:

قوله - تعالى- حكاية عن نفسه:

(لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ) (الأنبياء: 17).

وقوله -تعالى- حكاية عن رسول الله ﷺ:

(لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ) (الزمر: 65).

والشرك غير متصور في حقه ﷺ. (ابن حزم، الفصل، 26/25/4).

وبعد - أخي الدارس-، فهل توصلت إلى قناعة محددة بخصوص عصمة الملائكة؟ وهل ترجح لديك أحد الرأيين؟

4.3 أصناف الملائكة ووظائفهم

للملائكة أصناف كثيرة ووظائف موازية تتلخص في أن بيدهم إدارة ملكوت السموات والأرض بأمر الله، بما يتضمنه هذا الملكوت من مخلوقات تند عن الحصر. وفيما يلي - أخي الدارس، بيان بأهم أصنافهم ووظائفهم.

1.4.3 ملائكة العرش

ملائكة العرش قسمان، فمنهم حملة العرش ومنهم الحافون به.

- أما حملة العرش فقد ورد فيهم قوله -تعالى-:

(وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ) (الحاقة: 17).

وقال كذلك:

(ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ) (غافر: 7).

وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله - تعالى- من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام». (رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في الجهمية).

وقد ورد في أوصاف حملة العرش وأصنافهم أخبار تفتقر إلى الصحة، من مثل ما أورده القزويني في كتابه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات)، فجعل قسماً منهم على هيئة البشر، والثاني على هيئة البقر، والثالث على هيئة النسر، والرابع على هيئة الأسد، وتطرق إلى أوصافهم الخلقية وما عليهم من ملابس، جرياً على أسلوب القصاصين القدامى في اختلاق الأخبار. (القزويني، 1977، ص 89-100).

أما الحافون به فقد ورد قوله - تعالى-:

(وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) (الزمر: 75).

وملائكة العرش أعز الملائكة وأكرمهم على الله - تعالى-. وترى أن مهمتهم

الأساسية هي الإمساك بهذا الوجود، وتدبير أمره، إضافة إلى تسبيح الباري -سبحانه-، والاستغفار للمؤمنين. وهي مهمة كبيرة كريمة تظهر مدى ما يقوم به الملائكة من دور في حفظ هذا الكون وقد تتساءل، أخي الدارس، أليس في الإيمان بهذا الدور الذي يقوم به الملائكة منافاة لما يقوله العلم الحديث من وجود قوانين ونواميس كونية تضبط هذا الوجود؟

وجوابه أن «هذه القوانين والأسباب هي مخلوقات من مخلوقات الله، والملائكة موكلة بها أيضاً، وموكلة برعايتها كما ترعى المخلوقات الأخرى». (ياسين، الإيمان، 1987، ص 46).

2.4.3 أكابر الملائكة

ذكرت لنا النصوص الشرعية من آيات كريمة، وأحاديث شريفة أسماء عدد من الملائكة العظام المميزين، منهم جبريل وإسرافيل وميكائيل وملك الموت.

أما جبريل - عليه السلام- فهو المقدم بين أكابر الملائكة، وقد اختصه الله - تعالى- بصفات عدة منها:

1- أنه صاحب الوحي. قال - تعالى-:

(نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ) (الشعراء: 193-194).

2- وهو الروح القدس. قال - تعالى-:

(وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ) (البقرة: 87).

3- وقد ذكره الله - تعالى- بعد لفظ الجلالة في قوله -تعالى-:

(فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ) (التحريم: 4).

4- وقد مدحه بصفات ست في قوله - تعالى-:

(إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ) (التكوير: 21-19).



نشاط(2)

ارجع إلى تفسير ابن كثير لتَتَبيّنَ معاني الصفات الست المذكورة في الآيات السابقة من سورة التكوير.

ومن الجدير بالذكر أن لليهود موقفاً عدائياً من جبريل - عليه السلام-. قال - تعالى-: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: 97).

وقد اختلف في سبب كراهية اليهود وعداوتهم له على أقوال منها:

- أنه نقل النبوة من بني إسرائيل إلى غيرهم.
- أنه يطلع على أسرارهم.
- ورجح ابن حجر أن ذلك عائد لكون جبريل هو الذي سينزل بحربهم وقتالهم. يروى أن اليهود قالت للنبي ﷺ: من صاحبك الذي يأتيك من الملائكة؟ فإنه ليس من نبي إلا يأتيه ملك بالخبر، قال: هو جبريل. قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال. ذاك عدونا» (ابن حجر، فتح الباري 233/9، ابن القيم، إغاثة اللهفان، 129/2).

- **إسرافيل**

هو الملك الموكل بالصور. أما الصور فقد ورد بيانه في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما- قال: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: قرن ينفخ فيه». (أخرجه أبو داود والترمذي).

ويقوم إسرافيل بالنفخ في الصور نفختين، وقد أخرج الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون. قيل: أربعون يوماً؟ قال أبو هريرة: أبيت. قالوا: أربعون شهراً؟ قال أبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل» (أخرجه البخاري ومسلم).

هذا ولا يزال إسرافيل مترقباً أمر ربه بالنفخ في الصور. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «كيف انعم وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر فينفخ؟ فكأن ذلك ثقل على أصحابه فقالوا: فكيف نفعل يا رسول الله، أو نقول؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا» (أخرجه الترمذي في صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الصور).

- **ميكائيل:**

وأما ميكائيل - عليه السلام- فهو الملك الموكل بالقطر والنبات، وهو من أشرف

الملائكة المقربين، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه، يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب – جل جلاله-.

وقد ورد ذكر ميكائيل في قوله – تعالى-:

(مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ) (البقرة: 98).

كما ورد ذكره في عدد من الأحاديث الشريفة منها ما رواه النسائي من أن رسول الله ﷺ قال «اللهم رب جبريل وميكائيل ورب إسرافيل أعوذ بك من حر النار وعذاب القبر» (أخرجه النسائي في كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر).

- **ملك الموت:**

قال -تعالى-:

(۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) (السجدة: 11).

ولم يصرح القرآن الكريم باسم ملك الموت، كما لم يرد اسمه في الأحاديث الصحيحة، وقد جاءت تسميته في بعض الآثار بعزرائيل. (ابن كثير، البداية والنهاية 47/1).

وقد يتوهم بعض الناس أن الملك الموكل بالموت وقبض الأرواح واحد هو عزرائيل كما تقدم، والحقيقة أن لملك الموت أعواناً على هذه المهمة، فهناك النازعات والناشطات الوارد ذكرها في قوله – تعالى-:

(وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا) (النازعات: 1-2).

وقد ذكر ابن مسعود وابن عباس ومسروق وسعيد بن جبير أن (النازعات غرقا) هي الملائكة تنزع أرواح بني آدم بعسر فتغرق في نزعها، أما (الناشطات) فهي الملائكة تأخذ روحه بسهولة ويسر وكأنما حلته من نشاط. (تفسير ابن كثير 466/4).

ومن الملائكة من وكل بسؤال الميت في قبره، فيسألانه عن ربه ودينه ونبيه ويمتحنانه في ذلك، وقد استفاض في الأحاديث الشريفة تسميتهما منكراً ونكيراً ولهما صفات مرعبة وأشكال مخيفة.

3.4.3 ملائكة الجنة والنار

سخر الله – سبحانه وتعالى- ملائكة لجنته وملائكة لناره، وهم المعروفون

بالخزنة، أي خزنة الجنة والنار.

أما خزنة الجنة فرئيسهم رضوان ومهمتهم استقبال أهل الجنة وإكرامهم بأمر الله - تعالى-. وفي أمر استقبالهم للمؤمنين يرد قوله -تعالى-:

(وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ) (الزمر: 73).

وهم يقومون بخدمة المؤمنين وإسباغ النعيم عليهم بأمر الله - تعالى-. قال -تعالى-:

(جَنَّٰتُ عَدۡنٍ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ ۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ ۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ) (الرعد: 23-24).

وأما خزنة النار فرئيسهم مالك، قال -تعالى- في شأن أهل النار:

(وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ) (الزخرف: 77).

وهؤلاء الخزنة موصوفون بالشدة والغلظة كما قال - تعالى-:

(لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ) (التحريم: 6).

وزبانية جهنم لا يحصون كثرة، فقد روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالنار يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها» (رواه مسلم في صفة جهنم باب في شدة حر نار جهنم).

4.4.3 الملائكة الموكلون ببني آدم

وهؤلاء الملائكة أصناف كثيرة ووظائفهم عظيمة تحيط بالحياة البشرية مبدءاً ومنتهى وهذا من كمال رعاية الله - سبحانه وتعالى- لهذا الإنسان.

فمنهم من يتولى بداية خلق الإنسان، وهم الموكلون بنفخ الروح. روى مسلم في صحيحه عن ابن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد» (صحيح مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن امه).

ومنهم المعقبات، وهم الموكلون بحفظ العبد في حله وترحاله، وفي يقظته ونومه. قال - تعالى-:

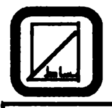
(سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ) (الرعد: 10-11).

وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه إلا قال له الملك وراءك، إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه. (الحكمي، معارج القبول 18/2).

ومنهم الكرام الكاتبون، قال - تعالى-:

(إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) (ق: 17-18).

وقد روى البغوي عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يسار الرجل، وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً، وإن عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر».



نشاط (3)

يزعم بعض العامة أن اسم الملك الموكل بكتابة الحسنات رقيب، والآخر عتيد. بين المعنى الصحيح بالرجوع إلى أي من كتب التفسير.

ومنهم الموكل بتسديد الإنسان وهدايته وإرشاده. قال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة. قالوا: وإياك يا رسول الله. قال: وإياي. ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير» (رواه أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود رقم 36/48).

ومنهم الذين يبتدرون مجالس الذكر. قال ﷺ: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده (رواه الترمذي

في الدعوات، باب القوم يجلسون فيذكرون الله). ومنهم ملائكة الموت، وقد تقدم ذكرهم.

وقد أحسن ابن القيم في تلخيص مهمات الملائكة ووظائفهم المتصلة بالإنسان، إذ قال «فإنهم موكلون بتخليقه، ونقله من طور إلى طور، وتصويره، وحفظه في أطباق الظلمات الثلاثة، وكتابة رزقه وعمله وأجله وشقائه وسعادته، وملازمته في جميع أحواله، وإحصاء أقواله وأفعاله، وحفظه في حياته، وقبض روحه عند وفاته، وعرضها على خالقه وفاطره، وهم الموكلون بعذابه ونعيمه في البرزخ وبعد البعث، وهم الموكلون بعمل آلات النعيم والعذاب وهم المثبتون للعبد المؤمن بإذن الله، والمعلمون له ما ينفعه، والمقاتلون الذابون عنه وهم أولياؤه في الدنيا والآخرة، وهم الذين يرونه في منامه ما يخافه ليحذره، وما يحبه ليقوى قلبه ويزداد شكراً، وهم الذين يعدونه بالخير ويدعونه إليه، وينهونه عن الشر ويحذرونه منه. فهم أولياؤه وأنصاره، وحفظته، ومعلموه وناصحوه، والداعون له، والمستغفرون له، وهم الذين يصلون عليه ما دام في طاعة ربه، ويصلون عليه ما دام يعلم الناس الخير ويبشرونه بكرامة الله -تعالى- في منامه وعند موته ويوم مبعثه، وهم الذين يزهدونه في الدنيا، ويرغبونه في الآخرة، وهم الذين يذكرونه إذا نسي وينشطونه إذا كسل ويثبتونه إذا جزع، وهم الذين يسعون في مصالح دنياه وآخرته» إلى أن يقول: «ولهذا كان الإيمان بالملائكة - عليهم السلام- أحد الأصول الخمس التي هي أركان الإيمان وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر» (ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، 130/2، 131).

تدريب (5)

أخي الدارس، ذكر ابن القيّم أنّ أركان الإيمان خمسة وليس ستة:

1- ما الركن الذي أغفله ابن القيم هنا؟

2- لماذا اغفل ابن القيم الأصل السادس من أصول الإيمان؟

وعلينا، ونحن بصدد بيان وظائف الملائكة في عالمنا الإنسي، أن نعرض لمسألة اختلف فيها علماؤنا، وهي قتال الملائكة إلى جانب المؤمنين.

وأصل المسألة خلافهم في فهم قوله - تعالى-:

(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ

﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: 9-10).

وهذه الآيات الكريمة جاءت بمناسبة غزوة بدر الكبرى، فهل اشتركوا في القتال بصورة حسيّة، أم أن الإمداد هنا ليس إلا من قبيل رفع المعنويات، وتحصيل الطمأنينة النفسية، والاستبشار بالنصر؟

ذهب فريق من العلماء إلى أن ذلك كان مشاركة معنوية، فهم لم يقاتلوا بدلالة قوله - تعالى-: «وما جعله الله إلا بشرى» ثم إن ملكاً واحداً قادر على أن يمحق جيش المشركين بضربة واحدة، ناهيك عن الف ملك. ومن هؤلاء العلماء الفخر الرازي في تفسيره الكبير (130/15) والشيخ محمد عبده في تفسير المنار (111/4).

وذهب آخرون إلى أنهم قاتلوا فعلاً، واستدلوا على ذلك بما رواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس - رضي الله عنهما-: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك فخرّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: صدقت، وذلك من مدد السماء الثالثة» (صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة)، وقد دافع الشيخ تقي الدين السبكي عن هذا الرأي فقال: سئلت عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي ﷺ مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه فقلت: وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب وسنتها التي أجراها - تعالى- في عباده، والله - تعالى- هو فاعل الجميع» (ابن حجر، فتح الباري 315/8).

والذي أراه أن الدعم والإمداد حصل فعلاً، وهذا لا يعني أنهم شاركوا في القتال، إنما ذلك من باب بشارة النبي ﷺ بالنصر، ويكفي أن نعلم أن إبليس كان وراء جيش المشركين يدفعهم ويحثهم على قتال المؤمنين، فيجيء وجود الملائكة هنا لغلّ يد إبليس وجنده. قال - تعالى-:

﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ (الأنفال: 48).

قال قتادة: وذكر لنا أنه رأى جبريل - عليه السلام- تنزل معه الملائكة فعلم عدو الله أنه لا قبل له بالملائكة، فقال: إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، وكذب عـدو الله، والله ما به مخافة، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة» (تفسير ابن كثير 318/2).

وغير خاف عليك، أخي الدارس، ما يتركه وجود الملائكة في الميدان من أثر في نفوس المجاهدين، وشد أزرهم وتحريك مشاعرهم.

ونحن لو شايعنا وجهة نظر القائلين باشتراكهم فعلاً في القتال، فماذا نقول -إذن- فيما أصاب المسلمين يوم أحد من الهزيمة بادئ الأمر، عند من يقول باشتراكهم في القتال يوم أحد كذلك؟ هل نقول أن الملائكة هزموا ؟ معاذ الله !!

5.4.3 ملائكة السماء الموكلون بأحوال الكون

وهنالك طوائف أخرى من الملائكة غير من ذكرنـا، مـنهم ملائكـة الـسماء المذكورون في سورة (المرسلات) من قوله - تعالى-:

(وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا) (المرسلات: 1-6).

- فالمرسلات هي الملائكة يرسلها الله - تعالي- لتدبير أمر خلقه. وهو قول أبي هريـرة وابن عباس.
- والعاصفات هي الملائكة تعصف بروح الكفار. قاله الزجاج ومسلم بن صبيح.
- والناشرات هي الملائكة تنشر السحاب، أو تنشر أجنحتها في الجو صعوداً ونـزولاً أو تنشر أوامر الله في الأرض والسماء.
- والفارقات هي الملائكة تأتي بما يفرق بين الحق والباطل. قاله الأكثرون (ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، ص89-92).
- ومنهم الملائكة المذكورون في سورة (الصافات) من قوله - تعـالى-: (وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا) (الصافات: 1-3). فالصافات هي الملائكة في هيئة صفوف في السماء. قاله ابن عباس. وقيل هـي الملائكـة تـصف أجنحتها في الهواء.
- والزاجرات: هي الملائكة التي تزجر السحاب. قاله الجمهور.

- والتاليات ذكراً: هي الملائكة التي تقرأ كتب الله - تعالى-. قاله الجمهور (ابن الجوزي، زاد المسير، 1964م، 7/44، 45).

وقد روى أحمد والترمذي وابن ماجة عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون. أطّت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد».

أخي الدارس:

هذه هي أصناف الملائكة ووظائفهم، أتينا على كثير منها، وما زال في الحديث بقية ويبرز أمامنا سؤال كبير: ما معنى أن يعهد إلى الملائكة بهذه المهمات الجسيمة المتعددة مع أن الله - تعالى- لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم؟

ونجيب بما أجاب به الدكتور البوطي إذ قال: «إن ذلك ليس إلا مظهراً لسلطانه وعظيم ملكه، وإظهاراً لقدرته المعنوية في مظهر حسي يتلاءم مع تصور الإنسان والمألوف في حياته».

وقال: «ومعلوم بالبداية أن الله - عز وجل-، وهو الذي خلق هؤلاء الملائكة وأولاهم هذه الطاقة، غير محتاج إلى وساطتهم وسببيتهم في شيء ولكن شاءت حكمة الله - عز وجل- أن يظهر سلطانه وقوته لعباده بالشكل الذي ألفوه في حياتهم وتعودته أخيلتهم وأفكارهم». (البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، 1390 هـ، ص 279، 294).

5.3 المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر

قد يبدو من الغريب، أخي الدارس، بعدما قدمنا من حديث مسهب عن صفات الملائكة ووظائفهم، أن نعقد نمطاً من المقارنة بل المفاضلة بين الملائكة والبشر، فهل يعقل أن يستوي المخلوق من الطين مع من خلق من النور فضلاً عن أن يفضله؟

لقد بحث علماؤنا هذه المسألة، ولم يتحرجوا من تحديد مواقفهم حيالها إيجاباً، أو سلباً. تناولها الفخر الرازي في تفسيره (2/215-225)، والإيجي في كتابه المسمى المواقف في علم الكلام (367-370)، وابن حجر في فتح الباري (17/157-159)، والكمال بن أبي شريف في المسامرة (212-214)، وأثارها شارح العقيدة الطحاوية (340-348)، وآخرون غيرهم، ويمكننا عند تأمل ما ورد فيها من آراء أن ننتهي إلى رأيين عريضين، أحدهما يفضل صالحي البشر وعلي رأسهم الرسل، والثاني يفضل الملائكة. والذين قالوا بتفضيل الأنبياء وصالحي البشر على الملائكة هم جمهور أهل السنة والشيعة. أما القائلون بتفضيل الملائكة فهم الفلاسفة والمعتزلة، وفيما يلي بيان بأدلة كل فريق.

1.5.3 أدلة القائلين بتفضيل صالحي البشر على الملائكة

1- قوله - تعالى-: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ (البقرة: 34).

فلو لم يكن آدم - عليه السلام- خيراً من الملائكة ما أمروا بالسجود له.

وقد رد عليهم المعتزلة بأن سجود الملائكة كان امتثالاً لأمر الله، وتعظيماً لآدم - عليه السلام-، وليس من لوازم ذلك أن يكون آدم أفضل من الملائكة، فقد سجد يعقوب - عليه السلام- لابنه يوسف، ونحن نطوف حول الكعبة مع أن حرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة.

2- قوله - تعالى-:

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: 31).

والعالم أفضل من غيره والله -تعالى- يقول:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: 9).

ورد الآخرون بأن الآية دلالة على الفضل لا على التفضيل، وآدم والملائكة لا يعلمون إلا ما علمهم الله، وليس الخضر أفضل من موسى - عليهما السلام-، وليس الهدهد أفضل من سليمان -عليه السلام- لإحاطته من أخبار ملكة سبأ بما لم يحط به نبي الله سليمان.

3- قوله - تعالى-:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران: 33).

والملائكة من جملة العالمين. وقد قام الإجماع على عدم تفضيل عامة البشر على رسل الملائكة، فيعمل بالعام فيما وراء هذا التخصيص.

4- إن طاعة الملائكة تقع منهم بالاضطرار لا بالاختيار، فهم مفطورون على الطاعة، بينما طاعة صالحي البشر تقع بالاختيار، ولا تتأتى إلا بمصارعة الأهواء، ولجم النفس الأمارة بالسوء. وقد عبر هؤلاء عن هذا المعنى بقولهم: «ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة، وركب البهائم من شهوة بلا عقل، وركب ابن آدم من كليهما، فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم». ويؤيد هذا المعنى قوله - تعالى- في شأن الكفار:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (الأعراف: 179).

فإذا كان الكفار شراً من البهائم فإن المؤمنين الأخيار أفضل من الملائكة.

2.5.3 أدلة القائلين بتفضيل الملائكة على صالحي البشر

1- إن الله – تعالى- جعل الإيمان بهم من أركان الإيمان، وليس كذلك صالحو البشر. قال - تعالى-: (وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ)(البقرة: 285).

2- إنه قد اطرد تقديم ذكر الملائكة على ذكر الأنبياء كما في الآية الكريمة المتقدمة وغيرها مثل قوله – تعالى-:

(ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا) (الحج: 75).

والتقديم المطرد يقتضي التفضيل.

3- قوله –تعالى- معلماً رسوله ﷺ:

(قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ) (الأنعام: 50).

وهذا يعني أنه لو صدر من الرسول ﷺ هذا القول لادعى ما هو فوق منزلته، وهو ليس ممن يدعي ذلك.

4- قوله – تعالى- في شأن الملائكة:

(يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ) (الأنبياء: 20).

والاستدلال بهذه الآية الكريمة من وجهين:

أولهما: أن الإقامة على نوع واحد يورث المشقة والملل، ولو كان هذا في البشر ما استطاعوه.

وثانيهما: أن عبادة الملائكة مستمرة دائمة غير منقطعة، وليس كذلك عبادة الناس.

5- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: يقول الله – تعالى-:

«أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم» (رواه البخاري/كتاب التوحيد) وقوله (في ملأ خير منهم) يراد به الملائكة، وعلى هذا فهم أفضل من غيرهم.

6- إنه قد ثبت في القرآن الكريم استغفار الأنبياء لأنفسهم وذويهم، ومن ذلك قوله على

لسان ابراهيم – عليه السلام–: (رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ) (نوح: 28) وقد أمر الله محمداً –عليه الصلاة والسلام– بالاستغفار فقال: (وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا) (النساء: 106).

وقد ثبت في القرآن الكريم كذلك استغفار الملائكة للمؤمنين ولم يستغفروا لأنفسهم، فلو كانوا بحاجة للاستغفار لبدأوا بأنفسهم، وهذا يدل على أن الملك أفضل من البشر.

7- إن الملائكة رسل الله إلى الأنبياء، والرسول أقرب إلى المرسل من المرسل إليه. وبعبارة أخرى فإن الملائكة رسل الله إلى الأنبياء، والرسل بعثهم الله إلى الناس، ومن كان مبعوثاً إلى الرسل خير ممن بعث إلى الناس.

8- إن الأنبياء – مع كونهم أفضل البشر– يتعلمون من الملائكة ويستفيدون منهم بدليل قوله – تعالى–: (عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ) (النجم: 5).

ولا شك أن المعلم أفضل من المتعلم. هذا، وهنالك أدلة أخرى لا نطيل البحث بذكرها.

6.3 آثار الإيمان بالملائكة في حياة المسلم

عرفت أخي الدارس، مدى التّماس بل الارتباط بين عالم الملائكة والعالم الإنسي، ولا شك أن مثل هذا الارتباط يترك آثاراً وبصمات على واقع حياة من يؤمن به، فما أهم الآثار المترتبة على الإيمان بالملائكة؟

1- لما كان الإيمان بالملائكة من الأمور السمعية التي تفتقر في الإيمان بها إلى دليل عقلي يقيني، فقد بينا أن سبيلنا إلى الإيمان بها هو الدليل الصحيح من القرآن والسنة، فإن لم تكن الأحاديث ثابتة وصحيحة فلا حجة حينذاك في أي خبر آخر يمكن أن يضيف إلى معلوماتنا عن الملائكة جديداً.

وماذا عسانا نفيد من هذه المقدمة ؟

نقول إن هنالك فائدة كبيرة، فإن إيماننا بالملائكة، على الصورة التي رسمها الشرع، يجنبنا الوقوع في الخرافات والأساطير الزائفة التي قد تصادم العقل الإنساني بادئ الرأي. وحسبنا أن نشير إلى تلك الأخبار الإسرائيلية التي لفقت حول هاروت وماروت وعلاقتهما بالزهرة، تلك المرأة الحسناء التي مسخت كوكباً فيما يزعمون.

2- إن ايماننا بالملائكة يقوي شعورنا بعظمة الله – عز وجل–، فهم – كما اتضح لنا من صفاتهم ووظائفهم – خلق عظيم، عظيم في القدرة، عظيم في السرعة، عظيم في

الطاعة، وهذه العظمة تعكس لنا عظمة الباري –سبحانه–، فهو الله الواحد الأحد بديع السموات والأرض، وليس الملائكة إلا عباداً له.

3- والإيمان بالملائكة يعكس لنا من وجه آخر مركز الإنسان الكبير في هذا الوجود، فالملائكة الذين هم أشد منا قدرة، وأنقى سريرة، وأطهر ذاتاً، قد أمروا بالسجود لآدم – عليه السلام–، وسخروا لتدبير أمور حياتنا في الدنيا، والقيام بشؤوننا في الآخرة. وفي هذا تنبيه للإنسان الذي جعله الله –تعالى– خليفة في أرضه أن يسلك الصراط المستقيم، ويتجنب طرق الغواية والضلال.

4- والإيمان بالملائكة يدفعنا إلى التشبه بهم في الطاعات، فهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وقد نبه الإمام الغزالي إلى هذا المعنى في بيانه لأسرار العبادات، ففي بيانه لأسرار الصوم قال إن المقصود به «الاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بحسب الإمكان فإنهم منزهون عن الشهوات... وكلما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين والتحق بأفق الملائكة.. والملائكة مقربون من الله – عز وجل–، والذي يقتدي بهم ويتشبه بأخلاقهم يقرب من الله – عز وجل– كقربهم، فإن الشبيه من القريب قريب» (الغزالي، إحياء علوم الدين، 1968م، 310/1).

وفي بيانه لأسرار الحج يقول: «واعلم أنك بالطواف متشبه بالملائكة الحافين حول العرش الطائفين حوله». (الغزالي، المرجع السابق، 351/1).

5- الاستحياء من الله – عز وجل–، فلا نقدم على معصية ولا نقترف خطيئة، فإذا كنا نؤمن أن الملائكة تتغشانا في مجالسنا، وتتولى كتابة أعمالنا، وهم يتعقبوننا في صحونا وغفلتنا، وفي سفرنا وحضرنا، فما معنى الإقدام على المعاصي في هذا الحال؟

إن عالم الغيب، – ومنه عالم الملائكة– غيب باعتباره غاب عن حواسنا، ولكن ليس غيباً بعيداً عنا، إنه يحيا معنا في عالمنا، عالم الشهادة، بل إن عالم الشهادة في الحقيقة والواقع بأيديهم وتحت إشرافهم، ففيم الجرأة على تقحم الباطل جهاراً ونحن نعلم أنه ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: 18).

6- الأنس بهم وعدم الشعور بالوحشة أو الاستسلام لليأس. «فعندما يضل الركب عن الطريق وتسود الجاهلية الجهلاء، ويصبح المؤمن غريباً في وطنه، وبين أهله وقومه، ويجد منهم الصدود والاستهزاء، والتخذيل والتثبيط عن طاعة الله، والاستقامة على أمره، في هذه الغربة يجد المؤمن أنيساً ورفيقاً يصحبه ويرافقه ويواسيه ويصبره ويطمئنه، ويشجعه على مواصلة السير على درب الهدى، فهذه جنود الله معه، وتشد من أزره، وتذكره بالخير عند ربه، فهو إذاً ليس وحده في الطريق إلى الله، ولكن

يسير مع الركب العظيم». (ياسين، الإيمان، 1971، ص59).

7- الإقدام لدى مواجهة العدو، فالمجاهد يعلم أن الله - تعالي- معه، ولا يتخلى عنه، وهو يؤيده بجنود من عنده، وما يعلم جنود ربك إلا هو. فكم من مــأزق نجــى الله فيــه المؤمنين، وكتب لهم فيه النصر على عدوهم. فقد أمدهم بالملائكة في بــدر، وســخر الريح على الأحزاب حتى هدت خيامهم وكفأت قدورهم. بل إننا رأينا - مــن قبــل ذلك- كيف حمى الله بيته الحرام من جند أبرهة أصحاب الفيل.

أسئلة التقويم الذاتي (2)

1- كيف تقوم رأي من يقول إن فلاناً صوته ملائكي؟

2- بين ثلاثة من مظاهر قدرة الملائكة - عليهم السلام-.

3- قــال - تعــالى-: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ (البقــرة: 30).

وضح كيف استدل بعضهم بهذه الآية الكريمة على عدم عصمة الملائكة، ثم بين ردود الجمهور عليهم.

4- بين أوجه الرد على قصة هاروت وماروت مع الزهرة.

5- استدل بعضهم على نفي عصمة الملائكة بقولــه - تعــالى-: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ (الأنبياء: 29). بم ترد على هــؤلاء رأيهم؟

6- فسّر سبب كراهية اليهود لجبريل - عليه السلام-.

7- ما الرأي الذي ترجحه في مسألة اشتراك الملائكة في القتال مع المؤمنين في غــزوة بدر؟ ادعم إجابتك بالأدلة.

8- اذكر خمسة أدلة احتج بها القائلون بتفضيل الملائكة على صالحي البشر.

9- اذكر أربعة من آثار الإيمان بالملائكة في حياتنا.

4. عالم الجن

عشنا في الفقرات السابقة مع عالم الملائكة الأبرار، المعصومين الأطهار، تحدثنا من خلالها عن طبيعتهم وأوصافهم وأعمالهم، والمفاضلة بينهم وبين البشر، وعن آثارهم في حياتنا، وها نحن - أخي الدارس- نكمل مسيرتنا عبر القسم الأخير من أقسام هذه الوحدة، لنتناول عالم الجن بالحديث، بالقدر الذي له علاقة بموضوعنا هذا. فما حقيقتهم؟ وما دليل الإيمان بهم؟ وما صفاتهم؟ وما علاقتهم بالملائكة؟ وما علاقتهم بالعالم الإنسي؟

1.4 حقيقة الجن

الجن في اللغة لفظ مأخوذ من (جنّ يجنّ) إذا استتر، ولذا سمي الجنين جنيناً لاستتاره في بطن أمه، والجنان هو القلب وسمي بذلك لاستتاره في الصدر، والمجن هو الترس الذي يستر حامله، وفي الحديث الشريف «الصوم جُنة» لأنه يقي الصائم من الآثام، والجنّة إنما سميت بذلك لشدة التفاف أشجارها وكثافتها بصورة تستر ما تحتها، والجنّة والجن عالم غيبي سموا بذلك لاجتنانهم أي استتارهم عن الأبصار. (ابن منظور، لسان العرب، مادة الجنين).

ولقد سبق لنا أن ذكرنا أن الجن مخلوقون من نار. قال - تعالى-:

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ (الحجر: 27).

وقال كذلك:

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ (الرحمن: 15).

وقد ورد في الحديث الصحيح عن عائشة - رضي الله عنها- قالت: خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» (رواه مسلم في الزهد، باب في أحاديث متفرقة).

يقول الشيخ علي الطنطاوي: «ولا يلزم من هذا أن يكونوا ناراً تحرق ما تمسه، ولا يمنع أن يكون الله قد حولهم فيما بعد إلى طبيعة أخرى، فالإنسان خلق من الطين، ولكنه لم يبق طيناً، بل أنشأه الله خلقاً آخر فجعله مركباً من عظام وعضلات ودم وأعصاب على سنة الكون» (الطنطاوي، 1969م، ص 123).

2.4 دليل الإيمان بهم

ورد ذكر الجن في القرآن الكريم بهذا اللفظ ومشتقاته نحواً من خمس وثلاثين مرة وهنالك سورة اسمها «سورة الجن».

قال - تعالى-:

(وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات: 56).

وقال كذلك:

(يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ) (الرحمن: 33).

وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة» (رواه البخاري في كتاب الأذان، باب رفع الصوت بالنداء).

والإيمان بوجود الجن معروف عند الأمم المختلفة حتى الكافر منها. يقول ابن تيمية «إن جميع طوائف المسلمين يقرون بوجود الجن، وكذلك جمهور الكفار كعامة أهل الكتاب، وكذلك عامة مشركي العرب وغيرهم من أولاد سام، والهند وغيرهم من أولاد حام، وكذلك جمهور الكنعانيين واليونانيين وغيرهم من أولاد يافث» (ابن تيمية، مجموع الفتاوي، 13/19).

ومع أن الإيمان بالجن ليس ركناً من أركان العقيدة الإسلامية، كما قدمنا، إلا أن الكفر بهم والتكذيب بوجودهم تكذيب بالقرآن الكريم نفسه، وقد ذكرنا أن حديث القرآن الكريم عنهم لم يكن حديثاً عابراً، بل إنه حديث يتصل بجوهر قضية الإيمان.

وعلينا أن نعيد إلى الذاكرة أن سبيلنا إلى الإيمان بهم هو الخبر الصحيح، فهم قوة من قوى عالم الغيب، وإن من المؤسف حقاً أن تغلو بعض الطوائف والأمم في إيمانها بالجن إلى حد يغدو فيه الإيمان بالله - تعالى- وملائكته - عليهم السلام- قضية ثانوية بالنسبة إلى الجن. وإن شئت بياناً على ما أقول فانظر ما كتبه الدكتور جواد علي من

حديث عن عقائد الجن عند الجاهليين فهو يقول «لقد لعب الإيمان بالجن عند بعض الجاهليين دوراً فاق الدور الذي لعبته الآلهة في مخيلتهم فنسبوا إليها أعمالاً لم ينسبوها إلى الأرباب، وتقربوا إليها لاسترضائها أكثر من تقربهم إلى الآلهة. إنها عناصر مخيفة مرعبة تؤذي من يؤذيها، وتلحق به الأذى والأمراض، ولذلك كان استرضاؤها لازماً لأمن تلك الآفات، وهذه العقيدة جعلت الجن في الواقع آلهة، بل أكثر سلطة ونفوذاً منها، وصيرت عمل الآلهة سهلاً يسيراً تجاه الأعمال التي يقوم بها الجن، ولا زال أثر هذه العقيدة باقياً في نفوس الناس حتى هذه الأيام، مع تقليل أهمية عمل الجن على الناس في الإسلام.

وليست هذه العقيدة عقيدة أهل الجاهلية حسب، بل هي عقيدة أكثر من اعتقد بأثر الأرواح في العالم وفي عمل الإنسان، إذ صيرتها آلهة مقرها الأرض، أو آلهة من الدرجة الثانية. والغريب أننا نرى بعض الشعوب تخصص أعمال الآلهة الكبيرة بناحية معينة، وتعدها آلهة رئيسية كبرى، بينما تجعل عمل الجن عملاً واسعاً يشمل كل الأرض والإنسان، أي أن عملها أوسع جداً من عمل تلك الآلهة وأعم وفي القرآن الكريم أن قريشاً جعلت بين الله وبين الجنة نسباً». (وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ) (الصافات: 158).

وأنها جعلت الجن شركاء له (وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ) (الأنعام: 100).

وورد أن الله تزوج الجن، وأن الملائكة هم بناته من هذا الزواج. قال كبار قريش: الملائكة بنات الله. فقال لهم أبو بكر الصديق: فمن أمهاتهم؟ قالوا: بنات سراة الجن» ويفهم من القرآن الكريم أيضاً أن من العرب من كان يعبد الجن.

(قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ) (سبأ: 41).

(علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 1980، 6/709، 710).

تدريب (6)

أخي الدارس، تأمل النص السابق واكتب ثلاثاً من عقائد العرب الجاهليين في الجن.

3.4 صفاتهم

يشترك الجن مع الملائكة في بعض الصفات، كما يشتركون مع الإنس في صفات أخرى ويتفردون بصفات خاصة بهم، ويمكننا إيجاز الحديث عن صفات الجن فيما يلي:

1.3.4 مخلوقات نارية

وقد سبق لنا أن أقمنا الدليل على ذلك والذي تدل عليه النصوص القرآنية الكريمة أنهم خلقوا قبل آدم - عليه السلام-، فقد كان إبليس واحداً ممن كلفوا السجود لآدم فـأبى، وإبليس - كما سيتبين لنا بعد قليل - من الجن.

2.3.4 يوصفون بالذكورة والأنوثة

وفي هذا يستوون مع الإنس ويختلفون عن الملائكة.

ودليل ذلك ما ورد في قوله - تعالى-:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا) (الكهف: 50).

وقال - تعالى- في شأن الحور العين:

(لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ) (الرحمن: 56).

وعلى هذا فالجن يتكاثرون شأنهم شأن الإنس.

3.3.4 يأكلون ويشربون

فقد ورد في الحديث الصحيح عن أبي هريرة وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله» (رواه مسلم في الاشربة، باب آداب الطعام والشراب).

كما ورد في الحديث الصحيح أن من طعامهم الروث والعظم، فقد روى البخاري في رواية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ابغني أحجاراً أستنفض بها ولا تأتني بعظم ولا روث. قلت: ما بال العظم والروثة؟ قال: هما من طعام الجن» (رواه البخاري في

الوضوء، باب الاستنجاء بالحجارة) أما كيفية الأكل والشرب فأمور لا ندري كنهها، ونؤمن بها كما وردت، إذ إن عدم العلم بالشيء ليس دليلاً على عدمه.

4.3.4 لديهم القدرة على التشكل

للجن القدرة على الظهور بصورة إنسان أو حيوان أو غيره. يقول ابن تيمية: «وكثيراً ما يتصور الشيطان بصورة المدعو المنادى المستغاث به إذا كان ميتاً. وكذلك قد يكون حياً ولا يشعر بالذي ناداه، بل يتصور الشيطان بصورته، فيظن المشرك الضال المستغيث بذلك الشخص أن الشخص نفسه أجابه، وإنما هو الشيطان. وهذا يقع للكفار المستغيثين بمن يحسنون به الظن من الأموات والأحياء، كالنصارى المستغيثين بجرجس وغيره من قداديسهم، ويقع لأهل الشرك والضلال من المنتسبين إلى الإسلام الذين يستغيثون بالموتى والغائبين» (ابن تيمية، مجموع الفتاوي، 57/19).

5.3.4 يروننا ولا نراهم

قلنا أن الجن إنما سموا جناً لاستتارهم عن الأنظار، وهم لا يرون إلا إذا ظهروا في صورة أخرى من الحسيات. وقد أخبرنا الله – عز وجل– أنهم يروننا ولا نراهم، قال – تعالى– في شأن الشيطان:

(إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) (الأعراف: 27).

يقول ابن حزم معلقاً على هذه الآية الكريمة: «وإذا أخبرنا الله –عز وجل– أننا لا نراهم فمن ادعى أنه يراهم أو رآهم فهو كاذب إلا أن يكون من الأنبياء –عليهم السلام– فذلك معجزة لهم كما نص رسول الله ﷺ أنه تفلت عليه الشيطان ليقطع عليه صلاته، قال: فأخذته، فذكرت دعوة أخي سليمان ولولا ذلك لأصبح موثقاً يراه أهل المدينة، أو كما قال – عليه السلام–... ولا سبيل إلى وجود خبر يصح برؤية جنيّ بعد موت رسول الله ﷺ، وإنما هي منقطعات أو عمن لا خير فيه» (ابن حزم، الفصل 82/5).

والحديث الذي أشار إليه ابن حزم ذكره البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت علي البارحة – أو كلمة نحوها – ليقطع علي الصلاة، فأمكنني الله منه، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان (رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي)». (كتاب الصلاة، باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد).

6.3.4 يتمتعون بقدرات خارقة

وآية ذلك انسياحهم في أرجاء السماء والأرض، ومنهم من يحاول استراق السمع من الملأ الأعلى فتتقاذفه ملائكة السماء وترده على الأعقاب. قال – تعالى-:

(إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ) (الصافات: 6-10).

ولعلنا نذكر قصة ذلك العفريت الذي كان من جند سليمان – عليه السلام-، حيث تكفل بنقل عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين في بعض من نهار، قال – تعالى-:

(قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ) (النمل: 38-39).

7.3.4 لا يتمتعون بالعصمة

خلافاً لما ذكرناه من وصف الملائكة بالعصمة، نجد أن الجن في عالم الخطيئة كالإنس، منهم الطائع والعاصي، والمؤمن والكافر، وقد ورد في سورة الجن قوله – تعالى- على لسان أولئك النفر الذين استمعوا للقرآن الكريم فأسلموا:

(وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ۝١٣ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا) (الجن: 11-15).

وهؤلاء القاسطون الكفار هم جند إبليس من الشياطين.



نشاط (4)

صنف صفات الجن بحسب مشابهتها لصفات الملائكة أو صفات الإنس أو تميزها عنهما.

4.4 علاقتهم بالملائكة

للعلماء في موضوع علاقة الجن بالملائكة خلاف يمكن توجيهه ضمن مسألتين ثار حولهما الجدل، وهما:

- هل الجن من الملائكة؟
- هل إبليس من الملائكة؟

1.4.4 الجن والملائكة

ذهب بعض العلماء إلى أن الجن ضرب من الملائكة، والجامع بينهم عنصر الاجتنان أي الاستتار عن العيون، وكان أهل الجاهلية يسمون الملائكة - عليهم السلام- جناً لهذا السبب (ابن منظور، لسان العرب، مادة جنين).

ويذكر الجاحظ أن للعرب منهجاً خاصاً في إطلاق هذه الألفاظ:

- فإن ذكروا الجني سالماً قالوا جني.
- وإذا أرادوا أنه ممن سكن مع الناس قالوا عامر، والجميع عمار.
- فإن خبث أحدهم وتعرم فهو شيطان .
- وإن كانوا ممن يعرضون للصبيان فهم أرواح.
- فإن زاد على ذلك في القوة فهو عفريت.

فإن طهر الجني ونظف وصار خيراً كله فهو ملك. (الجاحظ، الحيوان 190/6) وقد حاول بعض العلماء الاستدلال على أن الملائكة يسمون جناً بقوله - تعالى-:

(أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ

ٱلۡجِنَّةِ نَسَبًاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ) (الصافات: 150-158).

فقد ابتدأت الآيات بالحديث عن الملائكة وانتهت بالحديث عن الجن، قال مجاهد: إن كفار قريش قالوا: الملائكة بنات الله، والجنة صنف من الملائكة يقال لهم الجن.

وهذا الذي قاله مجاهد، أو نسب إليه غير سديد فيما نرى، ونميل إلى ما رجحه القرطبي من قول الحسن البصري، إذ ذهب إلى أن الجنة هنا بمعنى الشياطين، أما النسب فهو الإشراك في عبادة الله، فقد عبد بعض العرب الجن. (تفسير القرطبي 135/15).

وقد مال الشيخ محمد عبده إلى عدم القطع بوجود فواصل بين الملائكة والجن فقال: «وليس عندنا دليل على أن بين الملائكة والجن فصلاً جوهرياً يميز أحدهم عن الآخر، وإنما هو اختلاف أصناف عندما تختلف أوصاف كما ترشد إليه الآيات، فالظاهر أن الجن صنف من الملائكة». (عبده، تفسير المنار، 1373هـ، 265/1).

وفي اعتقادنا أن تسمية الملائكة جناً بالمعنى اللغوي لا يزيل الفواصل بين عالم الملائكة وعالم الجن، فلكل ذاتيته وكينونته وماهيته، وفيما تقدم من فروق دليل، وسيأتي مزيد بيان في الفقرة اللاحقة.

2.4.4 إبليس والملائكة

قال - تعالى-:

(وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ) (البقرة: 34).

أثارت هذه الآية الكريمة خلافاً عريضاً بين العلماء بالنظر إلى الاستثناء الوارد فيها حول إبليس، وهل كان هذا الاستثناء متصلاً أم منقطعاً، وبالتالي فهل إبليس يصنف في عداد الملائكة أم غيرهم؟

أولاً: ذهب عدد من الصحابة والتابعين منهم ابن عباس وابن مسعود وابن جريج وابن المسيب وقتاده إلى أن إبليس من الملائكة، ويروى في هذا المقام عن ابن عباس أن إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم، وكان خازناً من خزان الجنة كما كان من أشرف الملائكة، وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض. وروي شبيه هذا عن قتادة وسعيد. وقد رجح الطبري هذا الرأي (تفسير الطبري 180/1).

واستدل هذا الفريق بالآية الكريمة المتقدمة، فقد استثناه الله - تعالى- منهم،

وجعل الله – تعالى- تركه السجود لآدم إباء واستكباراً.

ثانياً: ذهب الحسن البصري وجمهور المعتزلة إلى أن إبليس كان من الجن وليس له علاقة بالملائكة مستدلين على مذهبهم بما يلي:

أ- قوله – تعالى-:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ (الكهف: 50).

فقد صرحت الآية أنه من الجن، وقد بينا في فقرة سابقة أن الجن شيء يختلف عن الملائكة تماماً.

ب- إن الاستثناء في هذه الآية والتي سبقتها ليس استثناء متصلاً، بل هو استثناء منقطع، ونظائره في الآيات القرآنية كثيرة منها قوله – تعالى-:

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ (الواقعة: 25-26).

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ (النساء: 92).

وهنا يثور تساؤل: ما معنى هذا الاستثناء في الآيات الكريمة؟ وما الذي أوجب استثناء إبليس في السياق المتقدم؟

يرى ابن كثير أن الله – تعالى- لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس في خطابهم لأنه وإن لم يكن من عنصرهم – إلا أنه كان قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم، فلهذا دخل في الخطاب. (تفسير ابن كثير 77/1).

وذهب الرازي إلى أن العبرة بالغالب والكثرة، والكثرة هنا كانت للملائكة، ويجوز إجراء حكم الكثير على القليل إذا كان ذلك القليل ساقط العبرة غير ملتفت إليه. (تفسير الرازي 215/2).

وقد زعم بعضهم أن إبليس كان من جن الأرض فسبي من الملائكة وعاش بينهم. وهذه الرواية تعارضها رواية أخرى مفادها أن إبليس قاتل الجن مع جند من الملائكة. وهي روايات لا تثبت أمام النقد العلمي. وقد طعن ابن كثير في هذه الروايات فقال: «وقد روى في هذا آثار كبيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل؛ لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بين أيدينا، وفي القرآن غنية

عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة». (تفسير ابن كثير 88/3، 89).

ج- وهناك أدلة أخرى سبق تقريرها في أثناء حديثنا عن صفات الجن، منها أن مادة خلق إبليس مختلفة عن مادة خلق الملائكة، وهو من الجن والجن يأكلون ويشربون ويتناكحون خلافاً للملائكة، وهم ليسوا معصومين، ومنهم المؤمن والكافر، أما الملائكة فعباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

د- ولا بد لنا أن نذكر أن إسم إبليس لم يكن أصيلاً معه، وإنما هو وصف لزمه بعد تمرده واستكباره على الله - عز وجل-. والإبلاس هو اليأس من رحمة الله.

قال - تعالى-: (وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ) (الروم: 14).

ومنه اشتق لفظ إبليس.

يقول العقاد في هذا الشأن: «إن ضياع الأمل ألزم صفات إبليس على ألسنة الخاصة والعامة، وليس أشهر من المثل الذي يضرب بأمل إبليس في الجنة مرادفاً لمعنى الأمل الضائع كل الضياع. وقد فرق هذا المعنى بين كلمة إبليس وكلمة الشيطان في ملامح الشخصية، فهذا قد ضيع الحق وهذا قد ضيع الرجاء». (العقاد، ابليس، ص44).

5.4 علاقتهم بالإنس

هذه هي الفقرة الأخيرة من فقرات موضوعنا هذا، ونتناول فيها مسألتين يكثر حولهما الجدل، أولاهما قدرة إبليس على إغواء الناس، والثانية الاتصال بالجن واستشراف علم الغيب.

1.5.4 قدرة إبليس على إغواء الناس

كثيراً ما يقدم أحدنا على الشر حتى إذا فعله وتحرك وازعه الديني قال: لعنة الله على الشيطان الرجيم. ويُسأل أحدنا أحياناً: ما الذي حدا بك إلى فعل كذا وكذا؟ ويكون الجواب الحاضر: الشيطان. ونحن أمام هذا الأمر لا بد لنا، أخي الدارس، من تبين حقيقة هذه المسألة، فهل للشيطان تأثير فينا فعلاً؟ وإلى أي مدى يمتد هذا التأثير؟

ونقرر بداية أن إحدى أبعاد قصة الخليقة الأولى تتمحور حول الدور الذي اضطلع به إبليس في إغواء آدم وحواء - عليهما السلام- بعد أن عصفت به عاصفة الحسد نظراً للمركز الذي بوأه الله - تعالى- لآدم بالاستخلاف في الأرض. وقد كان هناك تحذير من الله - سبحانه وتعالي- لآدم ألا يقع في أحابيل إبليس ومكايده. قال - تعالى-:

(إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ) (طه: 118-122).

تدريب (7)

أخي الدارس، ورد في التوراة في سفر التكوين سؤال من الله – تعالى– إلى آدم: «هل أكلت من ثمرة الشجرة التي نهيتك عنها؟ فأجاب آدم: «إنها المرأة التي جعلتها رفيقة لي هي التي أطعمتني من ثمرة الشجرة فأكلت». (الإصحاح 3). والمطلوب منك، أخي الدارس، المقارنة بين نص القرآن ونص التوراة في هذا الموضوع.

وإذا كان إبليس قد أفلح في استدراج آدم وحواء إلى الخطيئة، فإنه قد استعجل من وجه آخر تحقيق ما كان يحاذر، ذلك أن الله – تعالى– قد أخبر أن آدم سيكون خليفة في الأرض وها هو آدم يهبط إلى الأرض ليبدأ وذريته دورة الحياة الدنيا. وتبدأ الجولة الثانية لمكائد إبليس مع ذريته، فقد أقسم على إغوائهم بكل ما أوتي من سبل الإغواء.

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ)

(ص: 82-83).

وقد تسأل – أخي الدارس– عن هذه المهارة التي يتمتع بها إبليس في إغوائنا نحن البشر؟ وأجيبك بأنها مهارة لا تفوق كثيراً – إن لم تفقها – مهارة كثيرين من أبالسة البشر أنفسهم. فماذا عسى أن يفعل إبليس أكثر من تصيد بعض ضعاف النفوس فيزين لهم فعل السوء، وقد رأى أن نفوسهم تتوق إليه، فما يزال يفتلها بين الذروة والغارب حتى تقع فريسة سهلة له. إنه يوسوس في أعماق النفس البشرية، والوسوسة حديث نفسي خفي، إنها مناغاة للنفس الأمارة بالسوء كي تستيقظ وتتحرك وتسعى في الشر والفساد خلافاً لمنهج الله، وهذا لا يتم بغير تحسين وتزيين لكل سوء بدون حساب للعواقب. وفي هذا يقول – تعالى–: (وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) (الأنعام: 43).

ألا تعتقد، أخي الدارس، أن هذا العمل مقدور وميسور لرفاق السوء من بني البشر حتى استحقوا أن يقرنوا مع إبليس في الوسوسة؟ قال - تعالى-:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦) (الناس: 1-6).

ونحن نعلم أن الشياطين قد تجردوا لبني آدم وتكفل كل منهم بواحد من بني آدم يطغيه ويلهيه عن ذكر الله ويصده عن سبيله. وهذا ما يعرف بالقرين. قال - تعالى-:

(۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ) (ق: 27).

وقال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا قد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة. قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير» أخرجه مسلم (ابن الأثير، جامع الاصول 545/8).

هكذا -إذن- تبدو الشحنة متعادلة، فهنا شيطان يسوي للنفس فعل الشر، وهنا ملك يسددها، ويبقى القرار لنا لفعل ما نريد.

ولا بد لنا أن نذكر أن قدرة إبليس على إدارة دفة الأمور في نفوس ضعفاء الإيمان قد تصل إلى حد الهيمنة المطلقة، تماماً كما تفعل عصابات الأشرار في فرائسها من البشر حتى تسلبهم القدرة على التفكير والاختيار.

ولكن إبليس لا يملك القدرة على التحكم في عباد الرحمن الذين أسلموا وجوههم لله قال - تعالى-:

(قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ) (الحجر:39-42).

(إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ) (النحل: 99-100).

وقد يقع المؤمن في الخطأ، بل إنه يقع فعلاً، ولكن إيمانه بالله سريعاً ما يعود به إلى

دائرة الصواب، قال -تعالى-:

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ) (الأعراف: 201).

إن المؤمن لا يستسلم لنزعات الشيطان ووسوسته، وتمر بالنفس المؤمنة خواطر السوء ثم لا تستقر فيدفعها إيمانها خارجاً. وقد روى أبو هريرة ﷺ أن بعضاً من أصحاب الرسول ﷺ قال: «إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به» قال: «وقد وجدتموه»؟ قالوا: نعم. قال:«ذلك صريح الإيمان» (رواه مسلم في الإيمان، باب الوسوسة في الإيمان).

قال ابن الأثير شارحاً لهذا الحديث ومعلقاً: «يعني أن صريح الإيمان هو الذي يمنعكم من قبول ما يلقيه الشيطان في أنفسكم والتصديق به حتى يصير ذلك وسوسة لا تتمكن في قلوبكم ولا تطمئن إليه نفوسكم. وليس معناه أن الوسوسة نفسها صريح الإيمان، لأنها إنما تتولد من فعل الشيطان وتسويله» (ابن الأثير، جامع الاصول 244/1).

2.5.4 الاتصال بالجن ودعوى العلم بالمغيبات

ما فتىء نفر من الناس يدعون أن لهم صلة بالجن، وهذه الصلة تكسبهم معرفة أمور من الغيب لا يعلمها آخرون، وهذا الأمر يثير فضول كثير من الناس الجهال والمتعلمين على حد سواء، فتراهم يتهافتون إلى بيوت هؤلاء المدعين يطلبون إليهم الإخبار عن كنز دفين، أو متاع مفقود، أو غير ذلك، فهل يعلم الجن الغيب حقاً؟ وما مدى مشروعية اللجوء إلى الجن لأغراض من هذا القبيل؟

ولنفتش - أخي الدارس- عن جواب هذه المسألة في ثنايا النصوص الشرعية، وأولها القرآن الكريم.

يخبرنا القرآن الكريم ان الله - تعالى- سخر الجن لسليمان، وكان ذلك استجابة لدعوة هذا النبي الكريم. قال - تعالى-:

(قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ) (ص: 35-37).

وكان الجن يقومون بأعمال خارقة تحت إمرته. ويوافي سليمان - عليه السلام- أجله، والجن ماضون في عملهم بدون علم منهم بموت من سخروا له. قال - تعالى-:

(فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ) (سبأ: 14).

وهكذا لو كانوا يعلمون الغيب لطاروا بين مشرق ومغرب سعياً وراء نسائم الحرية بعد أن سيموا خسفاً بإمرة ابن ادم.

هذه واحدة، أما الأخرى فما تخبرنا به الآيات القرآنية كذلك من محاولات جاهدة من عتاة الجن لاستراق العلم من الملأ الأعلى. وهي محاولات يائسة كتب عليها الإجهاض. وفي ذلك يقول - تعالى-:

(إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) (الصافات: 6-10).

ويقول أيضاً: (إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ) (الشعراء: 212).

وهكذا لا سبيل إلى الجن لمعرفة ما يدور في الملأ الأعلى، غاية ما يمكنهم فعله أنهم يستطيعون التقاط بعض الأخبار التي تنقلها الملائكة إلى العالم الأدنى. وقد ورد في الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع ومسترقو السمع هكذا، بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين اصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من هو تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة» (أخرجه البخاري في تفسير سورة سبأ، باب «حتى إذا فزع عن قلوبهم»).

هكذا إذن لا تبقى أخبارهم كما وردت من المصدر، بل إنهم يخلطون الحق بالباطل، والصحيح بالكذب. عن عائشة - رضي الله عنها- قالت: «يا رسول الله، إن الكهان كانوا يحدثونا بالشيء فنجده حقاً. قال: تلك الكلمة الحق يخطفها الجني فيقذفها في أذن وليه، ويزيد فيها مائة كذبة» (رواه مسلم).

ولا بد لنا أن نبين أنه لا يلجأ إلى الجن رجل موصوف بكمال الإيمان، بل إن القرآن الكريم يندد بأولئك الذين يسلمون قيادهم إلى الجن. قال - تعالى-:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ) (الشعراء: 221-223).

وورد في سورة الجن قوله - تعالى- على لسان النفر المؤمن من الجن:

(وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) (الجن: 6).

وعلى المسلم أن يثق بما أتاه الله من نعمة، وليذكر أنه تميز بالعلم عن الملائكة ولا شك أنه يتميز بالعلم كذلك عن الجن، وليسلك للوصول إليه سبله المشروعة بعيداً عن تلك التي يلجأ إليها الكهان المشعوذون والدجالون.

هذا على صعيد معرفة الجن بأمور الغيب. وأحب - أخي الدارس- أن أستدير بك قليلاً لأطلعك على بعض أسرار المحترفين للاتصال بالجن وتحضير الأرواح، باعتبار أن الاتصال بالجن يتخذ في بعض ممارساته صورة من صور تحضير الأرواح. ويكفي أن نقتبس من خبرات الدكتور محمد محمد حسين التي أودعها في كتابة (الروحية الحديثة دعوة هدامة) مما سبق له أن اكتسبه في اتصاله بهذه الحركات المشبوهة، فهو يقول:

1- إن أعمال هؤلاء تعتمد كثيراً على الغش والخداع وعلى الاتصال بشرار الخلق (ص49).

2- إن الاتصال بذاك العالم الغيبي إنما يتم من خلال الوسيط، وهذا الوسيط لا يلزم أن يكون من أهل الدين والصلاح. وهؤلاء الوسطاء هم الذين يزعمون أنهم يرون كذا وكذا، ويسمعون كيت وكيت، ويكتبون ما يكتبون بزعم أنهم يملى عليهم. ويعترف الروحيون أن كثيراً من هؤلاء الوسطاء غشاشون مخادعون، وهم بهذا الاعتراف يحاولون حماية أنفسهم أمام من اكتشف غشهم من هؤلاء الوسطاء، ولكن حقيقة الأمر أن الباقين غشاشون كذلك (ص ص37-39).

3- لقد أصبحت هذه الدعوات مدخلاً ينفذ منه الطاعنون لمحاربة الدين الإلهي والخروج

بديانة روحية جديدة، فهذا علم من أعلام الروحية الحديثة يقول: «يجب أن نتحد في هذه الحركة، في هذا الدين الجديد» وهذا الدكتور علي عبد الجليل أحد أعمدة الروحية في مصر يقول: «إن هذه المنظمة ستكون لكل البشرية وعن طريقها سوف يوضح لنا سكان العالم الروحي طريقة جديدة للحياة، ويعطوننا فكرة جديدة عن الله ومشيئته، إنهم سوف يأتون لنا بالسلام والطمأنينة الروحية، وبسعادة النفس والقلب، سوف يحطمون الحواجز بين الشعوب والأفراد، بين العقائد والأديان» (ص59).

إذن فقد أصبحت هذه التجمعات والمحافل ألعوبة بيد الصهيونية العالمية، فهذه هي سياسة الصهيونية وهذه هي أهدافها المعلنة والخفية، أن تقضي على الأديان المختلفة، وأن تسوق الناس بعصاها لتحقيق مطامعها من بعد.

؟

أسئلة التقويم الذاتي (3)

1- لماذا سمي الجن جناً؟
2- اذكر دليلاً على كل صفة من صفات الجن التالية:
أ- المادة التي خلقوا منها. ب- كونهم يروننا ولا نراهم. ج- عدم عصمتهم.
3- متى يسمى الجني شيطاناً ؟
4- اذكر رأي الشيخ محمد عبده في العلاقة بين الجن والملائكة.
5- ما المقصود بالقرين من الجن ؟
6- كيف تفسر صدق الكهان أحياناً في الإخبار ببعض الغيوب؟
7- هل سلطة إبليس على إغواء البشر مطلقة؟ وضح ذلك.

أخي الدارس، ها نحن الآن نقف على الشاطيء الآخر بعد مسيرة طال مداها مع فقرات هذه الوحدة، ولا تمنعنا سهولة المحتوى عن تجميع الشتات المتناثر من الأفكار عبر أقسامها وتفريعاتها، فتعال نستطلع معاً ما فات، ونرقب من جانب آخر معالم الوحدة اللاحقة. وهكذا فإني أستأذنك للوقوف معاً على الفقرات التالية:

5. الخلاصة

تناولت هذه الوحدة الركن الثاني من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالملائكة، والإيمان بالملائكة جزء من عالم الغيب، الأمر الذي اقتضى التعريف بعالم الغيب، وبيان أن الإيمان بالغيب عنصر مهم من عناصر التدين، يقوم عليه الدين بعامة ولا ينفك عنه العلم في كثير من جوانبه، والغيب موضوع حديثنا، مفهوم فضفاض، ولكننا خصصناه بما لا قبل للحس البشري ببلوغه في الحياة الدنيا وكان للحديث عن طرق الإيمان بالغيب حيز لا بأس به، وبينا دور العقل والسمع والإشراق الروحي في الوصول إلى حقائقه، ورسمنا خلال الحوار طبيعة العلاقة بين الأدلة العقلية والسمعية، وانتهينا إلى خلاصة مؤداها أن الإيمان بالغيب ليس إيماناً بغير المعقول، إنما هو بما يتجاوز المعقول.

وقد كان حديثنا عن عالم الملائكة قطب الرحى في هذه الوحدة، فقد بينا مفهوم الملائكة وأدلة الإيمان بهم، وتبين لدينا أن هنالك سوراً قرآنية حملت اسمهم نصاً مثل سورة الملائكة (فاطر) أو وصفاً مثل سورة النازعات وسورة الصافات. وهذا يعكس لنا أهمية الإيمان بهم والوقوف على صفاتهم، فهم مخلوقات نورانية فذة لا توصف بذكورة ولا أنوثة، ولا يأكلون ولا يشربون ولا يرون، وهم قادرون على التشكل، ويتمتعون بقدرات خارقة، وهم مفطورون على الطاعة معصومون من الوقوع في الخطأ.

وعندما تناولنا أصنافهم ووظائفهم بالبيان تبين لدينا أنهم يضطلعون بمهمات لا حصر لها في عالمي الغيب والشهادة، ولهم تماس مباشر بنا نحن البشر، فهم موكلون بنا من لدن خلقنا في عالم الرحم، ثم من بعد في عالم الدنيا، بعد الممات في البرزخ، وهناك حين يقوم الناس لرب العالمين، ويقفون بين يدي ربهم لتقرير مصيرهم في دار القرار، في الجنة أو النار، نجد الملائكة أمامنا هناك في عالم الخلود.

وعندما تناولنا آثارهم في حياتنا تبين لدينا أنها آثار إيجابية، ليس أدناها البعد عن الخرافات، ولا آخرها صدق الالتزام مع الله - سبحانه وتعالى-.

أما حديثنا عن الجن فلم يكن مقصوداً لذاته، فبينهم وبين الملائكة جامع يجمعهم حيث إنهم عالم غيبي غير منظور، وقد أحببنا أن نضع إيماننا بالجن في موضعه المحدد من عقيدتنا بدون استطالة يظلل معها على إيماننا بالملائكة، أو على إيماننا بالله - سبحانه وتعالى- كما يفعل ذلك بعض الجاهليين، وقد اضطررنا في السياق إلى استعراض صفات الجن التي قد يستوون فيها مع الملائكة مثل الاجتنان أي الاستتار عن الأنظار، وقدرتهم على التشكل، وصفاتهم التي يخالفون الملائكة فيها يقيناً مثل الأكل والشرب وعدم العصمة واتصافهم بالذكورة والأنوثة.

وقد أزلنا شبهة أن إبليس من الملائكة، وأن سيفه مسلط على رقاب العباد، حيث وجدنا أن كيده لا يتجاوز ضعفاء الإيمان، أما عباد الله المخلصون فليس له عليهم سلطان. كما رددنا مزاعم معرفة أمور الغيب من خلال الاتصال بالجن، وقررنا ما قرره القرآن الكريم من أن الجن لا يعلمون الغيب ولو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين تحت حكم النبي سليمان -عليه السلام-.

6. لمحة عن الوحدة الدراسية الرابعة

أما وقد فرغنا أو كدنا نفرغ – أخي الدارس– من وحدتنا هذه، فإنني استحثك على المضي قدماً لإتمام الشوط مع الوحدة الأخيرة من وحدات هذا المقرر، وهي الوحدة الرابعة الخاصة بالإيمان بالكتب السماوية، وستجد أن هذه الوحدة ذات شقين، خصص الأول منهما للحديث عن الكتب السماوية السابقة من حيث مفهومها وأسماؤها ووجوب الإيمان بها وأوجه تحريفها. أما الشق الثاني فهو خاص بالقرآن الكريم من حيث مفهومه ووجوب الإيمان به ثم خصائصه ومزاياه وهي موضوعات شائعة تستثير الباحث والقارئ على حد سواء. فإلى هذه المحطة الجديدة ندعوك؛ لتتفيأ ظلالها، ظلال الإيمان.

7. إجابات التدريبات

تدريب (1)

إن تعريف ابن الأعرابي أكثر دقة من تعريف التهانوي، للاعتبارات التالية:

1- ذكر أن الغيب ما غاب عن العيون، وهذا لا يستدعي أن الغيب لا يدركه الحس، ولذلك فإن ابن تيمية ذكر لنا أن الأمور التي تغيب عن حواسنا الآن ستتمكن حواسنا من معرفتها في اليوم الآخر.

2- إن العيون أخص من الحواس، فهنالك الحاسة السادسة التي اعتمد عليها المتصوفة لإدراك بعض حقائق عالم الغيب تحت ما يسمى المكاشفة.

3- ذهب التهانوي إلى ان الغيب لا يقتضيه بديهة العقل، وهذا لا ينطبق على الإيمان بالله – تعالى–، فالعقل البشري يحكم بوجود الله – تعالى–؛ لأنه أمر فطري كاد ابن الأعرابي أن يلمسه بقوله (وإن كان محصلاً في القلوب).

تدريب (2)

يرى ابن كثير أن الله – تعالى– يستأثر بعلم نزول الغيث ومعرفة ما في الأرحام من قبل أن تظهر مقدماتها المشاهدة، وهذا الأمر مرتبط بموضوع القدر والتقدير، فالقدر مستور وكل ما يقع فهو مقدور. وهكذا لا يتأتى لبشر معرفة ما قدره الله – تعالى– قبل وقوعه، أما إذا قضى به وقرر تنفيذه فإن الأمر يخرج من كونه سراً مغيباً، ويمكن للملائكة الاطلاع عليه، ثم الناس من بعد، عالمهم ثم جاهلهم. وقد عزز الشيخ طنطاوي هذا الفهم إذ قال إن الإنسان يعلم الشيء بعد وقوعه وظهور مقدماته، تماماً كما تفعل المراصد الجوية في نشراتها، فهي ترصد واقعاً لا نشاهده نحن وإنما يشاهده غيرنا في بلاد أخرى، إن الإنسان يعلم من هذه الأمور غيباً أضحى جزءاً من عالم الشهادة، أما علم

الغيب المطلق فهذا مما استأثر الله -تعالى- بعلمه.

تدريب (3)

يرى الإمام محمد عبده أن السبب في كون الإيمان بالملائكة ركناً من أركان العقيدة الإسلامية هو أن على الإيمان بالملائكة يتوقف إيماننا بالوحي والنبوة، بل يتعدى ذلك إلى الإيمان باليوم الآخر، وإنكار الإيمان بالملائكة إنكار لكل ما تقدم، وفيه دعوة للحياة البهيمية التي لا تفسح المجال لارتفاع النفوس فوق المتاع الأرضي والشهوات الدنيوية.

تدريب (4)

إن الاستدلال بقصة هاروت وماروت للطعن في عصمة الملائكة غير صحيح فقد ورد في سياقها قول نسبوه إلى الله - تعالى-: «أما إنكم لو كنتم مكانهم وركب فيكم مثل ما ركبت فيهم لعملتم مثل اعمالهم». وواضح من هذا النص أن اقترافهم للخطأ رهن بتركيب الشهوة فيهم، ونحن نعلم أن لا وجود للشهوة الجنسية لدى الملائكة ولو صح ما زعموه من اقترافهم جريمة الزنا بعد إيداع الشهوة فيهم، فتلك حالة عاش فيها الملائكة وضعاً بشرياً لا حالة ملائكية.

تدريب (5)

أغفل ابن القيم ركن الإيمان بالقدر. والسر في ذلك أن الإيمان بالقدر فرع من إيماننا بالله - سبحانه وتعالى-، وذلك أنه مرتبط بعلم الله - تعالى- وقدرته وإرادته، فالله - تعالى- يعلم الشيء قبل وقوعه، ولا يقع في ملكه إلا ما يريده.

تدريب (6)

من عقائد الجاهليين في الجن:

1- جعلوا بين الله - تعالى- وبين الجن نسباً، فقد زعموا أن الله تزوج من الجن فأنجب الملائكة.
2- من العرب من كان يعبد الجن.
3- جعلوا الجن شركاء لله.

تدريب (7)

إن التوراة تنسب خطيئة آدم إلى حواء، فهي المسؤولة عن إطعامه من الشجرة، في حين أن النص القرآني يقرر المسؤولية المشتركة لآدم وحواء. ومن العجب أن الغربيين الذين يعتبرون التوراة كتاباً مقدساً لهم، ويزعمون أنهم أنصار المرأة ومحرروها يجعلونها في دائرة الاتهام في جذورهم العقدية، بينما يجعلون الإسلام عدو المرأة، ولله في خلقه شؤون!!

8. مسرد المصطلحات

فيما يلي بيان بأبرز المفاهيم والمصطلحات الواردة في الوحدة:

- **إبليس:** هو كبير فسقة الجن، وإبليس لقب له لقب به لأنه أبلس من رحمة الله أي يئس منها.
- **الجن:** مخلوقات غيبية فطرت من النار، وسميت بذلك لاجتنانها أي استتارها عن الأنظار.
- **الزاجرات:** صنف من الملائكة تزجر السحاب أي تسوقه وتدفعه.
- **الزبانية:** صنف من الملائكة موكلون بالنار.
- **الشيطان:** وصف يطلق على كل خبيث متمرد من الجن، وقد يطلق على من شاركهم في هذه الصفة من الإنس. وإنما سمي شيطاناً لبعده عن الحق والخير.
- **الصافات:** صنف من الملائكة على هيئة صفوف في السماء، وقيل إنها ملائكة تصف أجنحتها في الهواء.
- **العاصفات:** هي الملائكة تعصف بروح الكفار.
- **عالم الغيب:** هو ما غاب عن شهود العباد، أو هو كل ما غاب عنك، أو ما غاب عن العيون وإن كان محصلاً في القلوب.
- **الفارقات:** هي الملائكة تأتي بما يفرق بين الحق والباطل.
- **القرين:** لفظ يطلق على الملك الموكل بتسديد الإنسان، كما يطلق على الجني الموكل بإغواء الإنسان. والأول خير والثاني شرير.
- **المرسلات:** هي الملائكة يرسلها الله –تعالى– لتدبير أمور خلقه.
- **المعقبات:** هي الملائكة الموكلة بحفظ الإنسان في حله وترحاله، وفي يقظته وفي منامه.
- **الملائكة:** جمع ملك، وهم كائنات نورانية لطيفة قادرة على التشكل وتتمتع بقدرات خارقة. وهي مشتقة من الألوكة – أي الرسالة.
- **النازعات:** هي الملائكة تنزع أرواح الكفار بشدة.
- **الناشطات:** هي الملائكة تأخذ أرواح المؤمنين بيسر وسهولة.

وعلينا –أخي الدارس– أن ننبه إلى أن وصف الملائكة بالصافات والعاصفات والفارقات والمرسلات إلخ.. هو أظهر الوجوه التي ذكرها العلماء في تفسيرهم لهذه المفاهيم.



9. المراجع

1- ابن أبي شريف، الكمال، المسامرة.

2- ابن الأثير الجزري، المبارك بن محمد. جامع الأصول في أحاديث الرسول. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط. مكتبة الحلواني، 1969م.

3- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، درء تعارض العقل والنقل. ط1 الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1981م.

4- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن. تلبيس إبليس، بيروت دار الكتب العلمية. (د.ت).

5- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن. زاد المسير في علم التفسير. ط1، دمشق المكتب الإسلامي، 1964م.

6- ابن حجر، شهاب الدين العسقلاني. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. القاهرة، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1959م.

7- ابن حزم الظاهري الأندلسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل. القاهرة، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده (د.ت).

8- ابن حنبل، أحمد بن محمد، المسند، مؤسسة قرطبة، مصر.

9- ابن خلدون، المقدمة. دار إحياء التراث العربي (د.ت).

10- ابن رشد، محمد بن أحمد. فلسفة ابن رشد، ط 3. القاهرة، المكتبة المحمودية، 1968م.

11- ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان. بيروت دار المعرفة (د.ت).

12- ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، التبيان في أقسام القرآن. دار الكتاب العربي (د.ت).

13- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي. البداية والنهاية. ط 2، بيروت، مكتبة المعارف، 1977م.

14- ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي. تفسير القرآن العظيم. القاهرة، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه. (د.ت).

15- ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر.

16- أبو داود، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود.

17- الأشقر، عمر. عالم الملائكة الأبرار. ط 5. الكويت، مكتبة الفلاح، 1989م.

18- الأشقر، عمر. عالم الجن والشياطين. ط 5. الكويت، مكتبة الفلاح، 1989م.

19- الألباني، وهبي سليمان غاوجي. أركان الإيمان. ط 3، مؤسسة الرسالة، 1984م.

20- الإيجي، عبد الرحمن بن أحمد. المواقف في علم الكلام. بيروت، عالم الكتب (د.ت).

21- البخاري، محمد بن إسماعيل، التاريخ الكبير، بيروت، دار الفكر.

22- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، (مطبوع مع فتح الباري) المكتبة السلفية.

23- البوطي، محمد سعيد رمضان، كبرى اليقينيات الكونية. ط 2، دار الفكر، 1390هـ.

24- الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر وآخرون، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

25- الجاحظ، عمرو بن بحر، تحقيق عبدالسلام هارون، ط3، بيروت، المجمع العلمي العربي الإسلامي، 1388هـ، 1969م.
26- الحاج، خالد بن محمد علي. حقائق الإيمان بالملائكة والجان. ط 1، مكتبة المنار، 1987م.
27- الحاكم، محمد بن عبدالله، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ، 1990م.
28- حبنكة، عبد الرحمن. العقيدة الإسلامية وأسسها. ط4، دمشق دار القلم، 1986م.
29- حسين، محمد محمد، الروحية الحديثة دعوة هدامة.
30- الحكمي، حافظ بن أحمد، معارج القبول، القاهرة، المطبعة السلفية، 1366هـ.
31- خان، وحيد الدين. الإسلام يتحدى. ط3، دار البحوث العلمية، 1979م.
32- دراز، محمد عبدالله، الدين، 1970م.
33- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر القرشي. التفسير الكبير. ط2، طهران، دار الكتب العلمية (د.ت).
34- رضا، محمد رشيد، تفسير المنار مكتبة القاهرة (د.ت).
35- سلامة، بسام. الإيمان بالغيب، ط 1، الزرقاء، مكتبة المنار، 1983م.
36- شرح العقيدة الطحاوية. ط 4، بيروت، المكتب الإسلامي، 1391هـ.
37- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، بيروت، دار المعرفة (د.ت).
38- الطنطاوي، علي. تعريف عام بدين الإسلام. عمان، مطبوعات وزارة التربية والتعليم 1969م.
39- العقاد، عباس محمود. إبليس، بيروت، دار الكتاب العربي (د.ت).
40- علي، جواد المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. ط1، بيروت، دار العلم للملايين وبغداد، دار النهضة، 1970م.
41- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. إحياء علوم الدين. ط 4. القاهرة، مؤسسة الحلبي وشركاه، 1968م.
42- القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد. الجامع لأحكام القرآن. بيروت، مؤسسة مناهل العرفان.
43- القزويني، زكريا. عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات. ط 2. بيروت دار الآفاق الجديدة، 1977م.
44- النسائي، أحمد بن شعيب، سنن النسائي، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، ط2، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب.
45- النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، من منشورات الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، 1400هـ.
46- ياسين، محمد نعيم. الإيمان. ط 6، عمان، دار الفرقان، 1987م.


الوحدة الرابعة
الإيمان بالكتب السماوية

محتويات الوحدة

1. المقدمة

1.1 تمهيد

أخي الدارس، أختي الدارسة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد،

هذه هي الوحدة الرابعة، وهي الأخيرة من مقرر العقيدة الإسلامية (1) في برنامج التربية/تخصص التربية الإسلامية. أما موضوع هذه الوحدة فهو الإيمان بالكتب السماوية.

وقد اعتمدنا في كتابتها على المصادر الإسلامية الأصيلة، ويأتي في مقدمتها القرآن الكريم والحديث الشريف، كما اعتمدنا كذلك على مصادر حديثة كتبها علماء مسلمون وغير مسلمين، وكنا حريصين عند كتابة هذه الوحدة على تأكيد أهمية الإيمان بالكتب السماوية، واستخلاص النتائج الواضحة الجلية في أن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد المحفوظ من كل تحريف وتبديل، وأن ما عداه من كتب قد امتد إليها التحريف والتبديل.

تتكون الوحدة الحالية من قسمين، ويهتم القسم الأول بالكتب السماوية السابقة، فيبين معنى الكتب ومفهومها وأسماءها، ووجوب الإيمان بها، وكيفية الإيمان بهذه الكتب بالنسبة للمسلم، ويظهر هذا القسم وصف القرآن الكريم للكتب التي أمرنا بالإيمان بها، وبعض محتوياتها، كما يظهر نماذج للتحريف الذي وقع على هذه الكتب.

أما القسم الثاني، فيتحدث عن القرآن الكريم، الكتاب السماوي المنزل على نبينا محمد ﷺ، من حيث تعريف القرآن الكريم وأسماؤه، ووجوب الإيمان بهذا الكتاب العظيم في كل ما يحتويه من نصوص وأحكام، بالإضافة إلى بيان خصائص القرآن الكريم ومزاياه:

أخي الدارس، أختى الدارسة: ترد في ثنايا هذه الوحدة تدريبات متعددة يقصد بها استثارة الدافعية للتعلم في أثناء قراءة الوحدة، وقد حرصنا على أن تكون التدريبات ذات طبيعة متباينة، فبعض التدريبات موضوعية، وبعضها الآخر عملية. ويمكن لك أن تجيب عن بعضها إذا ما قرأت الوحدة قراءة متأنية، بينما تحتاج منك تدريبات أخرى الرجوع إلى مصادر أخرى، أي أنك لن تجد الإجابة عنها في ثنايا الوحدة وننصح لك بمناقشة الإجابات لهذه التدريبات مع مشرفك الأكاديمي.

أما أسئلة التقويم الذاتي فعليك الإجابة عنها من خلال رجوعك إلى النص نفسه.

أخي الدارس، أختي الدارسة: أهلاً بك مرة أخرى إلى هذه الوحدة، ونرجو أن تستمتع بدراستها وأن تستفيد منها، وفي حالة وجود أي استفسارات لا تتوان عن الاتصال بمشرفك الأكاديمي.

هذا وستجد في نهاية هذه الوحدة خلاصة لها، وإجابات التدريبات، وقائمة المراجع.

متمنياً لك دوام التوفيق والتقدم والنجاح.

2.1 أهداف الوحدة

أخي الدارس، أختي الدارسة:

بعد الانتهاء من دارسة هذه الوحدة، وحل تدريباتها ينبغي أن تكون قادراً على أن:

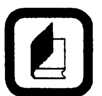
1- تتعرف مفهوم الكتب السماوية.
2- تتعرف أسماء الكتب السماوية التي يجب الإيمان بها.
3- تذكر أهم محتويات الكتب السماوية السابقة وصفاتها كما وردت في القرآن الكريم.
4- تتعرف نماذج من تحريفات الكتب السماوية السابقة.
5- تذكر أسماء القرآن الكريم والحكمة من هذه التسمية.
6- تستنتج مزايا القرآن الكريم عن الكتب السماوية السابقة.
7- تتحقق من العناية الإلهية بالقرآن الكريم.
8- يترسخ إيمانك بالقرآن الكريم واعتزازك به.

3.1 أقسام الوحدة

تتكون هذه الوحدة من قسمين ريئسين هما:

1- الكتب السماوية السابقة: مفهومها، أسماؤها، وجوب الإيمان بها، وصفها في القرآن الكريم، تحريفها ونماذج من هذا التحريف.
2- القرآن الكريم: أسماؤه، وجوب الإيمان به، خصائصه ومزاياه.

ومن المأمول أن تحقق دراسة القسم الأول (الكتب السماوية السابقة) الأهداف (1-4)، ودراسة القسم الثاني (القرآن الكريم) الأهداف (7 – 5) . ويحقق كل من القسمين أهدافاً وجدانية منها الهدف (8) .

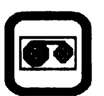


4.1 القراءات المساعدة

أخي الدارس، أختي الدارسة:

أنت تدرك يقيناً أن ما يتضمنه النص الوارد في هذه الوحدة لا يتضمن تفاصيل موضوع الإيمان بالكتب السماوية، وخاصة القرآن الكريم، فدراسة تفاصيل هذا الموضوع من ناحية القرآن الكريم أو من ناحية الكتب السماوية السابقة واستنباط الدروس والعبر تتطلب منك أن تبذل جهداً إضافياً، لذا فإنذ أنصحك بالقراءات التالية:

1- بوكاي، موريس. القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم. القاهرة: دار المعارف 1982م.
2- حبنكة، عبد الرحمن. العقيدة الإسلامية وأسسها. ط2، دمشق: دار القلم 1979م، ص ص (585 - 589).
3- السائح، عبد الحميد. عقيدة المسلم وما يتصل بها. ط2، عمان: وزارة الأوقاف الأردنية 1978م، ص ص (234 - 250)



5.1 الوسائط المساندة

شريط فيديو بعنوان (المناظرة الكبرى) بين أحمد ديدات والقس جيمس سويجارت حول موضوع الإنجيل، وهل هو كلام الله؟

6.1 ما تحتاج إليه لدراسة الوحدة

تجد - أخي الدارس- في ثنايا هذه الوحدة مجموعات من أسئلة التقويم الذاتي وردت في أعقاب كل قسم من أقسامها، والهدف منها تمكينك من الحكم على قدرتك على فهم المادة واستيعابها. كما عززت هذه الوحدة بعدد من التدريبات بهدف الإجابة عنها، ثم مقارنة إجاباتك هذه بالإجابات الواردة عن هذه التدريبات في آخر الوحدة.

وهنالك بعض النشاطات التي يؤمل منك القيام بها وتسليمها لأقرب مركز دراسي منك، لتسليمه للمشرف وتقديم المطلوب منها.

2. الكتب السماوية السابقة

أخي الدارس، أختي الدارسة:

من أركان العقيدة الإسلامية الإيمان بالكتب السماوية التي أوحى الله بها إلى رسله. فالله – تعالى- يخاطب رسوله محمداً ﷺ ويأمره بأن يعلن إيمانه بجميع الكتب التي أنزلها الله، فيقول – جل جلاله-:

(وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ) (الشورى: 15).

والخطاب للرسول ﷺ خطاب لكل من آمن برسالته. والله – تعالى- يخاطب المؤمنين في آية ثانية فيقول:

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا) (النساء: 136).

وقد عرفنا أن أركان الإيمان متماسكة مترابطة لا ينفك بعضها عن بعض، وأن الإيمان بواحد منها يستدعي الإيمان بسائرها، وأن الكفر بواحد منها يستلزم نقض العقيدة الإسلامية من أساسها.

«إذن فعقيدة الإيمان بالله لا تنفك عن الإيمان بكتبه، ذلك لأن مقتضى الإيمان بالله الإيمان بالرسل المؤيدين من عنده بالمعجزات، ومن مقتضى الإيمان بالرسل تصديقهم في كل ما يبلغون عن الله – تعالى-.

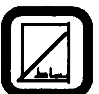
من أجل ذلك يعلن المسلم دائماً – وفق عقيدته التي متى أخل بها كفر – أنه يؤمن بكتب الله كلها إجمالاً فيما يجهل فيها، وتفصيلاً فيما يعلم» (حبنكة:1979م، ص537).

1.2 مفهومها

الكتاب لغة: مشتق من كلمة (الكتب)، وأصل الكتْب: ضم أديم إلى أديم بالخياطة (أي جلد إلى جلد)، واستعمل في ضم الحروف بعضها إلى بعض، وسمي الكتاب، لأنه اسم لما كتب مجموعات، ومنه قيل: كتبت الكتاب، لأنه يجمع حرفاً إلى حرف.

أما معنى الكتاب شرعاً فهو: كلام من كلام الله – تعالى-، فيه هدى ونور، يوحي الله به إلى رسول من رسله؛ ليبلغه للناس.

«وبناء على هذا، فإن الكتاب يطلق شرعاً علي الصحف والألواح، وجميع أنواع الوحي اللفظي أو الكتابي، التي ينزلها الله على أي رسول ليبلغها إلى الناس، وبأية لغة من اللغات نزلت، صغيرة كانت أو كبيرة، مدونة أو غير مدونة، فيها صفة الإعجاز اللفظي للناس، أو ليس فيها ذلك» (حبنكة1979م، ص537).



نشاط(1)

ارجع إلى قواميس اللغة العربية، مثل لسان العرب، وتاج العروس، واستخرج معنى الكتاب والصحيفة واللوح في اللغة العربية، ثم استخرج أهم الفروق بين هذه المصطلحات. ناقش هذا النشاط مع مشرفك.

تبين لك مما سبق أن الكتاب في اصطلاح المسلمين: هو الكتاب المنزل من الله – سبحانه وتعالى– علي رسوله لهداية عباده وإرشادهم وإصلاحهم.

ولهذا يكفي أن تعرف أن الذي يريد الله – تبارك وتعالى– أن يلقنه عباده، ويعلمه إياهم بواسطة رسوله، يلقيه على قلب الرسول، بحيث لا يكون في ألفاظه ولا في معانيه ومطالبه، دخل ما لعقل الرسول أو فكره أو إرادته أو رغبته الشخصية، فهو لهذا يكون كلام الله لفظاً ومعنى، ولا يكون كلام الرسول.

أما الرسول فيقوم بتبليغه للناس بأكمل صدق وأعظم أمانة، ثم يعتني ببيان إجماله وإيضاح معانيه وتفسير مطالبه بما يؤتيه الله من نور الحكمة والبصيرة.

وهنا قد يتبادر إلى ذهنك – أخي الدارس– سؤال عن العلاقة بين الرسول والكتاب، وهل يمكن إرسال الكتاب من غير إرسال رسول ؟

والحقيقية أن العلاقة بين الرسول والكتاب علاقة عضوية أساسية، لأنهما وسيلتان لتحقيق غاية واحدة، وهذه العلاقة بين الرسول والكتاب قد بينها القرآن بأسلوب رائع، فقد وصف الرسول في غير واحدة من آياته بإمام أو هاد وظيفته إرشاد الضالين وتنبيه الغافلين إلى سواء السبيل، ولن يكون هذا الإرشاد وهذا التنبيه إلا عن طريق الكتاب؛ لتتم الهداية الإلهية.

يقول – تعالى– موضحا هذه الحقيقية:

(وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ)

(الأنبياء:73).

ولهذا فقد وصف القرآن الكريم الكتاب بعدة أوصاف تدل على وظيفته مع الرسول الذي أرسل معه، ومن هذه الأوصاف (نور) و (ضياء) و (برهان) و (فرقان) و(منير) و(مبين)، والآيات القرآنية تذكر هذه الصفات في العديد من الآيات القرآنية، خاصة تلك التي تتحدث عن الرسول ﷺ والقرآن الكريم ومن ذلك قوله -تعالى-:

(فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) (الأعراف:157).

ولكي تتأكد - أخي الدارس- من ذلك عليك بحل التدريب التالي:

تدريب (1)

ارجع إلى القرآن الكريم واكتب ثلاث آيات قرآنية تصف الرسول بـ (إمام) أو (هاد).
ثم اكتب ثلاث آيات أخرى تصف الكتاب بـ (نور) و (برهان) و (فرقان).
ويمكنك الاستعانة بـ (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن/ د (محمد فؤاد عبد الباقي).

لقد تبين لك بعد حل هذا التدريب، أن الأوصاف القرآنية للكتب والرسل، تشير إلى حقيقة عظيمة، والمقصود من ورائها بيان أن الإنسان العادي لا يستطيع بمجرد عقله وعلمه أن ينال من النور والهداية ما يسلك به الصراط المستقيم، من غير هاد خبير يعرف الصراط المستقيم ولا تخفى عليه معالمه، وهذا الهادي هو الرسول الذي يحمل معه الكتاب الذي أرسله الله به، ليستنار به في سلوك الصراط المستقيم.

فالعلاقة بين الرسول والكتاب يوضحها الأستاذ أبو الأعلى المودودي فيقول: «إننا إذا انتزعنا السراج من يد الهادي وبدأنا نسلك الطريق بأنفسنا على ضوئه، فإنه لا بد أن تقع في طريقنا كثير من العقبات.... فنقف حيارى مبهوتين، أو نعرض أنفسنا لسلوك طريق خاطئ مضل» (المودودي، ص 205-206).

وعندما تعود إلى القرآن الكريم تجد العديد من الآيات التي تدل على ضرورة وجود الرسول من أجل الكتاب، يقول - تعالى-:

(الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ) (إبراهيم:1).

2.2 أسماؤها

أخي الدارس، أختي الدارسة:

مما لا شك فيه، أن المصدر الأساسي لمعرفة أسماء الكتب السماوية السابقة بالنسبة للمسلم هو القرآن الكريم، فقد أخبرنا القرآن الكريم صراحة بأسماء بعض الكتب السماوية، وورد فيه الأمر بالإيمان بها.

فنحن نؤمن إيماناً مطلقاً بكل كتاب أنزله الله، سواء عرفنا اسمه أم لم نعرف، وسواء عرفنا الرسول الذي أنزل عليه أم لم نعرف، وهذا هو معنى الإيمان الإجمالي بالكتب. كما نؤمن تفصيلاً بالكتب والصحف التي نوه القرآن بها بشيء من التفصيل، وبالقدر الذي فصله القرآن الكريم لا نزيد على ذلك ولا ننقص.

فالقرآن الكريم -إذن- هو الحاكم عليها، والميزان الذي يعرف به صحيحها من الذي حرف منها، قال - تعالى-:

(وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) (المائدة:48).

أما ما أخبرنا عنه القرآن الكريم من الكتب السماوية، فهي أربعة، منها ما كان على شكل صحف معدودة، ومنها ما أخذ شكل كتب كبيرة، وهي كما يلي:

الأول: (صحف إبراهيم - عليه السلام-): وهي أول ما أنزل الله من كتب، مما لدينا به علم يقيني عن طريق القرآن الكريم.

الثاني: (التوراة): وهو الكتاب الذي أنزله الله على موسى، وهو ثاني ما أنزل الله من كتب، مما لدينا به علم يقيني عن طريق القرآن الكريم.

الثالث: (الزبور): وهو الكتاب الذي أنزله الله على داود -عليه السلام- وهو ثالث ما أنزل الله من كتب، مما لدينا به علم يقيني عن طريق القرآن الكريم.

الرابع: (الإنجيل): وهو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى -عليه السلام- وهو رابع ما أنزل الله من كتب، مما لدينا به علم يقيني عن طريق القرآن الكريم.

وعندما ترجع إلى آيات القرآن الكريم، ستجد عدداً من الآيات التي تؤكد أن هذه الكتب كانت موعظة وتفصيلاً لكل شيء، وهي فضلاً عن ذلك هدى ورحمة للأمم التي أنزلت عليها، ومن ذلك قوله - تعالى-:

(وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ

دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ) (الأعراف:145).

وقوله – تعالى-:

(وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ) (الأعراف:154).

3.2 وجوب الإيمان بها

سبق أن عرفت أن أركان العقيدة الإسلامية متكاملة لا ينفك بعضها عن بعض، وأن الإيمان بواحد منها يستدعي الإيمان بسائرها.

وقد عرفنا كذلك أن العلاقة بين الرسول والكتاب علاقة عضوية، ولهذا فإن القرآن الكريم يأمر بالإيمان بكل كتاب أنزله الله على أحد من رسله، فكما أنه لا بد للإنسان إذا أراد لنفسه الإسلام، أن يؤمن بكل واحد من أنبياء الله ورسله، كذلك لا بد له من الإيمان بكل كتاب أنزله الله على أحد من رسله، وفي ذلك يقول – سبحانه وتعالى-:

(قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ) (آل عمران:84).

ويقول – جل جلاله-:

(وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) (البقرة:4).

ومع هذا البيان الإجمالي فقد وردت آيات في القرآن الكريم تتضمن أسماء الكتب السماوية التي ورد فيها الأمر بالإيمان بها والثناء عليها.

فمن أصول الإيمان -إذن- الإيمان صراحة بالكتب المصرح بأسمائها في القرآن الكريم، والإيمان إجمالاً بالكتب غير المصرح بأسمائها فيه.

أخي الدارس، أختي الدارسة:

وهنا لا بد أن نلفت النظر إلى سؤال يتبادر إلى الذهن، وهو: لماذا نزلت الكتب السماوية؟ أو هل الناس بحاجة ماسة إلى الكتب السماوية؟

ويمكننا تلخيص الإجابة على هذا بأن العقل الإنساني تغلبه الشهوات وتلعب به الأغراض والأهواء، ولما كان الأمر كذلك لم يكل الله البشرية إلى عقولها القاصرة، واقتضت حكمته ورحمته لعباده أن ينزل كتباً على المصطفين من رسله تتضمن أحكامه العادلة ووصاياه النافعة، وأوامره ونواهيه الكفيلة بإصلاح البشرية وهدايتها من متاهات الضلال، كما قال الله – تعالى– لما أهبط آدم – عليه السلام– إلى الأرض:

(قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (البقرة:38).

وقد لخص الشيخ عبد الرحمن حبنكة أسباب حاجة البشرية إلى الكتب السماوية بما يلي:

1- ليكون الكتاب الرباني على الرسول هو المرجع لأمته، مهما تعاقبت العصور.

فيرجعون إليه في تحديد عقائد الدين وأسسه، ومبادئه وغاياته، ويرجعون إليه في التعرف على أحكام شريعة الله لهم، واستبانة الواجبات التي يأمرهم بها، والمحرمات التي ينهاهم عنها، والفضائل والكمالات التي يحثهم عليها ويندبهم إليها.

كما يرجعون إليه، ليطالعوا مواعظه ونصائحه، وأمثاله وآدابه، وما تضمنه من بشائر ونذر، ووعد ووعيد.

ويرجع إليه أيضاً المجتهدون من العلماء، ليستطلعوا من نصوصه المختلفة الأحكام الشرعية لكل ما يجد في حياة الناس، وذلك حينما لا يتهيأ لهم الرجوع إلى الرسول مباشرة، لبعدهم عنه في المكان أو في الزمان.

2- وليكون الكتاب الرباني المنزل على الرسول هو الحكم العدل لأمته، في كل ما يختلفون فيه مما تتناوله أحكام شريعة الله لهم. فكتاب الله هو الحاكم بين الناس فيما يختلفون فيه؛ لأنه كلام الله، والله هو الحاكم.

وفي الإشارة إلى حاجة كل أمة إلى كتاب سماوي يحكم بينهم فيما يختلفون فيه يقول الله – تعالى–:

(كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ) (البقرة:213).

وقد تضمنت هذه الآية أن الناس كانوا أمة واحدة على دين الفطرة منذ النشأة الأولى للخليقة، يوحدون الله ويعبدونه، فاختلفوا عن التوحيد والطاعة بتأثير عوامل الجهل والهوى والشيطان، فبعث الله النبيين؛ ليبشروا بالنعيم من آمن بالله وأطاعه..... وأنزل مع كل رسول كتاباً يهدي إلى الحق؛ ليكون هذا الكتاب السماوي هو الحاكم بين الناس فيما يختلفون فيه، وليس فوق حكم الله حكم، وليس فوق عدل الله عدل.

3- وليصون الكتاب الرباني بعد عصر الرسول عقائد الدين، وشرائعه وغاياته، من ضلالات ذوي الأهواء الذين تسول لهم أنفسهم أن يتلاعبوا بالدين، وينسبوا إليه ما ليس فيه، وينحرفوا عن الصراط المستقيم، إرضاء لشهواتهم وغرائزهم.

واستمرار الكتاب الرباني في أمة الرسول من بعده، بمثابة استمرار وجود الرسول الذي بلغه إليهم بين ظهرانيهم، من حيث بيان أصول الدين وشرائعه، وسائر مواعظه وآدابه.

ذلك لأن الرسل بشر، يعرض لهم الموت كما يعرض لسائر البشر، أما حقائق الدين الذي يدعون إليه، وما يتضمن من مبادئ وشرائع، فإنها لا تموت، ولولا استمرار كتب ثابتة بنصوصها بعد الرسل، لأسرعت دعواتهم إلى الاختلاف الواسع، والتغيير الكثير عقب وفاتهم........ من أجل ذلك كان لا بد للبشر من ضابط قانوني يلزمهم بمدلولات النصوص الصريحة، إلزاماً لا محيد عنه إلا لمكابر معاند.

4- وليحفظ الكتاب الرباني لدعوة الرسول ولرسالته تأثيرها وسريانها، وقابليتها للاتساع والانتشار، مهما تباعدت الأمكنة، أو الأزمنة عن مكان، أو زمان نشأة الرسول صاحب الدعوة، وبخاصة حينما تكون دعوة الرسول دعوة عامة شاملة، كرسالة محمد ﷺ.

فوجود الكتاب الرباني في الأمة بعد الرسول بمثابة استمرار الرسول نفسه فيهم»

(حنبكة1979م، ص540).

من أجل كل ما سبق، ولحكم أخرى يعلمها الله - تعالى-، أنزل الله على رسله كتبه، فنطقت كتبه بشريعته، تأمر وتنهى، وتعظ وترشد، وتبشر وتنذر، وتهدي إلى الصراط المستقيم، وتحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

4.2 وصفها في القرآن الكريم

أخي الدارس، أختي الدارسة:

سبق أن عرفت أسماء الكتب السماوية السابقة ووجوب الإيمان بها إجمالاً وتفصيلاً، وكيفية هذا الإيمان، وقد عرفنا أيضاً أن القرآن الكريم قد ذكر شيئاً من المضمون الصحيح الذي جاءت به هذه الكتب.

وحين ننظر في القرآن الكريم، نرى أنه قد حوى مجمل ما تضمنته الكتب السماوية السابقة التي ذكرها من التوحيد، والإيمان باليوم الآخر، وعبادة الله، وطاعة الرسول، والحلال والحرام، ومكارم الأخلاق... قال الله - تعالى- مبيناً مجمل هذه الأصول:

(يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ).

(المائدة:15-16).

أما موقف العقيدة الإسلامية من الكتب السماوية السابقة، فهو أن نؤمن بما ورد في هذه الكتب مما قرره القرآن الكريم، لكن ما ورد فيها مما يخالف أصول القرآن العامة فلا نؤمن به، ونعتقد ببطلانه. أما ما عدا ذلك من القصص والمواعظ التي لم يذكرها القرآن، ولا تناقض أصوله فلا نصدقها ولا نكذبها.

ولهذا لم يرجع الصحابة إلى أهل الكتب السماوية السابقة في مواضيع العقيدة وتفسير بعض آيات القرآن الكريم، يقول الدكتور محمد حسين الذهبي:

«غير أن رجوع بعض الصحابة إلى أهل الكتاب، لم يكن له من الأهمية في التفسير، إنما كان مصدراً ضيقاً محدداً، وذلك أن التوراة والإنجيل وقع فيهما كثير من التحريف والتبديل، وكان طبيعياً أن يحافظ الصحابة على عقيدتهم، ويصونوا القرآن عن أن يخضع في فهم معانيه لشيء مما جاء ذكره في هذه الكتب التي لعبت فيها أيدي المحرفين، فكانوا لا يأخذون عن أهل الكتاب إلا ما يتفق وعقيدتهم ولا يتعارض مع القرآن. أما ما اتضح لهم كذبه مما يعارض القرآن ويتنافى مع العقيدة فكانوا يرفضونه ولا يصدقونه، ووراء هذا وذاك ما هو مسكوت عنه، لا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثاني، وهذا النوع كانوا يسمعونه من أهل الكتاب ويتوقفون فيه، فلا يحكمون عليه بصدق ولا بكذب، امتثالاً لقول الرسول ﷺ «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل الينا» (فتح الباري: 8، ص138)، (الذهبي: 1961م، ص 62 جـ1).

وهذا المنهج الذي سار عليه صحابة رسول الله ﷺ، هو منهج العقيدة الإسلامية، ولكن قد يتساءل سائل كيف نوفق بين حديث رسول الله ﷺ السابق «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم» والحديث الآخر لرسول الله ﷺ «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»؟

(فتح الباري: 2 ، ص120).

وقد أجاب الدكتور الذهبي على ذلك بقوله: « ولا تعارض بين الحديثين، لأن الأول أباح لهم أن يحدثوا عما وقع لبني إسرائيل من الأعاجيب، لما فيها من العبرة والعظة، وهذا بشرط أن يعلموا أنه ليس مكذوباً، لأن الرسول ﷺ لا يعقل أن يبيح لهم رواية المكذوب» (الذهبي:1961م، ص171 جـ1).

قال ابن حجر في فتح الباري عند شرحه لحديث «لا تصدقوا أهل الكتاب»: «إذا كان ما يخبرونكم به محتملاً لئلا يكون في نفس الأمر صدقاً فتكذبوه، أو كذباً فتصدقوه، فتقعوا في الحرج، ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه» (فتح الباري: 8 ، ص138).

ونورد لك تفصيلاً لما ذكره القرآن الكريم عن الكتب السماوية السابقة، وما تضمنته من أفكار وعقائد صحيحة، وقد ذكر بعضاً منها الشيخ عبد الرحمن حبنكة في كتابه العقيدة الإسلامية من ص ص544 - 558 .

أولاً: صحف إبراهيم - عليه الصلاة والسلام-:

لقد أخبرنا القرآن الكريم عن الصحف الأولى، وذكر منها صحف إبراهيم - عليه السلام- ولكن هذه الصحف مفقودة، فلا يعرف منها شيء إلا بعض ما أشار القرآن إلى أنه مما تضمنته هذه الصحف، ومن ذلك قوله - تعالى-:

(قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ) (الأعلى:14-19).

وقوله - تعالى-:

(وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ

عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ) (النجم:43-55).

ولكي تتعرف على جملة الحقائق التي تضمنتها هذه الصحف، بادر إلى حل التدريب التالي:

تدريب (2)

ارجع إلى الآيات السابقة في سورة النجم، ولخص أهم الأحكام والتعاليم الإلهية التي تضمنتها الصحف الأولى.

ثانياً: التوراة

وهي الكتاب الذي أنزله الله على موسى – عليه الصلاة والسلام–، ولفظ التوراة لفظ عبري معناه (التعاليم، أو الشريعة)، وهو ما أنزل الله على بني إسرائيل، ويتضمن على الأرجح الصحف التي أنزلت على موسى – عليه السلام–، والألواح التي جاء بها بعد مناجاته لربه في الطور.

وقد سبق أن عرفت – أخي الدارس– أن ما نؤمن به من الكتب السماوية السابقة هي ما وصفه القرآن لهذه الكتب، والتوراة من جملة هذه الكتب.

ويجب أن تعرف بأن التوراة التي نؤمن بها هي الأصول الأولى التي أنزلها الله على موسى – عليه السلام–، أما التوراة الحالية الموجودة عند اليهود والنصارى، فليس لها سند متصل يصل إلى موسى – عليه السلام–، ودخل إليها التحريف والتغيير.

ولقد تحدث القرآن الكريم عن بعض مضمون التوراة الصحيحة، فنحن نؤمن بها؛ لأنها جاءت من القرآن الكريم، ومن ذلك:

1- ذكر بعض الأحكام والشرائع التي شرعت لبني إسرائيل، من ذلك قوله –تعالى-:

(وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ) (المائدة:43).

وقد أورد الإمام المفسر ابن كثير في تفسيره سبب نزول هذه الآية فقال: «وقد أنزلت هذه الآية في اليهوديين اللذين زنيا، وكان اليهود قد بدلوا كتاب الله الذي بين أيديهم، من الأمر برجم من أحصن منهم، فحرفوا واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مئة جلدة؟! والتحميم (أي تسويد الوجه)، والإركاب على حمارين مقلوبين، فلما وقعت تلك الحادثة بعد هجرة النبي ﷺ قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه» (تفسير ابن كثير: جـ 3 ص105).

وهذا يدل على أن حكم الرجم للزاني المحصن كان من الأحكام المنصوص عليها في التوراة، وبينها القرآن الكريم، وقول النبي ﷺ «فإني أحكم بما في التوراة» وأمر بهما فرجما.

ومن الأحكام الشرعية التي وردت في التوراة، وذكر القرآن نماذج منها ما جاء فيه قوله - تعالى-:

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ) (المائدة:45).

2- البشارة ببعثة محمد ﷺ، وذكر بعض صفاته ويشهد لذلك قوله - تعالى-:

(وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟

ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) (الأعراف:156-157).

فهذه الآية تدل بوضوح على أن الرسول النبي الأمـي - وهـو محمـد ﷺ - مكتوب عند أهل الكتاب في التوراة، وكتابته باسمه أو صفاته بشارة عظيمة بـه، لأنهـا كانت قبل وجوده بقرون عديدة.

3- ذكر صفة أصحاب محمد ﷺ، ويشهد لذلك قوله - تعالى-:

(مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ)

(الفتح:29).

4- الحث على الجهاد بالنفس والمال، ويشهد لذلك قوله - تعالى-:

(۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ) (التوبة:111).

أخي الدارس وأختي الدارسة:

لا شك وأنت تقرأ الآيات الكريمة السابقة تستشعر أن الأحكام والشرائع الإلهيـة أصولها واحدة ولو اختلفت أسماؤها، فهي من عند الله الواحد الأحد الذي أرسل هذه الكتب هدى ونوراً للمؤمنين.

وبناء على ذلك فالمسلم يؤمن إيماناً جازماً بأن التوراة التي أنزلت على موسـى - عليه السلام-، قد تضمنت هذه الحقائق التي أوردناها في الفقرات السابقة، ومن ينكـر شيئاً من ذلك فهو كافر لا محالة، لأنه أنكر شيئاً ثبت بدليل يقيني قاطع.

ثالثاً: الزبور

وهو الكتاب الذي أنزله الله على داود - عليه السلام-، والزبور لغة: هو الكتاب المزبور (أي المكتوب)، وجمعه: زبر، وكل كتاب يسمى زبوراً، يقول -تعالى-:

(وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ) (القمر:52).

أي مسجل في كتب الملائكة وصحفهم. ثم غلب إطلاق لفظ الزبور على ما أنزل الله على داود - عليه السلام-، قال - تعالى-:

(وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا) (النساء:163).

فهذه الآية تنص على أن الله قد أنزل على داود - عليه السلام- كتاباً سماوياً اسمه الزبور. أما ما تضمنه الزبور من حقائق ففي قوله - تعالى-:

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ) (الأنبياء:105).

رابعاً: الإنجيل

وهو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى -عليه الصلاة والسلام-، فقد أنزل على بني إسرائيل، كما هو شأن التوراة والزبور، قال - تعالى-:

(وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) (المائدة:46).

والإنجيل كلمة يونانية تعني (البشرى)، والإنجيل الذي نؤمن به هو ما أنزله الله على عيسى - عليه السلام-، أما الأناجيل الأربعة الحالية الموجودة في العهد الجديد عند النصارى، فهي لا تصح نسبتها إلى عيسى -عليه السلام- بأي حال من الأحوال، بل هي مصنفات تاريخية حول حياة المسيح، وهي مليئة بالمتناقضات والأخطاء.

وقد ذكر لنا القرآن الكريم شيئاً مما أنزل الله على عيسى - عليه السلام-، وعند التأمل في الأحكام التي وردت في الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى - عليه السلام-، نرى أن أحكامة جاءت مكملة أو معدلة لأحكام التوراة، يدلنا على ذلك قول عيسى - عليه

السلام- كما ورد في القرآن الكريم:

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (آل عمران:50).

ومما تضمنه الإنجيل الأول كذلك:

1- البشارة ببعثة محمد ﷺ وذكر شيء من صفاته، قال الله - تعالى-:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف:157).

وقوله - تعالى-:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ﴾ (الصف:6).

2- وقد تضمن الإنجيل أيضاً صفة أصحاب رسول الله ﷺ، كما تضمنته التوراة في قوله - تعالى-:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ

عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا) (الفتح:29).

3- وقد تضمن الإنجيل الحض على الجهاد بالنفس والمال، كما هو الحال في التوراة، وكما تضمنته الآية (111) من سورة التوبة.

لهذا نؤمن بالإنجيل الأصل الذي أنزله الله على سيدنا عيسى -عليه السلام-، ذلك أن الإنجيل المذكور لم يختلف عن أصول القرآن العامة من إخلاص العبادة والإيمان بالرسل واليوم الآخر والتخلق بالأخلاق الفاضلة.

ويوضح الشيخ إبراهيم النعمة حقيقة هذه الأناجيل فيقول: «إنها مصنفات تاريخية حول ولادة عيسى - عليه السلام- وسيرته مع بني إسرائيل وبعض وصاياه، وحين نمعن القراءة فيه نجد فيه من التناقض الشيء الكثير؟! وأقرب دليل على ذلك وجود أربعة أناجيل، يختلف كل إنجيل منها عن الآخر، وقد اختيرت هذه الأناجيل الأربعة من نحو سبعين إنجيلاً» (النعمة 1985م، ص120- 121).

وهذا الأمر قد أكده القرآن الكريم في العديد من آياته منها قوله - تعالى-:

(وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ) (المائدة:14-15).

وقد تتساءل أين إنجيل عيسى - عليه السلام- الذي أوحاه الله إليه بوساطة جبريل -عليه السلام-؟!

والجواب على ذلك: أن عيسى - عليه السلام- قد اختار بعد أن أكرمه الله بالنبوة اثني عشر تلميذاً يبلغهم ما بلغه جبريل – عليه السلام- عن ربه، لكن هؤلاء التلاميذ كلهم لم يدون واحد منهم ذلك، بل اعتمدوا على ما حفظوه في ذاكرتهم.

فنحن نؤمن أن إنجيل عيسى - عليه السلام- واحد، لكن هذا الإنجيل لم يدون في

الوقت الذي أنزله الله، ولكنه كتب بعد رفع عيسى - عليه السلام- بمدة طويلة من الزمن، غير أن الذين كتبوا الأناجيل لم يكتبوا ما أنزل على عيسى - عليه السلام-، بل كتبوا مصنفات تاريخية محرفة، تتحدث عن عيسى - عليه السلام- وعن ولادته، وسموا ما كتبوه (إنجيلاً)، وهو في الحقيقية لا علاقة له بإنجيل عيسى - عليه السلام-، وهذا التوضيح يفسر لنا كثرة الأناجيل التي وصل عددها إلى عشرات الأناجيل، مما أدى إلى ضياع إنجيل عيسى وما أوحاه الله إلى عيسى - عليه السلام-.

لقد تأكد لديك - في الفقرات السابقة- أن الكتب السماوية السابقة، قد تضمنت أموراً مشتركة وحقائق ثابته لم تتغير من كتاب إلى كتاب، وهذا لا شك يؤكد حقيقة ساطعة أن هذه الكتب مصدرها واحد، وأن مصدرها من الله العلي الحكيم.

لقد اشتركت الكتب السماوية كلها في بيان عبودية الناس لله - عز وجل-، وهذا هو أصل كل دين جاء منه - سبحانه وتعالى-. كما اشتركت هذه الكتب في التبشير ببعثة محمد ﷺ، وذكر صفاته وصفات من اتبعوه من المؤمنين.

5.2 تحريفها ونماذج من التحريف

أخي الدارس، أختي الدارسة:

لقد تبين لك فيما سبق أن المطلوب من المسلم أن يؤمن بنزول التوراة على موسى - عليه السلام- بشكل مجمل، وأن يؤمن تفصيلاً بصحة ما تضمنته التوراة من حقائق ذكرها القرآن الكريم بشكل تفصيلي موضح.

فنحن -إذن- نؤمن بأن هذه النصوص لم يصبها شيء من التحريف، لكن أكثر التوراة قد أصابها التحريف والتبديل والإخفاء، قال الله - تعالى-:

(وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) (الأنعام:91).

وقال - تعالى- أيضا في وصف تحريفهم:

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:75).

ومما يذكر أن التوراة يطلق عليها اسم آخر هو (العهد القديم) للتفرقة بينهما وبين ما اعتمده النصارى من أسفارهم التي أطلقوا عليها اسم (العهد الجديد).

ويتكون العهد القديم من تسع وثلاثين سفراً، والتوراة ليست إلا جزءاً بسيطاً من أسفار العهد القديم، ومع ذلك فقد أطلق لفظ (التوراة) على جميع محتويات العهد القديم من باب إطلاق الجزء على الكل، أو لأهمية التوراة ونسبتها إلى موسى - عليه السلام-.

والعهد القديم مقدس لدى اليهود والنصارى، ولكن عدد أسفاره غير متفق عليه، فالنسخة الكاثوليكية عند النصارى تزيد سبعة أسفار عن النسخة اليهودية والبالغة (39) سفراً.

وتنقسم أسفار العهد القديم إلى أربعة أقسام رئيسة هي:

1- كتب موسى - عليه السلام-، أو الأسفار الخمسة، والتي يزعم اليهود أنها التي أنزلت على موسى - عليه السلام- وهي: (سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر اللاويين، وسفر العدد، وسفر التثنية).

2- الأسفار التاريخية: وهي التي تعرض لتاريخ بني إسرائيل، وعددها اثنا عشر سفراً، ومن أسماء هذه الأسفار: (سفر القضاة، وسفر الملوك الأول، وسفر الملوك الثاني).

3- أسفار الأناشيد أو (الأسفار الشعرية)، وهذه الأسفار تحوي أناشيد ومواعظ وترانيم دينية وتسابيح وأدعية وأذكار وأمثال، وعددها خمسة أسفار، ومن أسماء هذه الأسفار: (مزامير داود، وأمثال سليمان، ونشيد الإنشاد).

4- أسفار الأنبياء، وتتحدث عن رسالات أنبياء بني إسرائيل وتاريخهم من وجهة النظر اليهودية، وعددها سبعة عشر سفراً، ومن أسماء هذه الأسفار: (سفر يشوع، سفر إشعيا، وسفر إرميا، وسفر حزقيال، وسفر عامودي).

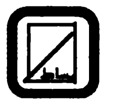
ويبدو من الدراسة الفاحصة لهذه الأسفار كما يقول الدكتور علي عبد الواحد وافي: «أن الوحي ليس المصدر الحقيقي لأسفار العهد القديم، فهي من صنع أجيال متعددة، وأن فترة التدوين بدأت منذ الأسر البابلي لبني إسرائيل، وأن الكهنة والأحبار كانوا يعتمدون على ما سمعوه من أخبار وأساطير وأقوال، وكثيراً ما كان الكهنة يكتبون ما يجيش في صدورهم أو ما يأملون على أنه حقيقة واقعة» (وافي:1971م، ص12).

وإذا رجعت - أخي الدارس، أختي الدارسة- إلى العهد القديم، تجد أن بعض الأسفار تنسب إلى بعض أسماء الأنبياء، ولكن الحقيقة أن هذه النسبة غير صحيحة، وأن هؤلاء الذين نسبت لهم الأسفار لم يكتبوها، وبعض هذه الأسفار ليست في الحقيقة إلا أساطير وأغنيات شعبية لصقها الكتاب ببعض الأنبياء، ويبدو أن اليهود بعد أن انحرفت عقائدهم وطباعهم تخلصوا من أسفار موسى - عليه السلام- الحقيقية، لأنها كانت تختلف عما باشروا من طباع وخلق، وكتبوا سواها مما يتناسب مع ما يريدونه.

ويبين الدكتور موريس بوكاي في كتابه المهم (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم) حقيقية العهد القديم فيقول:

«يتكون العهد القديم من مجموعة أسفار لا تتساوى في الطول وتختلف في النوع، كتبت هذه الأسفار على مدى يربو على تسعة قرون وبلغات مختلفة واعتماداً على التراث المنقول شفوياً، وقد صححت وأكملت أكثرية هذه الأسفار، بسبب أحداث حدثت أو بسبب ضرورات خاصة، وفي عصور متباعدة أحياناً» (بوكاي:1982م، ص 23).

اقرأ النص السابق جيداً، واحكم على مدى صحة أسفار العهد القديم، وحقيقة نسبتها إلى الرسل والأنبياء، خاصة إذا علمت أن قائل هذه الحقائق طبيب فرنسي وصل إلى هذه الحقيقة الساطعة من خلال دراسته العلمية الدقيقة لأسفار العهد القديم.



نشاط (2)

راجع كتاب الدكتور علي عبد الواحد وافي (الأسفار المقدسة) ولخص الصفحات (16- 20) المتعلقة بتاريخ تدوين أسفار التوراة.

ومن أجل التدليل على أن هذه الأسفار ليست من وحي الله، وأنها منسوبة إلى غير مؤلفها الحقيقي، نورد - أخي الدارس- نماذج تؤيد حقيقة تحريف التوراة:

1- انقطاع سندها «فالأسفار التي تنسب إلى موسى - عليه السلام-، لا يوجد من قريب أو من بعيد ما يفيد أن موسى - عليه السلام- هو الذي جاء بها، بل هي على النقيض من ذلك إذ يوجد فيها ما يدل دلالة قاطعة على أنها كتبت بعده بزمن طويل؟! فمثلاً جاء في سفر التثنية بخصوص وفاة موسى - عليه السلام- نص يقول: (فمات موسى عبد الرب في أرض مؤاب ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم)..... وليس من المعقول أن يكتب موسى - عليه السلام- ذلك عن نفسه. (طنطاوي:1968م، ص87).

وقد أوضحت دراسات كثيرة أن التوراة الموجودة الآن كتبت في أزمان مختلفة، وقام أكثر من كاتب بكتابتها، وهذا واضح في اختلاف الأساليب واللهجات بين سفر وسفر آخر؟!

2- وإذا نظرنا إلى التوراة الحالية، نجدها تظهر الذات الإلهية في أسفارها، صورة مجسمة متصفة بكثير من صفات الحوادث، بل بكثير من صفات النقص، وغير مختلفة اختلافاً كبيراً عن الخلق في طبيعتها ومسلكها.

وإليك مثالاً على ذلك من سفر التكوين: (أن الله - تعالى- بعد أن خلق السموات والأرض في ستة أيام، استراح في اليوم السابع، وكان يوم سبت، وأن الله قد بارك هذا اليوم من أجل ذلك حرم فيه العمل).

ألا ترى في هذا الوصف للذات الإلهية تشبيهاً للخالق بالمخلوق في التعب الجسماني، والله - تعالى- يقول:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ) (ق:38).

ولا شك - أنك ترى أخي الدارس- أن الكتاب السماوي منزه عن أن يشتمل على العبارة الباطلة التي جاءت في التوراة الحالية.

3- تنسب أسفار التوراة الحالية لبعض الأنبياء - عليهم السلام- أعمالاً قبيحة تتنافى مع قدرهم، بل تتعارض مع الخلق الكريم، ولا يتصور صدورها إلا من سفلة الناس، «ومن الإفك والبهتان ما نسب إلى سيدنا لوط - عليه السلام- من أنه زنا بابنتيه، وأن داود - عليه السلام- زنا بزوجة أوريا (أحد قواده)، وأن هارون - عليه السلام- دعا اليهود إلى عبادة العجل، وأن سليمان - عليه السلام- عبد الأصنام إرضاء لزوجته؟!

(النعمة: 1985م، ص117).

4- وإذا نظرنا إلى شريعة اليهود الموجودة في أسفار عهدهم القديم، نجد مظاهر تحريفها كثيرة ومتعددة، ذلك أنها تقوم على التفرقة العنصرية، وتجعل اليهود الشعب المختار، وتنظر إلى ما عداه من الشعوب نظرتها إل شعوب وضيعة.

(الطنطاوي:1968م، ص ص 92 - 93).

لقد تأكد لديك -الآن-، أن النصوص التي استشهدنا بها للتدليل على تحريف التوراة، إنما هي أمثلة بسيطة لما تحتويه التوراة من عقائد وأفكار لا تتفق من قريب ولا بعيد مع الكتاب السماوي المنزه عن علامات النقص.

تحريف الإنجيل: وإذا ما انتقلنا إلى الكتاب المقدس الثاني عند النصارى وهو (العهد الجديد)، فقد استقر رأي النصارى في أوائل القرن الخامس الميلادي على اعتماد سبعة وعشرين سفراً من أسفارهم، وقرروا أنها هي وحدها الأسفار المقدسة.

وتصنف أسفار العهد الجديد إلى ثلاث مجموعات وسفرين، فالمجموعات هي: (مجموعة الأناجيل وعددها أربعة، ومجموعة رسائل بولس وعددها أربع عشرة رسالة، ومجموعة الرسائل الكاثوليكية وعددها سبع رسائل، وأما السفران فهما: سفر أعمال الرسل وسفر رؤيا يوحنا).

وينقسم العهد الجديد من حيث محتوياته إلى قسمين:

الأول: الأسفار التاريخية.

الثاني: الأسفار التعليمية.

أما الأسفار التاريخية فتشمل ما يلي: الأناجيل الأربعة (إنجيل متى، وإنجيل لوقا، وإنجيل مرقص، وإنجيل يوحنا)، بالإضافة إلى رسالة أعمال الرسل.

أما الأسفار التعليمية فتشمل اثنتين وعشرين رسالة، وقد قام بتأليف أكثرها بولس، الذي لا يمت بصلة إلى عيسى - عليه السلام-، ولا إلى الحواريين، وأغلب عقائد النصارى تعتمد على رسائله؟!

ومن أجل زيادة التأكيد على أن الإنجيل الموجود ليس الإنجيل الموحى به إلى عيسى - عليه السلام-، نورد بعض الأدلة على صحة هذه الحقيقة وهي:

1- أول من يلقاك في الأناجيل الأربعة، أوجه اختلاف الأناجيل في الأمر الواحد الذي لا يقبل إلا حقيقة واحدة، ومن ذلك اختلاف إنجيل متى عن إنجيل لوقا في نسب المسيح - عليه السلام-، وكذلك في الرواية التي تتحدث عن القبض على المسيح لمحاكمته، فهي مختلفة تماماً في متى عما أورده يوحنا في إنجيله. (أبو زهرة: 1966م، ص 92).

2- «وقد بحث علماء أوروبا في الأناجيل الأربعة المشار إليها، فبينوا أنه لا يعرف متى كتبت ولا بأي لغة ألفت، وقال بعضهم: أن مؤلفيها: غير معروفين، واتهم بعضهم بولس بوضع أكثرها كما ترى في دائرة المعارف الفرنسية وغيرها».

(السائح: 1978م، ص247).

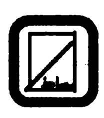
3- مرت على النصارى أدوار من الاضطهاد الديني، وذلك منذ رفع عيسى عليه السلام حتى أوائل القرن الرابع الميلادي، وكان اضطهادهم يجري على أيدي حكام الإمبراطورية الرومانية، وكان بعضها بدسائس اليهود، يقول الشيخ عبد الرحمن حبنكة:

«إن هذا الاضطهاد قد جعل النصارى في هذه الأحقاب يستخفون بدعوتهم،

ويفقدون كثيراً من كتبهم، ويجعل ديانتهم عرضة للضياع والتحريف، وخاصة من أعدائهم اليهود الذين كانوا يتظاهرون بالنصرانية. كما جعلهم طوائف عديدة وفرقاً متباينة في مذاهبها الاعتقادية، فمنهم الموحدون الذين يعتقدون بأن عيسى عبد الله ورسوله.... وطائفة منهم يعتقدون بألوهيته، وآخرون يعتقدون بأنه ابن الله» (حبنكة: 1979م، ص578).

ألا ترى معي - أخي الدارس- أن الاستخفاء مع ما يصحبه من خوف وعدم استقرار، قد أفقد الإنجيل السند المتصل الذي يربط بين كتبهم ونقولهم، وبين من تنسب إليه هذه الكتب أو القول... ؟!.

ولكي تتأكد من تناقض الأناجيل، بادر إلى حل النشاط التالي.



نشاط(3)

ارجع إلى كتاب محاضرات في النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة، من ص (84-97) ولخص أهم ما ذكر عن تضارب محتويات العهد الجديد.

4- أما الدليل الرابع الذي نورده على تحريف الإنجيل، فهو اعتناق الإمبراطور الروماني (قسطنطين) الذي حكم الدولة الرومانية من عام (306 - 337) الديانة النصرانية في سنة (312 م)، أي بعد ست سنوات من حكمه، فعطف على النصارى، وسمح بإعلان طقوسهم وعباداتهم، ولما رأى طوائفهم المختلفة، أراد أن يتدخل في شؤون الكنيسة، ليعتمد مذهب إحدى الطوائف المتصارعة المختصمة فيما بينها، فدعا إلى مجمع كنسي عالمي، فانعقد هذا المجمع الأول بأمره في نيقية في سنة (325م)، فكان يعرف هذا المجمع في التاريخ النصراني بـ (مجمع نيقية).

فما هو مجمع نيقية؟! وما هي نتائجه وآثاره على النصرانية؟!

مجمع نيقية: هو المجمع الذي دعا إليه قسطنطين من مختلف البلدان (2048) من البطارقة، والأساقفة، ودار النقاش فيه حول حقيقة المسيح - عليه السلام-:

أ- فطائفة تقول: إن المسيح عيسى - عليه السلام- رسول من عند الله فقط، وقد تزعم هذه الطائفة (آريوس)، وقد ناصره في الرأي أكثر من (700) بطريرك وأسقف.

ب- وطائفة تقول: إن المسيح وأمه إلهان من دون الله.

ج- وطائفة تقول: إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة من نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها.

د- وطائفة تقول: إن المسيح إله.

وسمع قسطنطين مقال كل فرقة، فعجب من هذا الخلاف، وأمرهم أن يتناظروا، لينظر مع من هو الدين الصحيح بحسب وجهة نظره؟! ثم استحسن هذا الإمبراطور (الذي دخل في النصرانية بدون أن يدرس أصولها) رأي الذين يقولون بألوهية المسيح، وذلك

لقرب هذه الفكرة مما كان يعتقد قبل أن يعتنق النصرانية؟!

فأحصى قسطنطين القائلين بألوهية المسيح في هذا المجمع، فكان عددهم (318)، فجمعهم في مجلس خاص بهم، وجلس في وسطهم، وأخذ خاتمة وسيفه وقضيبه، فدفعها إليهم وقال لهم: (قد سلطتكم على مملكتي لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوه، مما فيه قوام الدين، وصلاح المؤمنين). فبارك هؤلاء الملك، وقلدوه سيفه، وقالوا له: أظهر دين النصرانية.

وبعد أن أقر قسطنطين عقيدة هؤلاء، فقد سلطهم على أن يصدروا أمراً بتحريف جميع الكتب التي تخالف هذا الرأي.

وفي هذا المجمع تم إقرار أسفار العهد الجديد التي سبق بيانها، ما عدا بعض رسائل منها، فقد تم إقرارها في مجامع أخرى انعقدت بعد ذلك.

وهذه الأسفار التي أقرها هذا المجمع بإرهاب من الإمبراطور، هي في الواقع قسم يسير من أصل عشرات الكتب ومئات الرسائل التي جاءت بها البطاركة والأساقفة لهذا المجمع من مختلف البلدان، والتي تم رفضها والأمر بمصادرتها وتحريقها، لأنها تتضمن خلاف ما أقره المجمع المذكور بسيف الإمبراطور؟! (حبنكة:1979م، ص ص79-580).

وبذلك -أخي الدارس، أختي الدارسة- يتأكد لديك أن العهد الجديد قد تم إعداده وتفصيله كما يريده قسطنطين ومن قال بألوهية المسيح؟!

5- إن التحريف في الإنجيل قد لعب دوره في إخفاء البشارات عن بعثة الرسول ﷺ، فقد تنكر النصارى لإنجيل (برنابا) الذي أتى بحوادث مهمة أكثر مما جاء في الأناجيل الأربعة مجتمعة.

يقول الشيخ إبراهيم النعمة: "إن إنجيل برنابا يعتبر حلقة الوصل بين النصرانية والإسلامية، وقد تداول هذا الإنجيل علماء الأمم الأوروبية، وأبدوا اهتمامهم به رغم عدم اعتراف الكنيسة به. لقد أنكرته الكنيسة ولم تعترف به، رغم أن قوة النسبة فيه لا تقل عما في الأناجيل الأربعة، وما سبب هذا الإنكار إلا لأن هذا الإنجيل أتى بما يخالف ما في الأناجيل الأربعة ورسائلهم مخالفة صريحة في صميم العقيدة" (النعمة:1985م، ص122).

وتؤكد الدراسات التي قام بها عدد من ذوي الاختصاص أن (برنابا) صاحب الإنجيل: إما أن يكون من الحواريين الاثني عشر، أو من الرسل السبعين، وسواء أكان من هؤلاء أم أولئك، فإنه قديس من قديسيهم؟!

ولقد حاول قسم من المستشرقين والمبشرين لقرب أفكار هذا الإنجيل من العقيدة الإسلامية أن يزعم أن مؤلفه رجل مسلم؟! ولكن الحوادث التاريخية تنفي ذلك، فيذكر المؤرخون النصارى أن البابا (جلاسيوس الأول) الذي تسلم كرسي البابوية في سنة (492م) - أي قبل بدء البعثة المحمدية بنحو قرن وعشر سنين- قد أصدر أمراً بابويا يعدد أسماء الكتب المنهي عن مطالعتها، ومن جملتها إنجيل يسمى (إنجيل برنابا)، وقد

بقي هذا الإنجيل سراً مكتوباً ومحفوظاً في مكتبة الفاتيكان حتى سنة (1709م) حتى سرق وهُرّب من قبل أحد الرهبان؟!

وإذا تصفحنا صفحات هذا الإنجيل -الذي نقل إلى اللغة العربية-، سوف نجد أنه يختلف عن الأناجيل الأربعة بأشياء كثيرة، من أهمها:-

1- أن المسيح لم يكن إلهاً ولا ابناً لله، ويورد برنابا قول عيسى - عليه السلام- منكراً زعم من يؤلهونه: "إني أشهد أمام السماء وأشهد كل ساكن على الأرض أني بريء من كل ما قاله الناس عني من أني أعظم من بشر، لأني بشر مولود من امرأة وعرضة لحكم الله، أعيش كسائر البشر عرضه للشقاء العام" (برنابا: 1393 هـ، الفصل الرابع والتسعون 1-2).

2- أن المسيح - عليه السلام- لم يصلب، والذي صلب هو (يهوذا) الخائن الذي شبه به، يقول برنابا وهو يورد قول عيسى - عليه السلام-: "فاعلم يا برنابا أنه لأجل هذا يجب علي التحفظ وسيبيعني أحد تلاميذي بثلاثين قطعة من نقود، وعليه فإني على يقين من أن من يبيعني يقتل باسمي، لأن الله سيصعدني من الأرض وسيغير منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياي" (برنابا: 1393 هـ، الفصل 112 ، ص ص14- 16).

3- أن الذبيح من ولدي إبراهيم -عليه السلام- هو (إسماعيل -عليه السلام-) وليس (إسحق - عليه السلام-)، كما يزعم اليهود وأخذ عنهم النصارى هذا الزعم.

4- أن النبي المنتظر هو (محمد ﷺ)، ويذكر بالاسم الصريح.

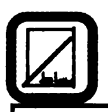
ومن خلال الحقائق الثابتة حول العهدين القديم والجديد، نستطيع أن نستنتج أنه لا تصح الثقة بأي نص من نصوص كتب العهدين القديم والجديد، خاصة كتاب العهد الجديد، فهي جميعاً عبارة عن تاريخ ناقص لعيسى - عليه السلام-، وهي متعارضة في نصوصها ومتناقضة، كما أنها مجهولة الأصل، ومجهولة التاريخ بشكل قطعي.

وبناء على ذلك فإن موقف المسلم من العهدين القديم والجديد، حسب الحقائق السابقة يقوم على أمرين اثنين:

1- لا يصح الاعتقاد بأي كتاب من كتب العهدين القديم والجديد على أنه كتاب من عند الله لأنها تفقد وسائل صحة النسبة إلى الله - تعالى-.

2- إن مضمون كل نص من نصوص كتب أهل الكتاب الحالية، سواء كان خبراً تاريخياً، أم حقيقة علمية، أم حكماً شرعياً: إن صدقه القرآن، أو صدقته السنة فهو مقبول عندنا، وإن كذبه القرآن أو كذبته السنة فهو مردود عندنا يقيناً، وإن سكت القرآن وسكتت السنة عن تصديقه أو تكذيبه، فإننا نسكت عنه، فلا نصدق ولا نكذب، لاحتمال الصدق والكذب فيه، إلا إذا دلت دلائل الواقع على تصديقه أو تكذيبه.

(حبنكة:1979م، ص:585).



نشاط (4)

شاهد شريط الفيديو بعنوان (المناظرة الكبرى) الذي يجيب عن سؤال: هل الإنجيل كلام الله ؟ ثم لخص أهم أوجه التحريف في الإنجيل بناء على ما ورد فيه.

أسئلة التقويم الذاتي (1)

1- وضح العلاقة بين الرسول والكتاب السماوي، مستدلاً ببعض الآيات القرآنية.
2- اذكر الكتب السماوية التي يجب على المسلم الإيمان بنزولها تفصيلاً.
3- فسر كيف نؤمن بالكتب السماوية السابقة، بالإجمال أم بالتفصيل؟
4- اذكر ثلاث آيات من القرآن الكريم، تذكر أحكاماً أو عقائد ذكرتها الكتب السماوية السابقة.
5- اذكر أهم الأمور التي تبين تحريف التوراة وتبديلها.
6- وضح كيف أن الاضطهاد الديني كان أحد الأسباب التي أدت إلى تحريف العهد الجديد.
7- اذكر أهم القضايا التي يختلف فيها إنجيل برنابا عن بقية الأناجيل الأربعة الأخرى.
8- وضح موقف المسلم من محتويات العهدين القديم والجديد.
9- أجب بـ (نعم) أو (لا) على ما يلي:
أ- يتضمن مفهوم الكتاب شرعاً: الصحف والألواح، وجميع أنواع الوحي اللفظي أو الكتابي.
ب- يجوز إنزال الكتاب من غير إرسال رسول معه.
ج- الزبور هي الألواح التي أنزلها الله على موسى -عليه السلام-.
د- الإنجيل الموجود حالياً يحتوي على إنجيل واحد فقط.
هـ- جميع الذين حضروا مجمع نيقية من البطاركة والأساقفة وافقوا على القول بألوهية عيسى - عليه السلام-.
و- تحتوي التوراة الحالية على ستة وأربعين سفراً.
ز- إنجيل برنابا عرف قبل بعثة الرسول ﷺ بما يزيد عن قرن.

3. القرآن الكريم

1.3 تعريفه وأسماؤه

أخي الدارس، أختي الدارسة:

سبق أن عرفت في النقاط السابقة، أن الله – سبحانه وتعالى– حين أنزل الكتب السماوية السابقة لم يتكفل بحفظها، بل استحفظ عليها أناساً، لكنهم لم يحافظوا عليها، وما رعوها حق رعايتها، فحصل فيها التغيير والتبديل.

وقد انتهينا إلى نتيجة واضحة وهي: أن القرآن الكريم هو الكتاب الرباني الوحيد الذي تكفل الله – تعالى– بحفظه، ولهذا لم تمتد إليه أيدي المحرفين والمبدلين، يقول الله – تعالى–: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ) (الحجر:9).

وليس من الصعب أن نصل إلى هذه النتيجة المنطقية، لأننا أدركنا أن الكتب السماوية السابقة قد امتدت إليها الأيدي بالتحريف والتبديل حسب الأهواء والشهوات، وبقي القرآن الكريم الكتاب السماوي الوحيد الذي لم يتطرق إليه أي تبديل كان، أو تحريف، أو تغيير، أو زيادة أو نقصان، ويبين الله – تعالى– ذلك بقوله:

(قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (المائدة:15-16).

وقوله –تعالى–:

(وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ) (المائدة:48).

من أجل هذا كان القرآن العظيم هو معجزة محمد بن عبد الله – صلوات الله عليه– فهو خاتم الكتب السماوية لخاتم الأنبياء والمرسلين.

1.1.3 تعريف القرآن الكريم

"هو كلام الله المعجز الذي أنزله على النبي محمد ﷺ المسطور في المصاحف

المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، وهو المعجزة الكبرى الخالدة لهذا النبي الأمي –عليه الصلاة والسلام–، التي لا يخبو شعاعها. أنزله الله بواسطة الأمين جبريل –عليه السلام– بلسان عربي مبين دستوراً جامعاً، ورحمة للعالمين، وهو ليس بالنثر ولا بالشعر فجاء على غير مثال سبق، وبنزوله كملت الرسالات السماوية" (غزلان:1980م، ص9).

وهذا التعريف نجد فيه فوائدة جمة منها:

1- أن القرآن الكريم هو الآية الإلهية الخالدة، المعجز أبد الدهر، فلا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله لبلاغته وفصاحته وأسلوبه ومحتوياته العلمية أو الغيبية، والتشريعية والأخلاقية وغير ذلك.
2- أن القرآن الكريم، هو الكتاب الذي تلقته الأمة بألفاظه ونصوصه عن سيدنا محمد ﷺ، وهو تلقاه عن جبريل، عن الله –عز وجل–، بتواتر الثقات خلفاً عن سلف.
3- أن القرآن الكريم هو الكتاب الجامع لأسمى المبادئ، وأقوم المناهج، وأفضل النظم، والمشتمل لكل ما يحتاجه البشر من العقائد والعبادات، والآداب، والمعاملات.
4- أن القرآن كان وسيبقى مشعل هداية للإنسانية على مر العصور والأزمان، فهو الذي أضاء لها الطريق فأخرجها من الظلمات إلى النور، وأخذ بيدها إلى الحق والطريق المستقيم.
5- أن القرآن لا يوصف لا بالنثر ولا بالشعر، لأنه ليس كلام بشر وإنما هو كلام الله المنزل إلى نبيه ﷺ.

ولا نجد وصفاً أبلغ ولا أدق من وصف رسول الله ﷺ لهذا القرآن، فاستمع إليه حيث يقول:

"كتاب الله فيه نبأ من كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، والصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذا سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾ (الجن:1-2) من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم" (رواه الترمذي وأحمد والدارمي).

اقرأ النص السابق جيداً، وتأكد من حقيقة واضحة، وهي أن هذا الكتاب العظيم مستوعب الهداية بكل معانيها، فهو وصف لازم له، وسمة بارزة عليه، لا تنفصل عنه،

هدى لكل من نظر إليه أو تدبر فيه أو استمع له، أو عمل به، أو دعي إليه.

ومن هنا كان أول ما يقرع سمع قارئ القرآن الكريم وقلبه بعد الفاتحة من هذا الكتاب هذا الوصف الوارد بصيغة بالغة في التأكيد والحصر:

(ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) (البقرة:2).

2.1.3 أسماء القرآن الكريم

لقد سمى الله – تعالى– كتابه بأسماء وأوصاف كثيرة، منها الأسماء التالية:

1- (القرآن): (إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ) (الإسراء:9).

2- (الكتاب): (لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (الأنبياء:10).

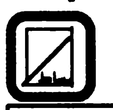
3- (الفرقان): (ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا) (الفرقان:1).

4- (الذكر): (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ) (الحجر:9).

5- (التنزيل): (وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) (الشعراء:192).

وقد غلب من أسمائه: (القرآن) و (الكتاب)، ولكن يجب أن نتذكر أن كثرة الأسماء هنا تدل بلا شك على عظمة المسمى.

ولكي تتعرف على أسلوب القرآن في ذكر أسمائه، بادر إلى حل النشاط التالي:



نشاط (5)

ارجع إلى كتاب (الإتقان في علوم القرآن) جـ 1 – النوع السابع عشر في معرفة أسمائه – وبين خمسة أسماء أخرى للقرآن الكريم والحكمة من هذه التسمية.

لقد تأكد لديك الآن أن القرآن الكريم عندما ذكر هذه الأسماء لم يذكرها عبثاً، وإنما ذكرت من أجل أن يتبين قارئ هذا الكتاب سمو منزلته، وكثرة خصائصه، وعظم إعجازه، وهذه الجوانب إنما هي جزء بسيط من جملة خصائص هذا الكتاب العظيم.

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز في سبب تسميته (قرانـــاً) و (كتابـــاً) بقولـــه: "روعي في تسميته قرآناً كونه متلواً بالألسن، كما روعي في تسميته كتاباً كونـــه مـــدوناً بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه. وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجـــب حفظه في الصدور والسطور جميعاً أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى".

(دراز: ص ص12 - 13).

وكما أن للقرآن الكريم أسماء، فإن له من الأوصاف الشيء الكثير كذلك، منها:

1- (نور): (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا) (النساء:174).

2- (هـــدى) و (شـــفاء) و (رحمـــة) و (موعظـــة): (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) (يونس:57).

3- (مبارك): (وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ) (الأنعام:92).

4- (مبين): (قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ) (المائدة:15).

5- (بـــشرى): (مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ) (البقرة:97).

6- (عزيـــــــز): (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ) (فصلت:41).

7- (مجيد): (بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ) (البروج:21).

8- (بشير، و (نذير): (كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) (فصلت: 3-4).

وكل تسمية أو وصف فهو باعتبار معنى من معاني القرآن الكريم.

(قطان: 1981م، ص23).

2.3 وجوب الإيمان به

1.2.3 وجوب الاتصال به وحده

لقد عرفت في الفقرة السابقة أهمية القرآن الكريم بالنسبة للمسلم، فهو مصدر المعلومات في كل ما يتعلق بالكتب السماوية السابقة، وهو أيضاً المطلوب اتباعه وطاعته فعلاً، لأنه خاتم الكتب السماوية، الذي لم تصل إليه أيدي المحرفين، قد حفظه الله وتعهد بحمايته من أيدي المبدلين؟!

ولا شك أننا بعد كل هذا نصل إلى نتيجة مهمة وهي: أنه لا بد من الانقطاع عن سائر الكتب السماوية السابقة، والاتصال بالقرآن وحده وذلك لوجوه عديدة منها:

1- أن كثيراً من الكتب السماوية لا توجد اليوم في الدنيا أصلاً، أما التي توجد منها، فما منها كتاب محفوظ بألفاظه ومعانيه الأصلية سوى القرآن، فقد اختلط فيها الكلام الإنساني مع الكلام الإلهي، واتحد فيها الهدي مع الضلال والحق مع الباطل لفظاً ومعنى. فالحقيقة -إذن- أن مثل هذه الكتب لا يرجع إليها، ولا يمكن أن ترجع على الإنسان بشيء من العلم الصحيح والنور الحقيقي، ومن المحال إذا اتبعها الإنسان أن يأمن على نفسه الوقوع في الضلال.

2- كل ما يوجد في الدنيا اليوم من الكتب السماوية السابقة نجد فيها أثراً بارزاً للقومية العنصرية الضيقة في تعاليمه وأحكامه، أو فيه غلبة واضحة للظروف في زمن مخصوص من أزمان التاريخ، وقطر معلوم من أقطار المعمورة، لذا فإن كل هذه الكتب لم تكن وسيلة لهداية النوع البشري كله في أي زمن من الأزمان، وليس لها أن تكون كذلك في أيامنا الحضارة.

3- إن القرآن الكريم لا يزال حتى اليوم محفوظاً بعين الكلمات والأحرف التي نزل بها على رسول الله ﷺ، وما دب التغيير في حرف من أحرفه، أو حركة من حركاته. قد حفظه عن ظهر قلب في كل زمان آلاف مؤلفة، بل مئات الآلاف من الناس، وقرأه في كل يوم ملايين، بل عشرات الملايين منهم، وما زالت نسخه تضبط بالكتابة في كل زمان ولم يحدث قط بين المؤمنين به اختلاف يسير بشأن حرف من أحرفه.

إذن لا مجال للريب في أن القرآن الذي سمعه الصحابة من لسان الرسول ﷺ، هو عينه الذي لا يزال بين أيدينا حتى اليوم، وسيبقى كذلك - إن شاء الله- ما دامت السموات والأرض.

4- إن الخطاب في القرآن الكريم موجه إلى النوع البشري من حيث مجموعه، وما كل ما جاء فيه بيانه من العقائد ومبادئ الأخلاق وقوانين العمل، مختصاً بزمن من الأزمان،

أو بأمة من الأمم، أو بناحية من نواحي الأرض، وإنما كل تعليم من تعاليمه عـــالمي وخالد معاً

5- إن القرآن الكريم قد جمع فيه كل ما جاء بيانه في الكتب السماوية السابقة من الحقائق والمعارف والفضائل، بحيث من المحال أن يستخرج من كتاب أي دين من الأديان في العالم شيء هو حق وصدق، لذلك فإن وجود مثل هذا الكتاب بين يدي الإنسان يجعله يستغني عن كل كتاب سواه. (المودودي: ص ص 210 - 213).

ومن خلال الوجوه السابقة نستخلص الأسباب التي لأجلها يأمر الإســـلام أتباعــه بالانقطاع عن سائر الكتب السماوية السابقة، والتعلق بالقرآن وحده في طاعتهم واتباعهم، ويدعوهم إلى جعله دستور حياتهم، يقول -جل جلاله-:

(إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمًا) (النساء:105).

ويقول -تعالى-:

(فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ) (الأعراف:157).

ولأجل هذه الوجوه والأسباب نفسها يدعو الإسلام الناس إلى الإيمـــان بـــالقرآن واتباع أحكامه وتعاليمه، بما في ذلك الأمم التي لديها كتاب سماوي من قبل، وفـــي ذلـــك يقول - تعالى-:

(وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ) (البقرة:99).

"ولذلك فنحن نؤمن بالقرآن كله إجمالاً، كما نؤمن به تفصيلاً، نؤمن بكل آية من آياته المثبتة فيه، على أنها من عند الله - تعالى-، نقلت إلينا بالتواتر القطعـــي الـــذي لا يترك عذراً لمرتاب. من أنكر شيئاً منه فهو كافر؛ لأنه جاحد لكلام الله، مكذب لرسوله" (حبنكة1979 م، ص 543).

بناء على هذا فإن الإيمان بالقرآن إيمان تفصيلي، قد بينه القرآن وفصل فيه فـــي العديد من آياته، ومن ذلك:

1- أن القرآن محفوظ بالكلمات والأحرف التي نزل بها على الرسول ﷺ، ذلك ما تـــدل

عليه الآيات التالية:

(إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ)

(القيامة:17-18)

2- وأن ليس لأية قوة من القوى الشيطانية أو غيرها دخل في تنزيله، وهذا ما بينه رب العزة بقوله:

(وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ) (الشعراء:210-212).

وقوله -عز وجل-:

(وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ)

(النجم:3-4)

3- وأن القرآن الكريم كله حق، لم ينزل على الظن والشك، وإنما نزل على العلم واليقين، وأنه لا زيغ فيه ولا عوج، وإنما يهدي إلى صراط الله المستقيم، يقول الله -تعالى-:

(وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ) (سبأ:6).

4- ومن الأمور التي تؤكد حقيقة اتباع هذا الكتاب في كل أمر فصله، أن القرآن الكريم ليس لأحد - حتى للنبي- أن يغير أحكامه وتعاليمه، وفي ذلك يقول الله -تعالى- على لسان رسول الله ﷺ:

(قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (يونس:15).

هذه هي العقيدة الإسلامية بشأن القرآن الكريم، ولعلك قد أيقنت أن من يؤمن بالقرآن الكريم، عليه أن يؤمن به تفصيلاً، وأن المسلم لا يستطيع بأي حال أن يتبع القرآن اتباعاً صحيحاً من غير أن يؤمن إيماناً كاملاً بكل حرف من حروفه، فالقرآن العظيم لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

2.2.3 شبهات الجاحدين على القرآن الكريم

لعلك تتساءل، وقد تبين لك صدق القرآن الكريم وتحريف غيره من الكتب: ألم يقم أعداء الإسلام بإثارة الشبهات حول القرآن الكريم؟ والجواب: نعم، فهذا هو طريقهم قديماً وحديثاً. نذكر فيما يلي بعض الشبه التي أثارها هؤلاء، وهي شبه واهية مردودة، نذكر بعضها ونرد عليها:

1- زعموا أن القرآن الكريم من عند محمد ﷺ، ابتكر معانيه، وصاغ أسلوبه، وليس وحياً يوحى.

وهذا زعم باطل، فإنه -عليه الصلاة والسلام- إذا كان يدعي لنفسه الزعامة ويتحدى الناس بالمعجزات لتأييد زعامته، فلا مصلحة له في أن ينسب ما يتحدى به الناس إلى غيره وكان باسطاعته أن ينسب القرآن لنفسه، ويكون ذلك كافياً لرفعة شأنه، والتسليم لزعامته، ما دام العرب جميعاً على فصاحتهم قد عجزوا عن معارضته.

ولا يقال، إنه أراد بنسبة القرآن إلى الوحي الإلهي أن يجعل لكلامه حرمة حتى يستعين بهذا على استجابة الناس لطاعته وإنفاذ أوامره. ويرد على هذه الشبهة: بأن للنبي كلاماً نسبه لنفسه يسمى بالحديث النبوي، ولم ينقص ذلك من لزوم طاعته شيئاً، ولو كان الأمر كما يتوهمون لجعل كل أقواله من كلام الله - تعالى-.

لقد اتهم المنافقون زوجه عائشة بحديث الإفك، وهي أحب أزواجه إليه واتهامها يمس كرامته وشرفه، وأبطأ الوحي، وتحرج الرسول ﷺ، وتحرج صحابته معه حتى بلغت القلوب الحناجر، وبذل جهده في التحري والاستشارة، ومضى شهر بأكمله، ولم يزد على أن قال لها آخر الأمر: "أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله". وظل هكذا إلى أن نزل الوحي ببراءتها، فماذا كان يمنعه لو أن القرآن كلامه من أن يقول كلاماً يقطع به ألسنة المتخرصين، ويحمي عرضه؟!

2- وزعم الجاهليون قديماً وحديثاً أنه - عليه الصلاة والسلام- كان له من حدة الذكاء، ونفاذ البصيرة، وقوة الفراسة، وشدة الفطنة، وصفاء النفس، ما يجعله يدرك مقاييس الخير والشر، والحق والباطل، بالإلهام، ويتعرف على خفايا الأمور بالكشف والوحي النفسي، ولا يخرج القرآن عن أن يكون أثراً للاستنباط العقلي، والإدراك الوجداني عبر عنه محمد ﷺ بأسلوبه وبيانه.

وأي شيء في القرآن يعتمد على الذكاء والاستنباط والشعور؟ فالجانب الإخباري - وهو قسم كبير من القرآن- لا يماري عاقل في أنه لا يعتمد إلا على التلقي والتعلم.

لقد ذكر القرآن الكريم أنباء من سبق من الأمم والجماعات والأنبياء والأحداث التاريخية بوقائعها الصحيحة الدقيقة، كما يذكر شاهد العيان مع طول الزمن الذي يضرب في أغوار التاريخ إلى نشأة الكون الأولى، بما لا يدع مجالاً لإعمال الفكر ودقة الفراسة، ولم يعاصر محمد ﷺ تلك الأمم وهذه الأحداث في قرونها المختلفة حتى يشهد وقائعها وينقل أنباءها، كما لم يتوارث كتبها ليدرس دقائقها ويروي أخبارها.

ومنها أنباء دقيقة تتناول الأرقام الحسابية التي لا يعلمها إلا الدارس البصير، مثل قصة نوح، وقصة أصحاب الكهف... فمن أين أتى محمد ﷺ بهذه الدقائق الصحيحة لو لم يكن يوحى إليه، وهو الرجل الأمي الذي عاش في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب؟!

3- أما الزعم الثالث فهو زعمهم أن محمداً ﷺ قد تلقى العلوم القرآنية على يد معلم؟!

وهذا حق، إلا أن المعلم الذي تلقى عنه القرآن هو ملك الوحي، أما أن يكون له معلم آخر من قومه، أو من غير قومه فلا؟!

إنه - عليه الصلاة والسلام- قد نشأ أمياً وعاش أمياً، في أمة أمية لم يعرف أحداً يحمل وسام العلم والتعليم، وهذا واقع يشهد به التاريخ.

أما أن يكون له معلم من غير قومه، فإن الباحث لا يتسطيع أن يقع في التاريخ على كلمة واحدة تشهد بأنه لقي أحداً من العلماء حدثه عن الدين قبل إعلان نبوته.

حقيقة أنه رأى في طفولته (بحيرا الراهب)، ولقي في مكة ورقة بن نوفل إثر مجيء الوحي، ولقي بعد الهجرة علماء من اليهود والنصارى، لكن المقطوع به أنه لم يتلق عن أحد من هؤلاء شيئاً من الأحاديث قبل نبوته... أما بعد النبوة، فقد كانوا يسألونه مجادلين فيستفيدون منه ويأخذون عنه...؟!

ونقول لهؤلاء الذين يزعمون أن محمداً ﷺ كان يعلمه بشر: ما اسم هذا المعلم؟ وعندئذ ترى الجواب المتهافت المتداعي في (حداد رومي) ينسبون إليه ذلك، فكيف يستساغ عقلاً أن تكون العلوم القرآنية صادرة عن رجل لم تعرفه مكة عالماً متفرغاً لدراسة الكتب؟ بل عرفته حداداً منهمكاً في مطرقته وسندانه، عامي الفؤاد، أعجمي اللسان لا تعدو قراءته أن تكون رطانة بالنسبة إلى العرب.. يقول -تعالى- في الرد على أمثال هذا الزعم:

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ)

(النحل:103). (القطان:1981م، ص40 - 48)

وبهذا يتبين لك أن القرآن لا يوجد له مصدر إنساني لا في صاحبه نفسه، ولا عند أحد من البشر، فهو تنزيل الحكيم الحميد.

3.3 خصائص القرآن الكريم ومزاياه

لقد تأكدت - أخي الدارس، أختي الدارسة- في الفقرة السابقة أسباب إيماننا بالقرآن الكريم، ومن أجل أن نوضح هذه الحقيقة، نبين في هذه الفقرة خصائص القرآن الكريم ومزاياه والتي تزيد من يقيننا بوجوب الإيمان بالقرآن الكريم إجمالاً وتفصيلاً.

إن خصائص القرآن الكريم ومزاياه لا يمكن حصرها، ففي كل يوم يكتشف الإنسان مزيداً من مزايا كتاب الله العظيم، ونكتفي بعرض بعض مزاياه، الدالة على إعجازه، وقد تضمن القرآن وجوهاً عديدة على إعجازه، بحيث لا يستطيع الإنسان مهما أوتي من علم وقدرات أن يأتي بمثله:

1.3.3 بعض الحقائق الدالة على الإعجاز

1- التحدي:

وهذا التحدي الذي جاء في آيات القرآن الكريم كان موجهاً إلى العرب وهم في أوج رفعتهم من حيث البلاغة والفصاحة، يعقدون الأسواق للتفاخر والتسابق في الخطب والقصائد، ومع هذا فقد عجزوا، وهو بلغتهم، التي بها يتنافسون ويتسابقون، عندما تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة من مثله.

يقول الشيخ عبد الحميد السائح:

"تواترات الأخبار الصادقة أن رسول الله ﷺ، جاء بالقرآن يتلو آياته ويعلم أحكامه ومحتوياته، وينكر على قومه جهالاتهم وضلالاتهم... ويتحدى قومه، بأن يأتوا بمثله، وهم أئمة البلاغة، وفرسان الفصاحة إن كانوا في شك من دعوته، أو ريبة في صحة نسبته، وقد تكرر هذا التحدي العلني في صور مختلفة، نقلها القاصي والداني، وفيهم المعارضون الممعنون في معارضتهم، والمتمادون في جحودهم وعنادهم..... ومع هذا يخاطبهم عن الله سبحانه، في لهجة الواثق بما يقول... فلو كانوا يستطيعون سبيلاً لإخفاق دعوته لسلكوها، أو كانوا يجدون طريقاً لتكذيبه لأعلنوها، ولكنهم عجزوا وخابوا، مما أقام عليهم الحجة وأظهرهم على حقيقتهم معاندين مكابرين" (السائح:1978م، ص255 - 256).

اقرأ النص السابق جيداً لتتأكد أن القرآن الكريم قد تحدى أئمة اللغة وزعماء الفصاحة فلم يستطيعوا أن يعارضوه، ولا يدل هذا إلا على إلهية هذا الكتاب العظيم.

أخي الدارس، أختي الدارسة: لقد وقع التحدي القرآني لفصحاء العرب في صور

متعددة تتجلى في الآيات التالية:

أ- قوله – تعالى-:

(أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ) (الطور:33-34).

ب- وقوله – سبحانه-:

(قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (الإسراء:88)

ج- وقوله – عز شأنه-:

(أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) (هود:13-14).

د- وقوله – عز وجل-:

(وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) (يونس:37-38).

هـ- وقوله – تبارك اسمه-:

(وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ

﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ) (البقرة:23-24).

2- إخبار القرآن الكريم عن أمور الغيب

فقد سرد القرآن قصص الأقوام السابقة بشمولية ووضوح، فقد روى قصة الطوفان المدمر لقوم نوح، والحوار المؤثر بين موسى -عليه السلام- وفرعون، وقصة سيدنا إبراهيم مع قومه وأبيه، وكذلك قصة أهل الكهف.

وكل هذه الأخبار التي ذكرها القرآن الكريم، أثبت التاريخ وآثار الإنسان وقوعها، رغم أن بعضها قد مر على وقوعه آلاف السنين.

يقول موريس بوكاي في كتابه القيم (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم): "صحة القرآن التي لا تقبل الجدل تعطي النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل، ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة، لا العهد القديم، ولا العهد الجديد" (بوكاي:1982م، ص151).

ثم يأتي هذا الطبيب الفرنسي، بعد ذلك بمقارنة تثبت صحة رأيه، حيث يقارن بين رواية القرآن الكريم، ورواية العهد القديم في مسائل جوهرية عديدة، ومن هذه المسائل: (عملية تشكل الكون الأساسية وانتهاؤها إلى تكوين العالم)، فيقول:

يقدم القرآن في آيتين خلاصة مركبة ومختصرة للظاهرات التي كونت العملية الأساسية لتشكل الكون.

الآية الأولى قوله -تعالى-:

(أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

(الأنبياء:30)

والآية الثانية قوله - عز وجل-:

(ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ) (فصلت:11).

ثم يقول: ويجب الالتفات إلى ما يلي:

أ- الدعوى لوجود كتلة غازية ذات جزئيات، فكذلك يجب تفسير كلمة (دخان)، إذ يتكون الدخان عموماً من قوام غازي.

ب- الإشارة إلى عملية الفتق للكتلة الفريدة الأولى التي كانت عناصرها في البداية ملتحمة يقول القرآن عنها: (رتقاً)، ولنحدد جيداً أن (فتق) هو فعل القطع... هذا المفهوم في تفصيل الكل إلى أجزاء يتحدد بشكل دقيق في فقرات أخرى من القرآن، وذلك بذكر عوالم متعددة... ثم يقول: السموات إذن متعددة وكذلك الكواكب المشابهة للأرض.. وليس أقل ما يثير دهشة قارئ القرآن في العصر الحديث أن يجد في نص من هذا العصر تصريحاً بإمكان وجود كواكب أخرى تشبه الأرض في الكون، وهذا ما لم يتحقق منه الناس بعد في عصرنا، يقول - تعالى-:

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا) (الطلاق:12).

ويضيف الدكتور بوكاي قوله: وسبب آخر لإثارة دهشة قارئ القرآن في القرن العشرين، تلك الآيات التي تشير إلى ثلاث مجموعات من المخلوقات وهي:

- تلك التي توجد في السماء.
- تلك التي توجد على الأرض.
- تلك التي توجد بين السموات والأرض.

كما في قوله - تعالى-:

(لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ) (طه:6).

ثم يقول موريس بوكاي: بدهي أن يبدو هذا الخلق خارج السموات وخارج الأرض والذي أشير إليه مرات عدة، قد يبدو قليل التصور. ولكن، لكي تفهم معاني تلك الآيات يجب الاستعانة بأحدث الملاحظات البشرية حول وجود مادة كونية خارج المجرات.

وأخيراً يصل موريس بوكاي إلى نتيجة مهمة وهي النقاط الأساسية التي يعلمنا بها القرآن فيما يتعلق بالخلق وهي:

1- وجود ست مراحل للخلق عموماً.
2- تداخل مراحل خلق السماوات مع مراحل خلق الأرض.

3- خلق الكون ابتداء من كومة أزلية فريدة كانت تشكل كتلة متماسكة تفصلت بعد ذلك.
4- تعدد السموات وتعدد الكواكب التي تشبه الأرض.
5- وجود خلق وسيط بين السموات والأرض. (بوكاي:1982م، ص162- 166).

أخي الدارس، أختي الدارسة:

لعلك بعد قراءة النص السابق أيقنت، بل ازددت يقيناً بالمزايا التي يمتاز بها القرآن عن بقية الكتب السماوية الأخرى. إن الحقائق التي أوردها الطبيب الفرنسي تؤكد أن معجزات القرآن الكريم لا تعد، ولا تحصى ففي كل يوم يكتشف الإنسان شيئاً جديداً... أليس في هذا دليل على أنه من عند الله؟!

فاذا رجعنا إلى كتاب موريس بوكاي، وتناوله مسألة جوهرية أخرى، وهي رواية (الطوفان في القرآن) نجد أيضاً معجزة هذا الكتاب الإلهي العظيم، يقول بوكاي:

"يقدم القرآن رواية شاملة مختلفة - عن العهد القديم- ولا تثير أي نقد من وجهة النظر التاريخية... ولكن قبل أن ننظر في مجرى الأحداث بالمعنى الحقيقي علينا أن نحدد الطوفان مثلما يخبر به القرآن بالنسبة إلى السياق العام للعقوبات التي أنزلها الله على جماعات أذنبت بشكل خطير بتعديها على وصايا الله. على حين تتحدث التوراة عن طوفان عالمي لعقاب كل البشرية الكافرة، يشير القرآن على العكس، إلى عقوبات عديدة نزلت على جماعات محددة جيداً.. تشير إلى ذلك الآيات من (35 - 37) من سورة الفرقان:

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا)

(الفرقان:35-37)

وعلى ذلك فالقرآن يقدم كارثة الطوفان باعتبارها عقاباً نزل بشكل خاص على شعب نوح، وهذا يشكل الفرق الأساسي الأول بين الروايتين..... إلى أن يقول: في نهاية الأمر، فالاختلافات بين روايات القرآن، وروايات التوراة موجودة، وهي مهمة... يصبح واضحاً تمام الوضوح عدم إمكانية اتفاق رواية التوراة - في تقديمها للطوفان بزمنه ومدته - مع مكتسبات المعرفة الحديثة. وعلى العكس من ذلك فإن رواية القرآن تتضح خالية من أي عنصر مثير للنقد الموضوعي" (بوكاي:1982 م، ص ص246 - 248).

3- أن القرآن الكريم كشف عن أمور ستقع في المستقبل، وهي في طي الغيب المجهول، مثل إخباره عن أن الروم سينتصرون على الفرس بعد سنين قليلة، يقول - تعالى-:

(الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ) (الروم:1-5).

4- ومن خصائص القرآن الكريم ومزاياه كشفه لكثير من الحقائق العلمية التي أثبتها العلم الحديث، يقول موريس بوكاي:

"الفرق قد ظهر واضحاً ومدهشاً بين دقة المعلومات القرآنية وصحتها في حالة مقارنتها بمعطيات العلم الحديث، كلما كانت تلك العلوم راجعة إلى العلوم الكونية... ويضيف قائلاً: كيف أمكن لمحمد ﷺ أن يتناول قبل أربعة عشر قرناً حقائق علمية في القرآن لم يكتشفها إلا التقدم العلمي في القرون الحديثة، لو لم يكن القرآن وحياً منزلاً لا شك فيه، ولا ارتياب في نصوصه" (بوكاي:1982م، ص277).

أليس في هذا الكلام الصادر من طبيب فرنسي ما يجعلنا نتمسك بهذا القرآن العظيم، فنطبق قوانينه، ونستخرج كنوزه التي لن تنتهي حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

2.3.3 أمثلة للحقائق العلمية الموجودة فيه

1- ومن الحقائق التي ذكرها القرآن الكريم قوله - تعالى-:

(وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ) (فاطر:12).

وقوله - تعالى-: (مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا

يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ) (الرحمن:19-22).

وقد كان الرأي المعروف أن اللؤلؤ والمرجان إنما تخرج من الماء المـــالح، ولكـــن القرآن كشف بأنهما يستخرجان من الأنهار كما يستخرجان من البحر المالح.
(السائح:1978م، ص262-263)

2- ومن حقائق العلم المذكورة في القرآن قوله - تعالى-:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ) (النور:43).

يقول الشيخ عبد الحميد السائح:

"هذه الآية سبقت ركب العلم في عدة أمور تضمنتها، أو إشارت إليها، فإن التشابه بين السحب، والجبال لا يعرفه إلا من ركب الطائرة يعلو بها فوق السحاب، فيراها من فوقـــه كأنها الجبال والآكام، والطائرات لم تكن معروفة في عصر نزول القرآن، وألفـــاظ الآيـــة ومعانيها سهلة واضحة، فالودق هو المطر، والبرد هو الثلج، وقد ينمو في الأجواء الحارة الرطبة حتى يبلغ حجم البرد.... وأما البرق فهو نتيجة التفريغ الكهربائي عنـــدما تـــشحن السحب الركامية بالكهرباء، ويتم التفريغ إما بين أجزاء السحابة الواحدة أو بين سحابتين، أما إذا تم بين أجزاء السحابة والأرض فإنه يسمى (الصاعقة). وتتنـــاول الآيـــة مراحـــل تكوين السحب الركامية وخصائصها، وما عرف علمياً إلا في العهد الأخير... فالـــسحب الممطرة تبدأ على هيئة وحدات يتألف عدد منها في مجموعات هي السحب الركاميـــة.... وأن هذه السحب هي وحدها، التي تجود بالبرد، وتشحن بالكهرباء، وقد يتلاحق حـــدوث البرق في سلسلة تكاد تكون متصلة فيذهب ببصر الواحد من شدة الضياء"
(السائح:1978م، ص 270)

أخي الدارس، أختي الدارسة:

إنك - بلا شك- تتساءل بعد هذه المعلومات المذهلة: كيف لمحمد ﷺ أن يعرف مثل هذه الحقائق العلمية لولا أنها من عند الله الذي خلقها وقدرها، وأوحى بحقائقها إلـــى رسوله ﷺ؟

3- وحقائق العلم واضحة أيضاً في قوله - تعالى-:

(وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (يس:38-40).

فقد تبين من هذه الآيات أنها من عجائب معلومات القرآن الكريم الكونية التي لم تكشف إلا في العلم الحديث، الذي أثبت أن كلاً من الشمس والقمر يجريان في أفلاك مرسومة.

"فالشمس والقمر، كل منهما يجري في أفلاك متوازية، فيستحيل أن يتقابلا، كما يستحيل أن يسبق الليل النهار... والقمر خلال دورته حول الأرض، ودورة الأرض حول الشمس يمر بمجموعات من النجوم تسمى بمنازل القمر" (السائح:1978 م، ص275).

4- ومن عجائب العلم التي ذكرها القرآن الكريم قوله - تعالى-:

(فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ)

(الطارق:5-8)

فالصلب هو منطقة العمود الفقري، والترائب جمع (تريبة) وهي عظام الصدر... " وقد أثبت العلم أن الأعضاء التناسلية وما يغذيها من أعصاب وأوعية دموية تنشأ من موضع في الجسم بين الصلب والترائب، أي (العمود الفقري والقفص الصدري)".

(السائح: 1978م، ص276)

5- وكذلك الأمر فيما يتعلق بمراحل تكوين الجنين، فقد أثبت العلم الحديث جميع الأطوار التي يعيشها الجنين في بطن أمه، وذكر القرآن الكريم ذلك قبل أربعة عشر قرناً، يقول- تعالى-:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ

مُضۡغَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمًا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ) (المؤمنون: 12- 14).

6- إن هذا الكتاب جاء على نحو عظيم من الإعجاز في البلاغة والفصاحة، وذلك إذا ما قيست عباراته وكلماته بالحديث القدسي أو بالحديث النبوي، فللقرآن الكريم مزية كبرى، ودرجة عظمى، لا يشترك معه فيها أي مرجع آخر، مهما سما مصدره، وعلا أمره.

فالحديث القدسي في الاصطلاح: "هو ما يضيفه النبي ﷺ إلى الله - تعالى- أي أن النبي ﷺ يرويه على أنه من كلام الله، فالرسول راوٍ لكلام الله بلفظ من عنده، وإذا رواه أحد رواه عن رسول الله مسنداً إلى الله - عز وجل-" (القطان:1981م، ص25).

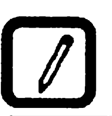
وهذا يعني أن القرآن الكريم في عباراته وكلماته لا يقارن حتى بالحديث القدسي.

فالقرآن الكريم كلام الله وقع به التحدي، بينما الحديث القدسي لم يقع به التحدي والإعجاز. والقرآن لا ينسب إلا إلى الله -تعالى- فيقال: قال الله -تعالى-، والحديث القدسي يروى مضافاً إلى الله فنقول قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه -عز وجل-.

والقرآن نقل إلينا جميعه بالتواتر، والأحاديث القدسية أكثرها أخبار آحاد.

والقرآن كذلك كلام الله، أنزل على رسوله ﷺ بلفظه ومعناه بواسطة جبريل، وأما الحديث القدسي فهو ما يرويه الرسول ﷺ عن الله - تبارك وتعالى- فمعناه من عند الله ولفظه من النبي ﷺ.

والقرآن أيضاً متعبد بتلاوته، وهو الذي تتعين القراءة به في الصلاة وقراءته عبادة، بينما الحديث القدسي لا يجزئ في الصلاة ولا يتعبد بتلاوته.



تدريب (3)

ارجع إلى النص السابق واستخرج أربعة فروق بين الحديث القدسي والقرآن الكريم.

بعد أن اطلعت على بعض خصائص القرآن الكريم ومزاياه، فإنك - بلا شك- قد زاد يقينك أن إيماننا بالقرآن ليس مجرد إيمان تجريدي لهذا الكتاب العظيم. وإنما إيمان بأن العناية الإلهية قد اختارت هذا الكتاب لهداية الناس أجمعين؛ ليبقى في كافة العصور والأزمان محيياً للأمة التي تتمسك به من الجهل والضياع، فيبعدها عن الرذيلة، ويجعلها مصدر إشعاع لكل أمم الأرض وشعوبها.

؟

أسئلة التقويم الذاتي (2)

1- اذكر ثلاثة أسماء للقرآن الكريم من خلال إيراد الآيات التي تذكر هذه الأسماء.
2- ما السبب في حفظ القرآن الكريم من دون الكتب السماوية السابقة؟
3- لخص أهم الأسباب التي تجعلنا نتصل بالقرآن الكريم وحده، ونترك ما عداه من الكتب السماوية السابقة.
4- لماذا نؤمن بالقرآن إيماناً تفصيلياً، وضح ذلك مع الأدلة؟
5- اذكر مثالاً على إعجاز القرآن الكريم العلمي.
6- اذكر شبهة قيلت في مصدر القرآن الكريم ثم ادحضها.
7- عرف الحديث القدسي، ثم عرف القرآن الكريم، واستخلص ثلاثة من الفروق بينهما.

4. الخلاصة

لقد درست في هذه الوحدة الإيمان بالكتب السماوية: القرآن الكريم، وما سبقه من الكتب السماوية، ومن المفيد أن أوجز لك أهم الأفكار الرئيسة التي نوقشت في هذه الوحدة:

1- العلاقة المهمة بين الرسول والكتاب، إذ لا بد للكتاب من رسول يبينه.
2- الإيمان الإجمالي بالأصول السماوية للكتب التي ذكرها القرآن الكريم.
3- الإيمان بأن الكتب السماوية السابقة قد تضمنت حقائق صحيحة قد بينها القرآن الكريم.
4- أن الكتب السماوية نزلت لهداية الناس إلى أصول العقيدة الصحيحة وإلى الشرائع العملية التي لا تستقيم حياتهم بدونها.
5- أن التوراة والإنجيل قد حرفا وبدلا، والأدلة على ذلك كثيرة ومتعددة.
6- لا يمكن أن نؤمن بأي من الكتب السماوية السابقة الموجودة بين أيدي اليهود والنصارى.
7- أن القرآن الكريم هو الكتاب الرباني الوحيد الذي تكفل الله -تعالى- بحفظه.
8- أن القرآن الكريم لم تمتد إليه أيدي المحرفين والمبدلين.
9- أن القرآن الكريم هو الكتاب الذي يجب الإيمان به وبكل ما احتواه من آيات وأحكام.
10- أن القرآن الكريم معجز بلفظه، ومعجز بالحقائق التي ذكرها وبينها في آياته.

5. إجابات التدريبات

تدريب (1)

الآيات الثلاث التي تصف الرسول بـــ (الإمام) أو (هاد)، هي:

1- قوله – تعالى-: (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) (الرعد:7).

2- وقوله – تعالى-: (فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) (مريم:43).

3- وقوله – تعالى-: (وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ) (النازعات:19).

أما الآيات التي تصف الكتاب بـــ (نور) و (برهان) و (فرقان) فهي:

1- قوله – تعالى-: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ) (الأنبياء:48).

2- وقوله – تعالى-: (قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ) (المائدة:15).

3- وقوله – تعالى-: (قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ) (النساء:174).

تدريب (2)

أهم الأحكام والتعاليم التي تضمنتها الصحف الأولى هي:

1- أن لا يتحمل أحد ذنب الآخر: (أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) (النجم:38)، فكل إنسان مسؤول مسؤولية كاملة عن عمله.

2- أن الإنسان لن يحاسب يوم القيامة إلا على عمله الذي عمله، لذلك فإن كان عمله صالحاً فسوف يرى ذلك بما يلاقيه من نعيم، وإن كان عكس ذلك فسوف يرى الجحيم.

3- أن الإنسان نهايته ستكون إلى الله.

4- أن الله – عز وجل- هو خالق كل شيء فهو المضحك المبكي، وهو المميت المحيي، وهو الذي خلق الأزواج كلها من تلك النطفة البسيطة.

5- أن الله قد أهلك العصاة والكافرين من الأقوام الأولى بسبب ظلمهم وطغيانهم وابتعادهم عن طريق الله.

تدريب (3)

أهم الفروق بين القرآن والحديث القدسي هي:

1- القرآن الكريم كلام الله، أنزله الله على رسوله بلفظه ومعناه، أما الحديث القدسي فهو ما يرويه الرسول ﷺ عن الله -تبارك وتعالى- مضافاً إليه، ومعناه من عند الله، ولفظه من عند الرسول ﷺ.
2- القرآن الكريم متعبد بتلاوته، فلا تصح الصلاة إلا به، ولا تجوز تلاوته من جنب. أما الحديث القدسي فلا يتعبد بتلاوته، ولا تصح الصلاة به، وتجوز تلاوته من جنب.
3- القرآن الكريم متواتر في نقله ولذلك فهو قطعي الثبوت، أما الحديث القدسي فهو في غالبه خبر آحاد.

6. مسرد المصطلحات

أخي الدارس: نطالعك فيما يلي بجملة من المصطلحات والمفاهيم الواردة في الوحدة وأهمها:

- **الإنجيل:** (الإنجيل) لغة يعني البشارة. أما اصطلاحاً: فهو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى - عليه السلام-.
- **التوراة:** (التوراة) لغة تعني التعاليم أو الشريعة. أما اصطلاحاً: فهي الكتاب الذي أنزله الله على موسى - عليه السلام-، وتشمل الصحف والألواح التي أنزلت عليه.
- **الزبور:** (الزبور) لغة يعني الكتاب. أما اصطلاحاً: فهو اسم علم على ذلك الكتاب الذي أنزله الله على داود - عليه السلام-.
- **العهد القديم:** هو الكتاب المقدس لدى كل من اليهود والنصارى، ويتضمن (39) سفراً، منها الأسفار الخمسة التي تتألف منها التوراة (سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، سفر العدد، سفر التثنية).
- **العهد الجديد:** هو الكتاب المقدس عند النصارى، ويتضمن (27) سفراً، منها الأناجيل الأربعة (إنجيل متى، وإنجيل مرقص، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا).
- **القرآن الكريم:** هو كلام الله المعجز الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ، المسطور في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته. وقد روعي في تسميته قرآناً كونه

متلواً أو مقروءاً بالألسن.

- **الكتاب:** إذا أطلق الكتاب عند المسلمين فإنما يعنون به كلام الله -تعالى- أي (القرآن الكريم).

- **المجامع الكنسية:** هيئات شورية كنسية تعقد بين رجال الدين في الكنيسة لدراسة أمور العقيدة والشريعة، وهي نوعان:

أ- مجامع مسكونية: أي على مستوى المسكونة وهي الأرض، وعلى هذا فهي عالمية.

ب- مجامع ملية أو محلية: وينظمها أصحاب الطائفة الواحدة أو المنطقة الواحدة.



7. المراجع

1- القرآن الكريم.

2- ابن حنبل، أحمد بن محمد، المسند، مؤسسة قرطبة، مصر.

3- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم - القاهرة، كتاب الشعب: 1971م.

4- أبو زهرة، محمد، محاضرات في النصرانية - القاهرة، مطبعة المدني: ط 3، 1966م.

5- برنابا، إنجيل برنابا. تحقيق سيف الله أحمد فاضل - الكويت، دار القلم: ط 1، 1393هـ.

6- البوطي، محمد سعيد رمضان، كبرى اليقينيات الكونية - دمشق، دار الفكر: ط 2، 1390هـ.

7- بوكاي، موريس، القرآن والتوراة والإنجيل والعلم - القاهرة، دار المعارف : 1982م.

8- الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر وآخرون، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

9- حبنكة، عبد الرحمن، العقيدة الإسلامية وأسسها - دمشق، دار القلم: 1979م.

10- الدارمي، عبدالله بن عبدالرحمن، سنن الدارمي، تحقيق فواز زمرلي وخالد السبع،

الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتاب العربي.
11- دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم (د.ت).
12- الذهبي، محمد حسين، التغير والمفسرون، 1961م.
13- السائح، عبد الحميد، عقيدة المسلم وما يتصل بها - عمان، وزارة الأوقاف الأردنية: 1979م.
14- سابق، السيد، العقائد الإسلامية - القاهرة، دار الكتب الحديثة (د.ت).
15- طنطاوي، محمد سيد، بنو إسرائيل في القرآن والسنة - القاهرة، دار الكتب الحديثة: (د.ت).
16- غزلان، رشيد، كنوز القرآن - عمان، جمعية عمال المطابع: ط 1 ،1985م.
17- القطان، مناع، مباحث في علوم القرآن - بيروت، مؤسسة الرسالة: ط 8 ،1981م.
18- المودودي، أبو الأعلى، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، دار الخلافة: (د.ت).
19- النعمة، إبراهيم، إيماننا الحق بين النظر والدليل - الموصل، مطبعة الزهراء: 1985م.
20- وافي، علي عبد الواحد، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام القاهرة: دار نهضة مصر:1971م.
21- ياسين، محمد نعيم، الإيمان - أركانه ونواقضه - عمان، دار الأرقم: 1987م.